الوحي والقرآن ومستقبل الإسلام

استقراء في كتاب الوحي الإسلامي للمستشرق مونتجمري وات

الوحي والقرآن ومستقبل الإسلام

استقراء في كتاب الوحي الإسلامي للمستشرق مونتجمري وات

الأستاذ الدكتور

مشتاق بشير الغزالي

دار النهضة العربية

رقم الكتاب :
اسم الكتاب :الوحي والقرآن ومستقبل الإسلام
المؤلف :د. مشتاق بشير الغزالي
الموضوع :
سنة الطبع : 2017م. 1438هـ/. ط1
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات :

تلفون : 854161 - 1 - 961 +
فاكس : 833270 - 1 - 961 +
ص ب : 0749 - 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ISBN 978-614-442-

دار النهضة العربية
بيروت ـ لبنان
منشورات : دار النهضة العربية
بيروت ـ شارع الجامعة العربية ـ مقابل كلية طب الاسنان
بناية اسكندراني رقم 3 ـ الطابق الأرضي والاول

«إن المواقف والأفكار الواردة في
هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر ورأي
المؤلف ولا تلزم اية جهة أخرى»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ الحجر (9)

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ ﴾ ال عمران (19)

الإهداء

الى قلبٍ ما زالَ ينبضُ بحب الناس، تعلمتُ

منه الحرف والكلمة والحب والامل والعطاء الانساني

والثقة باللّه تعالى .

الى قدوتي في الحياة والدي الغالي

الاستاذ الدكتور بشير حمود الغزالي

قائمة المحتويات

ت	العنوان	الصفحات
1	المقدمة	13
2	الفصل الاول /تجربة محمد مع الوحي	17
3	1- التجربة كما وصفها القرآن والسُنة	19
4	2-امكانية المراجعة	24
5	3- جمع القرآن	27
6	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الاول	30
7	1- مفهوم الوحي	30
8	2-مواصفات الوحي حسب رؤية وات	33
9	3- اهمية مادة السيرة في تعريف مفهوم الوحي	36
10	4- امكانية المراجعة	38
11	5- جمع القرآن	42
12	الفصل الثاني /افتراضات من الوحي القرآني	49
13	1- المعنى الضمني للقرآن العربي	51
14	2-تصورات قاطعة	55
15	3- افتراضات كونية	59
16	4- تصورات تاريخية	62
17	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثاني	66
18	1- عبارة "القرآن العربي"	66
19	2- الافتراضات الكونية	71

20	3-التصورات التاريخية	76
21	4- عالمية الدعوة الاسلامية	79
22	الفصل الثالث /الخبر في المحتوى القرآني	83
23	1- علاقته بالحالة المعاصرة	85
24	2-تفسير الاحداث المعاصرة	89
25	3-ادعاء القرآن الحداثة	92
26	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثالث	96
27	1- الخبر في المحتوى القرآني	96
28	2- تفسير الاحداث المعاصرة الواردة في القرآن	100
29	3- القرآن واحداث المستقبل	108
30	الفصل الرابع / نزول الوحي	115
31	1- الاستجابة للانبياء	117
32	2- اسس قبول الدعوة	119
33	3- مفهوم العرب للمعرفة	122
34	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الرابع	129
35	1- الاستجابة لدعوات الانبياء	129
36	2- اسس قبول الدعوة الاسلامية	133
37	الفصل الخامس / تفسير الدعوة	137
38	1- التفسير الابتدائي	139
39	2- منهج التفسير وتوظيفه	142
40	3- طرق التفسير	145
41	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الخامس	148
42	1- التفسير الابتدائي للقرآن الكريم	148

43	2- منهج التفسير القرآني وتوظيفه	154
44	3- طرق التفسير	157
45	الفصل السادس / الخط البياني للوحي	163
46	1- الابعاد الاسلامية لمشكلة اللغة الدينية	165
47	2- الاستعمال البياني للغة	167
48	3- اهمية ابراهيم في القرآن	170
49	قراءة نقدية لما ورد في الفصل السادس	176
50	1- الخطاب الديني للقرآن الكريم	176
51	2- اهمية ابراهيم في القرآن	180
52	الفصل السابع / تأثير الوحي	193
53	1- القرآن واسلوب الحياة الاسلامية	195
54	2- فشل المسيحية في الشرق الاوسط	198
55	3- تشكيل العالم وفق الرؤية الاسلامية	201
56	قراءة نقدية لما ورد في الفصل السابع	206
57	1- القرآن واسلوب الحياة الاسلامية	206
58	الفصل الثامن/ الاسلام في مستقبل العالم	211
59	1-علاقة الاسلام الحالية بالمسيحية	213
60	2- مهمة وحوار	216
61	3- قبول التكامل	223
62	قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثامن	227
63	1- الاسلام في مستقبل العالم	227
64	2- الاسلام يسود وينتصر	232
65	قائمة المصادر	247

مستقبل الغرب واحوالهم، ومصير قوتهم وهيمنتهم على العالم، هي من اكثر ما يشغل اذهان مفكري الغرب، فما سيشهده العالم من متغيرات على مستوى القيادة والتحكم، يشكل اشد هواجسهم، فالخوف كل الخوف من فقدان دور القيادة على مستوى العالم، لذا تتمحور التساؤلات في الغالب حول العوامل الاكثر قدرةً على احداث المتغيرات في المستقبل ؟ والكيفية التي سيُقاد فيها العالم ؟ ومن الذي سيتولى القيادة؟

هذه التساؤلات تأخذ حيزاً كبيراً عند اصحاب القرار الغربي، الذين مازالوا يتمسكون بقيادة العالم عسكرياً، واقتصادياً، وتكنولوجياً، ولكنهم اليوم لايقودون العالم دينياً، بل يفتقدون ذلك. هذا الامر جعلهم يبحثون بشكل جدي في امر تراجعهم الديني، فقيادتهم للعالم غير مكتملة وهي على المحك، لعدم تفوقهم الديني، رافق هذا التراجع الديني للمسيحية، تفوق اديان اخرى منافسة لهم، وتحديداً الدين الاسلامي.

لقد جاءت خطوتهم الاولى لمعالجة هذا التراجع المسيحي بتجنيد كل الطاقات والامكانيات، لتسقيط واضعاف الدين المنافس. وفي تقديري الشخصي فان حرب التسقيط والاضعاف الموجهة بشكل مباشر من قبل الغرب، قد ظهرت علاماتها بشكل واضح من خلال الحالة المُزرية التي تعيشها الدول الاسلامية اليوم، فمن ظهور التنظيمات الارهابية المنسوبة للاسلام المشوهة لصورته البيضاء كالقاعدة وداعش، الى تعريض البُنية الاجتماعية للمسلمين للتصدع والانهيار، الى محاولات تمزيق الوحدة الاسلامية .

ان كتاب (الوحي الاسلامي في العالم الحديث) للمستشرق مونتجمري وات، من بين اهم الدراسات الاستشراقية التي تُوضح لنا ما يشغل تفكير الغربيين بخصوص مستقبل العالم الديني، بل ويكشف حجم مخاوفهم من الوجود الاسلامي واتساعه على حساب بيئتهم المسيحية. فأهمية الكتاب يتحدث عنها وات نفسه في التمهيد قائلاً : "

هذا الكتاب وبخلاف بقية اعمالي حول الاسلام، ليس كتاباً اكاديمياً صرفاً، فهو يتضمن الكثير من العناصر الشخصية، انه محاولة للافصاح عن موقفي الذي توصلت اليه من انعكاسات عملي ولأكثر من ثلاثين عاماً حول العلاقة بين الاسلام والمسيحية " ([1]). اما عن الهدف من تأليفه لهذا الكتاب فقد قال : " ان الهدف الرئيس لهذا الكتاب، هو تسليط الضوء بدرجة عالية على الاسلام للقارئ الاوربي والامريكي من اصحاب التوجهات الدينية او العلمانية على حدٍ سواء... والاكثر اهمية من ذلك محاولة تحقيق الادراك الشامل بالاهمية المحتملة للاسلام في المائة عام المقبلة " ([2]). فبعد ان ادرك هو خطورة الديانة الاسلامية في المائة عام القادمة على الوجود والبيئة المسيحية في الغرب، اخذ على عاتقه انه يحذر وينبه كل التيارات الدينية والعلمانية، لكي يتهيئوا ويواجهوا هذا المد الاسلامي الخطير على مستقبلهم الديني. ومن الملاحظ ان هذا المستشرق لم يكتفِ بتنبيه الغرب بخطر الاسلام القادم وانما استعمل اسلوباً استفزازياً لهم لحثهم على التحرك السريع، هذا الامر نجدهُ واضحاً في الفصليين الاخيرين من كتابه.

الكتاب تضمن عشرة فصول ركز فيها على موضوعات الوحي الالهي الذي نزل على رسول الله محمد (صل الله عليه وعلى اله)، والنبوة، والقرآن الكريم، ثم انتقل في الفصول الاخيرة لمناقشة العلاقة بين الديانتين المسيحية والاسلام، مقترحاً شكلاً جديداً قائماً على السلام والقبول بالاخر، على ان ابرز فصوله كان الاخير منها، الذي تعرض فيه الى مستقبل الاسلام في العالم.

اما عن منهجنا نحن، الذي قد لايبدو مألوفاً لدى القارئ العزيز، وقد جرت العادة ان كتب المستشرقين، او الكتب الاجنبية عموماً تترجم الى العربية كما هي بنصوصها الاصلية، مع اضافات بسيطة تتمثل بالتعليقات الاعتراضية، او التوضيحية في الهامش، او التقديم الذي يوضع في بداية الكتاب. في الواقع عَّز علينا ان نكتفي بترجمة النص

1- Watt, W.Montgomery, Islamic revelation in the modern world,Edinburgh.1969,p v.

2- Ibid, p vi.

الاصلي، مع اضافة تعليقات بسيطة في الهامش، لان المستشرق وات قد ضّمَن كتابهُ افكاراً واطروحات عديدة وفي غاية الاهمية، اقتضت منا التعقيب المطول بالتحليل والنقد، ولكون ذلك ممكن ان يخلق مشكلة فنية في عملية الموازنة بين المتن والهامش، بين النص المترجم والتعليق، وجدنا انه من المناسب جداً ان نسير على منهج اخر، يقوم على ذكر النص المترجم متضمناً اهم الافكار التي وردت فيه، ومستبعدين بعض الاستطرادات. ومن ثم نورد نحن تعقيبنا على افكار ذلك النص المترجم متسلسلين معه فصلاً بعد فصل. مع الملاحظة اننا استبعدنا فصلين من فصول الكتاب العشر، هما (الفصل الاول) لان المستشرق وات جعله موضعاً لبيان منهجه في الكتاب الذي لم اجد فيه ما يستحق التعقيب. و(الفصل التاسع) الذي حمل عنوان (فكرة الوحي) حيث تداخل في موضوعه مع الفصل الثاني (تجربة محمد مع الوحي)، فوقع التكرار في ما ورد فيهما من افكار، فاكتفينا بما اوردناه من تعقيب مطول حول الفصل الثاني.

لقد اخترنا لهذه الدراسة الاستقرائية العنوان الاتي : (الوحي و القرآن ومستقبل الاسلام - استقراء في كتاب الوحي الاسلامي للمستشرق مونتجمري وات)، الذي سيلاحظ القارئ الكريم انه يتسق تماماً مع مضامين فصول الكتاب الثمان.

ان هذا العمل في الواقع هو فكرة قديمة لم تتهيأ الظروف للمباشرة فيه الا قبل عامين من الان، فكان الفضل الكبير في ذلك للاخت الفاضلة الاستاذة اكرام الغزالي التي تكفلت وبجهد كبير وشخصي من الحصول على النسخة الاجنبية لكتاب الوحي الاسلامي من احدى مكتبات الهند. بعد ذلك باشرت بترجمتها الى اللغة العربية بالكامل، فتهيأ لنا دراسة محتوى هذا الكتاب المهم دراسة تحليلية نقدية شاملة، والتعقيب على مجمل افكاره واطروحاته التي تضمنتها فصول الكتاب.

اننا في هذه الدراسة المتواضعة اجتهدنا بنّية صادقة، وموضوعية عالية في محاورة هذا المستشرق، لم نتحزب لشريعة سيدنا محمد المصطفى (صل الله عليه وعلى اله) كوننا من اتباعها وعليها ماضون وبها متمسكون بمشيئة الله تبارك وتعالى، ولكننا وجدناها هي

الشريعة الحّقة التي احق ان تتُبع، فهي دين الله تعالى الخالص الذي لم تطلهُ يد التحريف. فان وفقنا في بعض المحاورات والتعقيبات نسأل الله تعالى ان يجعله في ميزان حسناتنا، وان اخفقنا في ذلك نسأل الله تعالى العفو والصفح والمغفرة.

الفصل الاول : " تجربة محمد مع الوحي"

1 - "التجربة كما وصفها القرآن والسنة"

2 - "امكانية المراجعة"

3 - "جمع القرآن"

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الاول

1 - مفهوم الوحي

2ـ مواصفات الوحي حسب رؤية وات

3ـ أهمية مادة السيرة في تعريف مفهوم الوحي

4 - امكانية المراجعة

5 - جمع القرآن الكريم

1- التجربة كما وصفها القرآن والسنة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

ان المنهج المعاصر لدراسة هذا الموضوع، هو أن نبدأ مع التجربة الإنسانية لمحمد وهذا يعني العنصر الواقعي في تجربته بصرف النظر عن التفسير، ان الوصول الى العنصر الواقعي سيكون صعباً لان كل التجارب الواقعية بحاجة الى الاجتهاد لاجل فهمها، ويمكن على الأقل أن يحل محله شكل اخر من الاجتهاد اكثر ملائمة للنظرة المعاصرة. سيكون برنامج بحث هذا الموضوع بالاستناد الى نصوص وردت في القرآن وفي السُنة عن تجربة محمد، ثم نحاول تمييز عنصر الاجتهاد. في بداية التجربة كان هناك تصورين وصفها القرآن في دحض انتقادات المعارضين للنبوة وقد جاء ذلك في الآيات (2 - 18) من سورة النجم التي تقرأ ([1]) :

((ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)).

يتضح فور قراءة هذه الآيات إن الوصف الذي جاء فيها وصفاً غير علمي، ففي الرؤية الثانية كان فيها الشيء الكثير من الغموض سواء للعلماء المسلمين او لغير المسلمين، في الوقت الحالي فان المستخلص من هذه الدراسة شيء سلبي، اذ لا وجود لإشارة واضحة عن الوحي لمحمد في سياق هذه الرؤية، ولكن في الوقت الذي التقاهُ الوحي مرات

1- Watt,، Islamic revelation,p13.

عديدة تم ذكر هذه المرّة بالذات، فربما يمكن القول ان تلقيه الوحي لمرات عديدة لم تكن مقرونة بالرؤيا دائماً ([1]).

بالنسبة للرؤيا الأولى والتي وصفت باختصار في الاية(24) من سورة التكوير ((وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)) ([2]) مرة ثانية فيها جزء من الدفاع عن حقيقة الوحي... هذه الكلمات كانت أصلاً قد نقلت إلى المتلقين في مكة فكرة ان رؤيا محمد انما كانت رؤية الله ذاته ومن هنا جاء الاعتقاد لمحمد والمسلمين. آن مثل هذا التفسير للرؤيا كان طبيعياً، ومن المحتمل ايضا بمرور الزمن وعبر الاتصالات مع اليهود والمسيحيين وبوسائل اخرى ادرك المسلمون ان هنالك اعتقاد عام بان الله لا يمكن ان يراه البشر مثلما جاء في الآية(103) من سورة الانعام ((لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))، ويأتي التفسير بأن الملك الذي اوحى لمحمد هو مجرد ملك. ومما يؤكد ذلك في سياق الرؤيا ان هنالك وحي جاء لمحمد... ان الفعل الذي ترجم لكلمة reveal)) هو "أوحى" وهو بالنسبة للقرآن تعبيراً فنياً لتجربة محمد هذه، كما ان هنالك آثار لاستعمالات غير فنية للكلمة ([3]).

ففي الآية (11) من سورة مريم في قصة زكريا جاء فيها انه عندما خرج من الحرم ((فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)) وهذا يعني ان ترفع الأيدي الى الاعلى بمعنى (الاشارة باتجاه السماء).... ومن الاستخدامات التي تثير الاهتمام للوحي هو الإيحاء بالعين عند الكلام. ان معظم المعلقين والمترجمين يتعاملون في اغلب الاحيان بالترجمة الاعتيادية لكلمتي (اوحى) ([4]) و (الوحي) ([5])

1- Watt,Islamic revelation,,p13.

2- يبدو ان المستشرق وات اخطأ بالاشارة فقط لهذه الآية القرآنية وكان الاولى به الاشارة لها وللآية التي سبقتها ((ولقد رأه بالافق الاعلى. وماهو على الغيب بضنين)).

3- Ibid, p13.

4- reveal

5- revelation

على التوالي. يعتقد (Richard Bell) ([1]) ان هذه الكلمة ليست كلمة فنية في القرآن ويفضل استخدام كلمتي (يُلمح) و (تلميح) بدلها... ([2]).

ان الصعوبة في تفسير هذه الكلمة القرآنية ستتوضح في الآية (51) من سورة الشورى ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)) هذا يعني ان هنالك أساليب عديدة أخرى للوحي، وهذه نقطة تناولها في وقت لاحق عدد من العلماء المسلمين. ان الكلمات (من وراء حجاب) يفترض انها تعني، أي انه لا يرى الوحي، وهذا هو الوصف المناسب، ومن ناحية اخرى عندما يأتي الوحي من خلال رسول سيفترض المرء ان الوحي يمكن رؤيته على اساس انه (مَلَك). إن غياب أي وصف لمرأى المَلَك يجعل الأمر مشكوكاً فيه ([3])، وربما كان محمد على بينة من المَلَك بطريقة غير مباشرة... ([4]).

جانب أخر من الوحي اشير اليه في شكل (نزّل) و (أنزل) وكلاهما يعني (انزل) وهذه ذكرت ثلاث مرات في القرآن بما يعني (اوحى) ومشتقات هذه الكلمة. ان فكرة (الانزال) تفترض ضمناً بان هناك رسل كانوا يحملون الرسالة او الوحي من الله الى محمد وفي بعض الأحيان يتكلم الرسل بكل بساطة كملائكة، كما ورد في الآية التالية ((مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)) ([5]) أي ان الملائكة لا ينزلون الا بأمر من الله وكما جاء في الآية ((وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا

1- المستشرق رتشارد بيل (1876-1952 م) بريطاني الجنسية عمل في جامعة ادنبرة حتى 1939، له عدة مؤلفات في الدراسات القرآنية منها ترجمة النص القرآني عام 1939، كان مونتجمري وات قريباً منه وقد نقح ونشر اخر اعماله كتاب مقدمة في القرآن.

2- Watt,Islamic revelation, p14.

3- لقد ورد ذكر مرأى الملك جبرائيل عليه السلام من قبل النبي محمد (ص) في مناسبات عدة وعلى هيئات متعددة في المادة السّيرية وسنشير الى ذلك في معرض اجابتنا في موضوع الوحي.

4- Ibid, p14.

5- الآية (8) سورة الحجر.

بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)) ([1])... وأخيرا فان جبريل كان اسم الملك وفقاً الى الآية ((قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)) ([2]).

ان الاستنتاج الرئيس من هذه المناقشة ان تجربة محمد لم تكن من نوع واحد بل اختلفت من وقت الى أخر وفي الفترة الأخيرة ربما أصبحت بشكل واحد وهو الشكل الذي ورد في الآية الاخيرة مارة الذكر. ان المظاهر الاساسية في هذه التجربة هي (1) كان محمد يدرك ان كلمات معينة موجودة في قلبه او في عقله الباطن، (2) وهذه الكلمات لم تأت نتيجة عملية تفكير مسبق، (3) هو يؤمن بأن تلك الكلمات قد وضعت في عقله بوسيلة خارجية التي يصفها بالملك، (4) هو يؤمن بأن الرسالة هي من عند الله ([3]).

هذه المظاهر الاربعة كانت موجودة في جميع اشكال الوحي الذي وصفه القرآن بشرطين : اولاً: بالنسبة الى ما جاء في (1) ربما كانت الكلمات في حالات معينة تأتي اليه لأنه كان قد سمعها، وثانيا: بالنسبة لما جاء في (3) اعلاه فان الشيء الخارجي ليس بالضرورة يمكن وصفه بالوحي، ولذا يمكن انقاص المظاهر المذكورة لتكون ثلاثة : كلام في عقله الباطن، وغياب تفكيره، وثالثاً الاعتقاد بأن الكلمات كانت كلام الله ([4]).

لقد وجدت بعض هذه المظاهر والتفاصيل في السُنّة النبوية، سنشير إلى هذه الأمور باختصار لأنها لن تضيف شيئاً الى اساسيات القرآن، كما أن بعض العلماء المعاصرين ينظرون اليها بريبة، وبالتالي فان هنالك سُنّة وردت بأشكال مختلفة حول مناداة محمد بالنبي. ان الجزء الأول من هذه القصة هو ان مَلكاً ظهر إلى محمد وقال له : انا جبريل وانت رسول الله وهنا واصل بالقول : " أقرا " فقال محمد : " ما أقرا؟ " فأجاب الملك: ((أقرا باسم ربك الذي خلق...)) هذه هي بداية الآيات القرآنية في

1- الآية (64) سورة مريم.

2- الآية (97) سورة البقرة.

3- Watt,Islamic revelation,p15 .

4- Ibid,p15-16.

سورة العلق والتي هي أول سورة اوحي بها الى محمد. هذه القصة قد تكون واحدة من التصورات (مع اضافات تفسيرية مثل ذكر الملك جبريل) لتجربة محمد المرتبطة بالرؤيا الأولى الموصوفة في سورة النجم ([5]).

احدى مفردات السنة التي تمثل محمد، عند اجابته على سؤال، حيث يصف الاشكال المختلفة لتجربة الوحي " احيانا يأتيني مثل صدى الجرس" هكذا يقول محمد. "وهو الجزء الأصعب عليّ ثم يبدأ القراءة وانأ أقوم بحفظ ما يقوله الله واحياناً يأتي الملك على شكل انسان ويكلمني و احفظ ما يقوله لي". ذكرت زوجته عائشة كيف يتدفق العرق من رأسه عندما يأتيه الوحي حتى في ايام البرد الشديد. إن هذه القصص لها المظاهر نفسها في تجربة الوحي. ان الحركات الجسمانية والحالات النفسية التي تصاحب مجيء الوحي فيها نوع من الاثارة والتشويق وهي امور حقيقية ان كانت القصص حقيقية، وهي لا تقدم برهاناً على ان محمد كان يستلم رسائل من الله وكذلك لا يمكن القول، إن تلك القصص لم تكن حقيقية، بأن محمد لم يكن يتسلم تلك الرسائل ([6]).

ان اول وثاني المظاهر الثلاثة التي اشرنا لها سابقاً قد صيغت بشكل محايد اي بالحد الادنى من الاجتهاد، فقد وَجد محمد الكلام او اي محتوى شفوي في عقله وذلك الكلام هو الذي حفظه وتذكّره ثم تمت كتابته في نهاية الأمر، وشكّل نص القرآن كما نراه اليوم. ثانياً: كان محمد يدرك بعدم وجود تفكير واعي نجم عنه الكلام، كلام الله، بمعنى انه كان يعتقد بانه يستطيع تمييزه من التفكير الواعي له، ولحد الان فان وصف التجربة هي في الحالة النفسية. اما المظاهر المتبقية فان الاعتقاد بان الكلام الشفوي الذي سمعه محمد قد ارسله له الله هو امر اجتهادي وليس شيئاً تم الاحساس به، ومن المحتمل انه حتى لا يمكن تصوره، فهي في جزء منها استدلال على غياب وعي محمد وكذلك من طبيعة المحتوى اللفظي لكلام الله. ان الطريقة المعاصرة لتفسير ما جاء في المظهر الأول

5- Watt,Islamic revelation, p16.

6- Ibid, p16.

هو ان المحتوى الشفوي في وعي محمد قد جاء من اللاوعي. ان مثل هذه الصياغة للأمر هي نسبياً صياغة محايدة ولكن هذا سيعني عدم معرفة مصدر الكلام الشفوي، ولكن من ناحية أخرى اذا اردنا ان نفترض مسبقاً مما جاء في نظرية اللاوعي لفرويد، فسيكون هناك جانباً تفسيرياً للأمر.

سنؤجل دراسة الاجتهادات الايمانية والسيكولوجية لتجربة محمد. وسنكتفي بمواصلت البحث على اساس قبول المظهرين الأولين لتجربة محمد أي اننا سنستند على أن الكلام الشفهي الذي حفظه محمد هو الذي شكل نص القرآن، والذي جاء الى عقل محمد وهو ليس بأي حال من الأحوال من تفكيره الشخصي، بمعنى انه سيكون غير صحيح القول بأن محمداً قال هذه الآية القرآنية او تلك. من ناحية اخرى ربما سيكون منصفاً القول من قبل العلماء المسلمين بانه بمجرد ما ظهرت الآيات القرآنية بتلك الطريقة الغامضة في عقل محمد فانه قد قبلها كحقيقة واقعة وبهذا يعطينا القرآن ما بذهن محمد، وزيادة على ذلك وكما ذكرنا في هذه الدراسة مرات عديدة فلأن القرآن موجه الى محمد او الى المسلمين او للوثنيين في ذلك الزمان فانه يمكن ان يعطيك نظرة افتراضية عن عقلية كل مجموعة وكذلك يعطينا فكرة عن طريقة تفكير كل منهم ([1]).

2 - امكانية المراجعة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

استناداً الى الموقف من تجربة محمد في الوحي كما وصفناها آنفاً فانه لا يمكن التساؤل طبعا عما اذا كان محمد قد قام بمراجعة القرآن بوعي، لقد أثار بعض العلماء الاوروبيين تساؤلات من هذا النوع على اساس ان محمداً قد فعل ذلك وان مثل هذه المزاعم يؤسف لها. انه لأمر غير علمي قول ذلك لان مثل هذه الادعاءات لا تأخذ بنظر الاعتبار الظواهر الاساسية لتجربة محمد. ان حالة التداخل الديني الحالية تفرض على غير المسلمين ان يتجنبوا الحديث بهذه الطريقة. وبعد كل ما ذكرناه فيما سبق مازالت هنالك بعض الأمور

1- Watt,Islamic revelation, p17.

المفتوحة للنقاش، مثل هل ان القرآن قد تمت مراجعته. ان اسهل طريقة لذلك هي نزول آيات لاحقة قد اضيفت لآيات نزلت قبلها. فمن المعروف ان هنالك آيات قد تضمنت انتقادات لليهود والمسيحيين لما نزلت في بداية الدعوة تحدثت فقط عن اليهود، حيث كانت في المدينة معارضة شديدة من قبل اليهود على عكس المسيحيين، ولكن في فترة لاحقة عندما برز اعتراض المسيحيين، فان تلك الآيات الجديدة أوحي بها مع اضافة كلمة "والمسيحيين"، وربما ان محمداً او الذين جمعوا القرآن من بعده قد ضمّوا الكلمة الاخيرة " والمسيحيين" بشكلها الكامل. في الواقع لا توجد وسيلة لأثبات ذلك، علينا ان نعترف انها مجرد فرضية، ولكنها جزء من النظرة العلمية المعاصرة وعلى اية حال فان الافتراض بحد ذاته لا يتعارض مع المعتقدات الاسلامية الاساسية ([1]).

رغم ان شكلاً معيناً للمراجعة، والذي اشرنا له هو افتراضي فان القرآن نفسه يتحدث عن شيء من هذا القبيل والذي قد يرقى إلى مرتبة المراجعة... ان الآية الثانية التي ذكرناها انفاً توضح قصة " الآيات الشيطانية" تقول القصة، عندما كان محمد يفكر في كيفية جعل الدين سهلاً كي يكون مقبولاً من قبل المكيين جاءه الوحي بالكلام الاتي: ((أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى)) ([2]) وهنا يدلي الشيطان بقوله وأخذ الوثنيون المكيون على ان ذلك اذن لهم بعبادة اصنامهم لدرجة الصلاة لها طلباً للشفاعة من الله، وعند ذاك انضموا الى محمد في عبادته. على اية حال اصبح واضحاً في مرحلة لاحقة ان مثل هذه الشفاعة لا تتوافق مع اساس فكرة التوحيد الاسلامية وعندها جاءت هاتين الآيتين تأكيداً لهذه الحقيقة التي تضمنها القرآن والمستندة الى آية قرآنية. ان الآيات الشيطانية ليست جزءاً من القرآن وعدم وجودها ليس مستغرباً لانها نسخت في (الآية 52 من سورة الحج) ([3])....

1- Watt,Islamic revelation,p18 .

2- الآيات (19-18) سورة النجم.

3- قوله تعالى ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ))

إن القرآن قد وضع في حسبانه ان هنالك امكانية ان ينسى محمداً بعض الآيات التي أوحي بها إليه وهذا لا يعني ضعفاً او فشلاً من جانب محمد وانما كما جاء في الآية :((مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ((([1])، وهذا ما يشير الى ان النسخ هو من عند الله، وهنالك ذكر في آيتين الى نسيان محمد والتي قد تفهم بنفس المعنى انف الذكر:

الآية (6) من سورة الاعلى)) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)) .

الآية (24) من سورة الكهف ((إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)).

في كل ما ذكرناه فانه قد جاء في القرآن ما يشير الى وجود مراجعة للأحكام. وهذا ما حصل في نسخ بعض الآيات، التي قد تكون قد نسيت فابدلها بآيات اخرى. ان ما تم وصفه في الفقرة الاولى من هذا القسم بفرضية ان احدى التعديلات تنقح الاخرى قد توصف بعبارات قرآنيه مثل إلغاء أو نسيان ما جاء به الوحي الذي نزل اصلاً في البداية واستعاض عنها بما جاء به الوحي لاحقاً ([2]).

من المحتمل ان يكون السبب في موضوع نسخ الآيات الموحى بها الى محمد هو لموائمتها مع الحاجات المتغيرة للمجتمع. ان الاستجابة الأولية للآيات التي اوحي بها الى محمد والمسلمين الأوائل في بداية الدعوة قد ادت الى ايجاد المجتمع الاسلامي، وكلما نوسع هذا المجتمع وواجه معارضة تطلب الأمر إرشادات إضافية، فكانت هذه الإرشادات الجديدة تأتي الى محمد من وقت الى أخر، ومهما كان توصيف هذه العملية إلا أنها بالتأكيد هدفت الى تكييف وموائمة الرسالة الموحى بها لحياة المجتمع الاسلامي المتنامي ([3]).

1- الآية (106) سورة البقرة.

2- Watt,Islamic revelation,p20.

3- ibid,p20 .

3. جمع القرآن (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

التبرير المعروف والمتداول لعملية جمع القرآن الأول يرتبط بعمر بن الخطاب، وهو الذي اصبح الخليفة الثاني للفترة من (634 – 644م) ([1])، فبعد ان قُتلَ العديد من حفظة القرآن في معركة اليمامة (حوالي عام 633م) اصبح قلقاً من ان القرآن سيُفقد نهائياً، حينها ابلغ الخليفة ابو بكر واقترح عليه بأن يتم البدء بعملية جمع القرآن، فأوعز ابا بكر الى زيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة. فبدأ زيد بجمع أجزاء من القرآن الموجودة على ورق البردي والأحجار المسطحة وأوراق سعف النخيل وعظام اكتاف واضلع الحيوانات ومن قطع الجلد وقطع خشبية ومن أشخاص يحفظون القرآن، وبعد ان كتب كل شيء على اوراق من حجم واحد سلمها الى ابي بكر ثم الى عمر بعد وفاته الذي سلمها الى حفصة ([2]).

ان نص القرآن الذي تم جمعه، كما يبدو لم يجرى نشره على المسلمين حتى عام (650م) في عهد الخليفة عثمان وبعد نزاعات من قبل إفراد في الجيش حول ضرورة الحصول على النص كي يستخدم في عبادتهم، عندها اوكل عثمان المهمة ثانية الى زيد والى ثلاثة مكيين للعمل لإعداد نسخ اخرى بالاستناد إلى النسخة الموجودة لدى حفصة، وقد تم انجاز كتابة القرآن ، وتم تصديق النسخ المعدة وأرسلت إلى المراكز الإسلامية في الإمبراطورية الإسلامية كما تم الايعاز بإتلاف النسخ الاخرى التي كانت موجودة في تلك المراكز، ولكن بقيت اثار بعض تلك النسخ (غير المصدقة) والتي يطلق عليها مصاحف ما قبل المصحف العثماني. ان افضل النسخ المهمة والمعروفة هو مصحف ابن مسعود... تم تأليف كتاب حول المصاحف هو (كتاب المصاحف) الذي كتبه ابو بكر عبد الله ابن ابي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني (928م/ 316هـ) والذي قام آرثر جفري بمراجعته و دراسته في كتابه" مواد للتاريخ في نص القرآن" (ليدن 1937) ([3]).

1- امتدت خلافته (23-13هـ) ينظر : الطبري، محمد بن جرير (ت)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1960، جـ4، ص 191-190.

2- Watt,Islamic revelation,p20 .

3- ibid,p21 .

كان واضحا بأن النتيجة النهائية لعملية جمع القرآن والتي وصفت (بالجمع) أنها وردت في آية مهمة من سورة القيامة ضمن سياق الآيات (16 - 19) ((لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)).

هناك امور كثيرة غامضة في هذه الآيات، وقد واجه المفسرون المسلمون صعوبة في معرفة تفسير لها ينطبق مع وجهة النظر المفترضة بانه قبل القرآن الذي جمعه زيد لم تكن هناك أية محاولة لجمع القرآن. ان التفسير الطبيعي للآيات تلك تعني ان محمد كان يعيد قراءة القرآن الموحى به من الله وتابعه كذلك عند جمعه، أي جمع الآيات المكتوبة بشكل منفصل سوية. لو لم يكن محمد قد انشغل بجمع القرآن فانه من الصعب لاحقاً على زيد او أي مسلم اخر يقوم بهذه المهمة التي اكد القرآن ان الله تكفل بها، ومن ناحية اخرى، لو ان محمد قد انجز الجزء الاكبر من جمع القرآن فسيكون من المفترض انه اكمل هذا العمل طبقاً للمبدأ الذي كان يتبعه في انجاز الرسالة ([1]).

يبدو من المرجح إذن أن العديد من سور القرآن قد اكتسبت شكلها الحالي من محمد نفسه... وأكثر من ذلك فان محمداً قام بجمع ما جاءه من الوحي سوية، إن مثل هذه الفكرة والتي اكدها القرآن بنفسه لا يمكن أن تلغي عمل زيد في جمعهِ للقرآن، وحتى إذا كان محمد ولنقول انه جمع أربعة أخماس القرآن فان زيد قد جمع العديد من السور الصغيرة ذات الآيتين أو الثلاث والتي كانت مكتوبة في عدة أنواع من صحائف الكتابة. ولن يكون سهلاً معرفة أين هو موضع تلك الآيات. يبدو مرجحاً أيضاً ان زيد وجد بعض الآيات لدى حفظة القرآن لها نفس البداية ولكن بنهايات مختلفة. إن وجود هذه النهايات البديلة لبعض السور هي ظاهرة علم بها القارئ المعاصر ويفترض ان هنالك كلام جاء به الوحي يبدأ بنفس الطريقة ولكن نهاياته مختلفة. ان مشكلة جامع القرآن ستكون فيما اذا كان عليه ان يعيد كل ما جمعه لعمل واحد كل مرة او ان يهتم بما هو مختلف، يبدو ان الأسلوبين قد اتبعا حسب ظرف كل حالة. إن من واجبات جامع القرآن الأخرى

1- Watt,Islamic revelation, p22.

هو ان يضع كل سورة بالترتيب الصحيح، وتظهر تقارير عن مخطوطة ابن مسعود أن هنالك اختلاف في الترتيب ([1]).

ليس ضرورياً ان نناقش بالتفصيل مصداقية القصص حول القرآنين الذين جمعا، فلدى العلماء الأوربيون شكوك حول النسخة الأولى التي جمعت في زمن أبو بكر لاسيما وان الأوراق التي أعطيت إلى حفصة للاحتفاظ بها يبدو أنها لم تكن رسمية ([2]) بأي حال من الأحوال، قد يكون الأمر كذلك، لكن في تلك الفترة قام زيد بجلب ما استطاع من ألمخطوطات التي وجدها ولكن بشكل " غير رسمي" هذه الشكوك تركت عملاً كثيراً قبل ان تصبح النسخة العثمانية جاهزة... فلم يكن للرجال الذين يسيطرون على الحكم وقت للاهتمام والتدقيق بهذا الموضوع، لكنهم أصروا على ان يكون هنالك نص واحد نهائي للقرآن لأنهم كانوا يدركون ان المسلمين يستندون الى التجاوب المتواصل للإرادة الإلهية، التي تمثلت بالقرآن الذي أوحى به الله ([3]).

ان التنقيح العثماني للقرآن رغم انه لم يلغِ في حينها المخطوطات القديمة، لكنه في النهاية أصبح هو المقبول عالمياً من قبل المسلمين، وبمرور الزمن أصبح هنالك اختلاف في القراءات للنص العثماني، والسبب يعود إلى طبيعة الخط العربي في تلك الحقبة من الزمن، لقد كانت الحروف مكتوبة بلا تنقيط وكان ذلك يؤدي الى قراءة الحرف بطرق مختلفة وكلها تعطي معنى مختلف، الامر الأخر هو ان نهاية الكلمة لم تكن محركة، وبالتدريج تم إجراء تحسينات في طريقة كتابة القرآن بعد ان تم قبول قراءة الحروف المنقطة... يعود الفضل في حل هذه الإشكالات لابن مجاهد (المتوفى عام 935م)... ([4]).

1- Watt,Islamic revelation,p22 .

2- تزداد هذه الشكوك الاستشراقية مع طرح بعض التساؤلات الخطيرة ومنها : ما الهدف من جمع النسخة الاولى من القرآن الكريم في خلافة ابي بكر : هل ذلك لاجل ان تكون نسخة رسمية لعموم المسلمين ؟ اذا كان الجواب نعم فلماذا اذن يتم الاحتفاظ بها بدار الخلفة ولا يتم نشرها بين عموم المسلمين !

3- ibid,p23 .

4- ibid,p23 .

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الاول

1 - مفهوم الوحي

ان محاولة وات ابعاد التفسير الاسلامي للنصوص القرآنية التي جاءت على ذكر تجربة النبي محمد (ﷺ) مع الوحي بصيغة واضحة ومباشرة او اخرى غير مباشرة بحجة ان هذا التفسير قد احتوى على العديد من الاجتهادات، ومن ثم اعادة النظر في النصوص القرآنية والسَّيرية لاستخراج التجربة الواقعية التي مَّر بها النبي محمد (ﷺ) مع الوحي. ان المستشرق وات اغفل هنا التطرق لمفهوم الوحي وبيان معناه ومدلوله بشكل واضح وتفصيلي، بل انه عمل على تقديم فرضية جديدة لما شهدته تجربة النبي محمد (ﷺ)، لتكون اكثر ملائمة للمفاهيم المعاصرة حسب رأيه. ولكننا نفهم ان هذه الفرضية الجديدة ستكون اكثر ملائمة لطبيعة الفهم والتوجه الاستشراقي وموقفه من الوحي الالهي للنبي محمد (ﷺ). لان وات بدأ في مشروع فرضيته هذه على مراجعة النصوص القرآنية والسَّيرية ذات الصلة بموضوع الوحي والتركيز على حالات الغموض وعدم الوضوح في بعض تلك النصوص، لدعم مشروعه في اعادة صياغة هذه التجربة وتقديم فرضية جديدة تتلائم مع ما عبر عنه :" بانه شكل اخر من الاجتهاد اكثر ملائمة للنظرة المعاصرة".

ففي سياق الآيات القرآنية (18-2) من سورة النجم ([1]) التي اشار لها المستشرق

1- قوله تعالى ((مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى.وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى.عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى.ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى.فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى))

وات مؤكداً على ان مفهوم الوحي لم يكن واضحاً ومؤكداً هنا. ان هذه الآيات بيَّنت ماكان للنبي محمد (ﷺ) ليلة المعراج الى السماوات، وفي اثناء ذلك ورد التصريح الالهي بتلقي النبي محمد (ﷺ) الوحي ((فأوحى الى عبده ما أوحى)). اما ان وقوع الاختلاف بين المفسرين حول شكل الوحي، وهل كان بتكليم الله تعالى لرسوله المصطفى محمد (ﷺ) تلك الليلة مباشرةً من دون واسطة، ام بواسطة، لا يعني ابداً نفي حقيقة وقوع الوحي او القول بعدم ثبوتيته ([1]). فالاختلاف قد وقع بين المفسرين حول سقوط الوسائط بين الله تعالى ونبيه المصطفى محمد (ﷺ)، لان هنالك من يقول بان الله تعالى كلم نبيه بالوحي من دون واسطة مستندين الى ان المذكور في الآية الكريمة من دنو وتدل ووحي كان بينه تعالى وبين النبي محمد (ﷺ) بلا واسطة، في حين ان اخرين ذهبوا خلاف ذلك ورأوا ان ما ورد في الآية الكريمة من دنو وتدل ووحي تعود ضمائرها الى جبريل (ع) فهو الذي دنا وتدلى وأوحى الى النبي (ﷺ) ما أوحاه الله تعالى اليه ([2]).

وبغض النظر عن نوع الوحي المختلف عليه هنا، فان ذلك لا يلغي حقيقة وقوعه وثبوتيته. كما ان النصوص السّيرية قد تطرقت وفي مناسبات عدة الى ان الامين جبريل (ع) الذي كان اكثر الوسائط التي نقلت الوحي الالهي للنبي محمد (ﷺ) على امتداد سنوات الدعوة، كما ذُكر انه جاء لرسول الله (ﷺ) بعدة اساليب ومنها :

انه كان يأتي الى النبي (ﷺ) على صورته الحقيقية الملكية كما هو وهذا الامر لم يحدث الا مرتين فقط، او ان يأتي الى النبي (ﷺ) على صورة رجل فيكلمه كما هو الحال مع الصحابي دحية الكلبي (توفي بحدود 45هـ) حيث كان جبريل (ع) يتمثل في

1- الاعرجي، ستار جبر، الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الاسلامي،دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص151.

2- المصدر والصفحة نفسها.

صورته فكان الصحابة لا يعلمون بانه جبريل الا النبي (ﷺ) ([1]) او ان يأتي خفيةً دون ان يراه احد، فتظهر على النبي (ﷺ) اثار هذا الحضور عبر المتغيرات والانفعالات التي تصيبه جراء تلقيه الوحي ([2])

الامر الاخر الذي تطرق اليه وات من خلال الاشارة الى الآيتين ((وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)) ([3]) اذ لا يمكن وصف ما ذكره حولهما، الا انه يندرج تحت تأثير رواسب التصور الغربي القديم حول الاسلام، والا كيف نفهم تعليقه على ما ورد في هذا النص القرآني بقوله :" هذه الكلمات كانت أصلا قد نقلت إلى المتلقين في مكة فكرة ان رؤيا محمد انما كانت رؤية الله ذاته ومن هذا ايضا جاء الاعتقاد لمحمد والمسلمين. آن مثل هذا التفسير للرؤيا كان طبيعيا ومن المحتمل ايضا بمرور الزمن ومن خلال الاتصالات مع اليهود والمسيحيين وبوسائل اخرى ادرك المسلمون ان هناك اعتقاد عام بان الله لا يمكن ان يراه البشر " ولا اعلم كيف لهذا المستشرق وهو معروف بذكائه وفطنته ان يحتوي ذهنه على هذا التصور الخاطئ، ليدل على بطلانه بسهوله. فلا يمكن ان نفترض نشوء هكذا اعتقاد عند المسلمين ليصحح لاحقاً من خلال الاتصال باليهود والنصارى، فالقول بأن المسلمين اعتقدوا برؤية النبي (ﷺ) لذات الله تبارك وتعالى، يستلزم منهم طرح الاسئلة ومحاولة التعرف عن طريق النبي (ﷺ) نفسه على ما رآه، وهو من المسائل المهمة التي لابد ان يتوقف عندها عموم المسلمين بالسؤال والاستقصاء، لا سيما وهم في حضرة رسول الله (ﷺ) وفي عهده. وهنا نحن امام امران:

1- ينظر : كاظم، سلامة حسين، مفهوم النبوة في الديانات الثلاث اليهودية المسيحية الاسلام، اطروحة دكتوراه مقدمة لكلية العلوم الاسلامية بجامعة بغداد، 1991، ص65.

2- المصدر نفسه، ص66.

3- الآيتين (23 - 24) سورة التكوير.

الاول : اما ان النبي مارس دوره في تصحيح الاعتقادات الخاطئة التي يُعتقد انها تولدت عند المسلمين بنفي رؤياه لذات الله تبارك وتعالى وحينها سيكون لهذا النفي اثره الاكبر على المسلمين اكثر من الاستماع الى اليهود والنصارى.

الثاني : اننا امام صورة مفتعلة من خيال المستشرق وات لهذا الاعتقاد، فوجوده على ارض الواقع يقتضي ان تشير اليه نصوص التراث الاسلامي، اذ لا يوجد أي نص يشير الى ذلك لا في كتب التفسير القرآني، ولا حتى في كتب الحديث والسيرة، فضلاً عن ذلك فان ظاهر الآية الكريمة ((لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) ([1]) لا يحتاج الى جهد كبير لاثبات بطلان فرضية وات كون الله تبارك وتعالى لا يمكن لبشرٍ ان يراه، كما ان الاتصالات مع اليهود والنصارى والتي أُشير اليها لم تقع بمستوى المناظرة والمقارنة والجدل الديني الا في عصور لاحقة اعقبت عصر حياة النبي (ﷺ) ونزول القرآن الكريم، بمعنى ان القرآن نزل واكتمل وانتشر متداولاً بين المسلمين قبل حدوث هذه الاتصالات وهذا الجدل الديني، وعليه لا يمكن قبول هذه الفكرة التي طرحها وات حول تبدل اعتقاد المسلمين بتأثير اليهود والنصارى.

2ـ مواصفات الوحي حسب رؤية وات

الوحي كظاهرة ارتبطت بالنبوة، وعلى هذا الأساس، فمن مقومات تصديق نبوة أي نبي، هي إثبات حقيقة المصدر الإلهي للوحي، ولهذا فقد اهتم المستشرقون منذ وقت مبكر جداً بدراسة الوحي ليس من اجل فهم هذه الظاهرة بشكل واضح ودقيق، ولكن من اجل نقض حقيقتها بطرح تفسيرات متعددة جميعها تنكر مصدر الوحي الالهي، وتنسب ما كان يحصل مع النبي (ﷺ) الى مصادر اخرى. لقد صيغت معظم تلك التفسيرات لتتلاءم مع التوجهات

1- الآية (103) سورة الانعام.

الاستشراقية الهادفة الى انكار حقيقة نبوة محمد (ﷺ) ([1]).

وعلى الرغم من ان وات قد أعلن عن عزمه الآتيان بتفسير جديد لظاهرة الوحي الإسلامي من خلال قراءة موضوعية ودقيقة للنصوص القرآنية والسّيرية بما يتلاءم والمفاهيم المعاصرة الحديثة الا اننا قد وجدناه وكأن ما جاء به هي نسخة مكررة من تلك التفسيرات الاستشراقية المعلومة للوحي الاسلامي. فالتفسيرات الاولى التي تداولها الغرب حول مفهوم الوحي الاسلامي كانت متأثرة بتيار العداء الكبير للاسلام خلال حقبة العصور الوسطى، لذلك جاءت بصورة مشوهة ومبغضة للنبي محمد (ﷺ)، وفسرت ظاهرة الوحي على انها نوع من انواع التحايل الذي تمت ممارسته لخداع الناس. ثم تعددت التفسيرات عبر مختلف العصور، فتارة يعبرون عن الوحي الاسلامي بانه نوبات من الصرع كانت تصيب النبي محمد (ﷺ) ([2])، وتارة اخرى يعبرون عنه بانه هوس او وهم ([3])، وتارةً ثالثة يفسرونه بالحدس ([4])، وهكذا لم ينصفوا النبي محمد (ﷺ) في حقيقة ما أُوحي اليه.

المستشرق وات هنا لا يخرج عن دائرة اقرانه في عدم الاعتراف بحقيقة الوحي الالهي للنبي محمد (ﷺ)، ولكنه يتقدم عليهم في منهج التعامل مع هذا الموضوع، فيلجأ الى منهج تفكيك الظاهرة الى اجزاء، لا لمحاولة فهم ظاهرة الوحي، وانما لتأكيد فرضياتهم.

فهو يقول :" ان المظاهر الاساسية في هذه التجربة هي : (1) كان محمد يدرك ان كلمات معينة موجودة في قلبه او في عقله الباطن، (2) وهذه الكلمات لم تأت نتيجة عملية تفكير مسبق، (3) هو يؤمن بان تلك الكلمات قد وضعت في عقله بوسيلة خارجية

1- ينظر : الغزالي، مشتاق بشير، الوحي المحمدي في المنظور الاستشراقي، بحث منشور في مجلة الاستاذ،كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد،العدد (55)، 2005.

2- المصدر نفسه، ص 641.

3- المصدر نفسه، ص 642.

4- المصدر نفسه، ص643.

والتي يصفها بالملك، (4) هو يؤمن بان الرسالة من الله. هذه الظواهر الاربعة كانت موجودة في جميع اشكال الوحي الذي وصفه القرآن بشرطين : اولا : بالنسبة الى ما جاء في (1) ربما كانت الكلمات في حالات معينة تاتي اليه لانه كان قد سمعها، وثانيا : بالنسبة الى ما جاء في (3) اعلاه فان الشيء الخارجي ليس بالضرورة ممكن وصفه بالوحي، ولذا فربما يمكن انقاص المظاهر المذكورة لتكون ثلاثة : كلام في عقله الباطن، وغياب تفكيره وثالثاً الاعتقاد بان الكلمات كانت كلام الله " ([1]).

في الواقع ما اتبع هنا، انما هو منهج تفكيك الظاهرة الى عدة اجزاء، وهو احد اهم المناهج الاستشراقية في التعامل مع احداث السيرة النبوية بشكل خاص والتاريخ الاسلامي بشكل عام، وقد حاول وات هنا وفق هذا المنهج الحصول على نتائج تتوافق مع فرضياتهم المقررة سابقاً.

فالاستشراق سبق وان عبر عن الوحي الذي نزل على رسول الله (ﷺ)، بانه اعتقاد خاطئ قد وقع به النبي محمد (ﷺ) من دون قصد. المستشرق وات هنا رجع الى النصوص القرآنية واستخرج منها ما اعتقد انه يدعم فكرته، وصنف تلك الاستخراجات الى مظاهر اربع وبدلاً من ان يناقش ظاهرة الوحي كقيمة دلالية واحدة، وان النبي محمد (ﷺ) ما هو الا متلقي ومستجيب، وهو جزء من تكاملية هذه الظاهرة على اعتبار ان مفهوم الوحي يتكون من موحي وموحى اليه ومضمون الوحي، وهو جزء من الظاهرة وليس كل، نراه يتعامل من النبي (ص) على انه الممثل الكلي لها، فالمظاهر التي تحدث عنها من كلمات موجودة في قلبه وعقله الباطني، وغياب التفكير المسبق والاعتقاد بان الرسالة من الله، جميعاً ربطها به (ﷺ)، فوات لم يبحث في حقيقة القدرة الالهية، وفي حقيقة الوحي كواسطة بين الله تعالى وانبيائه، انما ركز بحثه فقط حول المتلقي (النبي محمد صل الله عليه وعلى اله)، وهذا بطبيعة الحال خلاف المنهج العلمي في البحث ولا يؤدي بصاحبه للحصول على نتائج علمية دقيقة.

1- Watt,Islamic revelation,p15 .

3ـ اهمية مادة السيرة في تعريف مفهوم الوحي

لقد عُول وات كثيراً على ما تضمنته اخبار السيرة ومروياتها من اوصافٍ لحالات النبي محمد (ﷺ) في وقت تلقيه الوحي، ليدعم بذلك فكرته المنطوية على توصيف الوحي بالاعتقاد الخاطئ وان التجربة الواقعية للنبي محمد (ﷺ) تختلف عما نقلته النصوص القرآنية والسّيرية.

نعم نحن نتفق مع المستشرق وات في ان النصوص السيرية لم تضيف شيئاً لما قدمته النصوص القرآنية، لاسيما في موضوع الوحي، ونتفق معه كذلك في ان بعض علماء المسلمين المعاصرين ينظرون الى بعض النصوص السيرية بريبة. بل نقول اكثر مما قاله وات بان بعض هذه النصوص قد ساهمت في الاساءة للسيرة العطرة لرسول الله (ﷺ)، من خلال الاغلاط وسوء النقل والتحريف المتعمد في بعضها مما اعطى الفرصة للمستشرقين ولغيرهم ان يعتمدوها لنفي حقيقة الوحي.

من المهم ان نلاحظ كيف تعامل وات مع المادة السّيرية التي وصفناها بانها غير مؤهلة تماماً لنقل حقيقة الوحي. فهو يقول واصفاً ما نقل عن احوال النبي وهو يتلقى الوحي :" احدى مفردات السُنة التي تمثل محمد... " احياناً ياتيني مثل صدى الجرس يقول محمد. ((وهو الجزء الاصعب عليّ ثم يبدأ بالقراءة وانا اقوم بحفظ ما يقوله واحياناً يأتي الملك على شكل انسان ويكلمني واحفظ ما يقوله لي)) ([1]).

فيعلق وات على هذه المرويات قائلا :" ان الحركات الجسمانية والحالات النفسية التي تصاحب مجيء الوحي فيها نوع من الاثارة والتشويق وهي امور حقيقية ان كانت القصص حقيقية، وهي لا تقدم برهاناً على ان محمد كان يستلم رسائل من الله وكذلك لا يمكن القول ان لم تكن تلك قصص حقيقية بان محمد لم يكن يتسلم تلك الرسائل" ([2]).

1- Watt,Islamic revelation,p16

2- Ibid,p16-17.

هنا لانريد الخوض في حجم التلاعب المقصود وغير المقصود الذي طال المادة السيرية، واثر بشكل واضح على طبيعة ما نقل الينا وساهم في اشكالية عدم اكتمال حالات الفهم لمفاصل مهمة من السيرة، فمجال البحث في ذلك سيأتي لاحقاً. ولكننا نشير هنا الى منهج وات في الاستفادة القصوى من حالة الارتباك الواضحة التي كانت عليها مادة السيرة وتوظيفها لشد القارئ وتوجيهه نحو بداية الشك في حقيقة النبوة. فهو لا ينفي وقوع الوحي، ولا يعترف به، ويضع القارئ امام خيارين احلاهما مر، من خلال قوله ان كانت هذه القصة حقيقية (وهو يعلم انها غير دقيقة في اكتمال الوصف، وغير مكتملة الوثوق من ناحية السند) لا تثبت النبوة وحقيقة الوحي الالهي، وان كانت غير حقيقية لا تعني ان محمدا (ﷺ) كان كاذباً ومتحايلاً ومدعياً بالنبوة والوحي الالهي لانه لا يريد ان يفقد مساحة التاثير في القارئ المسلم من خلال النفي الصريح والمباشر لنبوة محمد (ﷺ) وما تلقاه من وحي الهي.

بعدها يعود وات الى تفكيك ظاهرة الوحي مرة اخرى من خلال النصوص السّيرية فيقول :" ان اول وثاني المظاهر الثلاثة التي اشرنا لها سابقاً قد صيغت بشكل محايد اي بالحد الادنى من الاجتهاد. فقد وجد محمد الكلام او اي محتوى شفهي في عقله وذلك الكلام هو الذي حفظه وتذكره ثم تمت كتابته في نهاية الامر وشكل نص القرآن كما نراه الان. ثانيا، كان محمد يدرك بعدم وجود تفكير واعي نجم عنه الكلام، كلام الله، اي بمعنى انه كان يعتقد بانه يستطيع تمييزه من التفكير الواعي له... اما المظاهر المتبقية فان الاعتقاد بان الكلام الشفهي الذي سمعه محمد قد ارسله له الله هو امر اجتهادي وليس شيء تم الاحساس به ومن المحتمل انه لا يمكن تصوره... ان الطريقة المعاصرة لتفسير ما جاء في المظهر الاول هو ان المحتوى الشفهي في وعي محمد قد جاء من اللاوعي.. هذا سيعني عدم معرفة مصدر الكلام الشفهي..." ([1]) ولا ادري ما حجم خزين اللاوعي هذا حتى يستوعب شريعة متكاملة وقرآن عجزت البشرية على ان تأتي بآيةٍ من مثله!

1- Watt,Islamic revelation,p17.

ثم ما هذه الفكرة التي التزم بوصفها على الدوام حول النبي (ﷺ) وانه كان يعتقد بان الوحي من عند الله وهو اعتقاد غير مؤكد بمعنى انه اعتقاد خاطئ، كيف له ان يمضي مع افكاره تلك وهو يعلم ان النبي محمد (ﷺ) لم يتلقى الوحي بطريقةٍ واحدة وانما تلقى الوحي بجميع الطرق التي تحدث عنها القرآن الكريم الطرق الحسية والطرق المادية ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)) ([1])، وكان في ذلك شأنه شأن من سبقه من الانبياء ((إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ)) ([2]) وعليه فان تلقي النبي محمد (ص) الوحي المباشر سواء كان بتكليم الله تعالى لعبده وهذا الامر قد وقع في معراج النبي (ﷺ)، او بواسطة الرسول الامين جبريل (ع) الذي بقي مرافقاً للنبي (ﷺ) طيل سنوات الدعوة الثلاث والعشرين، هي طرق مادية ومباشرة لتلقي الوحي ولا تدع مجالاً للشك والاجتهاد .

4 ـ امكانية المراجعة

ان طبيعة نزول الآيات القرآنية، وجعلها موضع التداول والفهم بين الناس الذي استمر لسنوات الدعوة الثلاث والعشرين، قد اقتضى ان تكون هنالك مراجعة دورية لما نزل، فالامر لايحتاج الى عناء كبير لمحاولة فهم كيفية المراجعة، او ضرورتها، فهنالك من الاحاديث النبوية المباركة التي اشتمل محتواها على ان الآيات القرآنية كانت تنزل تباعاً على رسول الله (ﷺ) حسب الظروف والحاجات والمناسبات وكل ذلك يتم بامر الله تعالى وحده، ونزول الآيتين او الثلاث او الاربع او اكثر انما يستلزم قيام النبي (ﷺ) بوضع تلك الآيات الجديدة في موضعها المناسب من السورة، وهكذا عبرت هذه

1- الآية (51) سورة الشورى.

2- الآية (163) سورة النساء.

الممارسة المتكررة على امتداد سنوات الدعوة عن مراجعة حقيقية ودورية لما نزل من القرآن الكريم. فضلاً عن ذلك فقد ذكرت كتب الحديث عن النبي محمد (ﷺ) انه كان يراجع ما نزل من القرآن الكريم مع امين الوحي جبريل (ع) في كل عام مرة، وفي عام وفاته مرتان ([1]).

ان عناية النبي محمد (ﷺ) بالآيات القرآنية التي عبر عنها حرصه الشديد بالحفظ الصدري لكل ما نزل منها، والحرص اللاحق على تدوينها وترتيب مواقعها داخل السور، انما هو منهج متكامل اختطه رسول الله (ﷺ) للتعامل مع الآيات القرآنية حتى وصولها الى صدور الناس وعقولهم بالحفظ والفهم. وهذا بطبيعة الحال يؤكد يقيناً بحصول المراجعة المستمرة على اعتبار انها جزء من تكاملية منهج النبي (ﷺ) في التعامل مع الآيات القرآنية.

بعد هذه المقدمة اعتقد ان سؤال وات :" هل ان القرآن قد تمت مراجعته " لم تعد له اي قيمة مادية، كما ليس له اي تأثير على واقع النتائج المستخلصة.

ما يهمنا هنا الاشارة الصريحة التي جاءت على لسان وات من ان النظرة العلمية المعاصرة للغرب قائمة على ان بعض النصوص القرآنية قد اضيف اليها كلمات لتعبر عن شمول المسيحيين الى جوار اليهود كمعارضين للدعوة الاسلامية. لاحظ كيف يحول القرآن الكريم الى مادة انفعالية، وان ما قدمه مجرد ردور افعال على موقف اصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية كما في قوله :" ولكن في فترة لاحقة عندما برز اعتراض المسيحيين فان تلك الايات الجديدة اوحى بها ولكن مع اضافة كلمة " والمسيحيين " وربما محمد او الذين جمعوا القرآن من بعده قد ضمنوا الكلمة الاخيرة " والمسيحيين " بشكلها الكامل ".

1- ابو شامه المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت665هـ)، كتاب المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق ألتي قولاج، مصر، 1975، ص33.

القرآن الكريم كان واضحاً في مواقفهِ من المسيحيين الذين حرفوا العقيدة وخرجوا عن درب الهداية، فالآيات القرآنية التي وجهت اليهم الانتقادات لم تصدر نتيجة لاعتراض المسيحيين على الدعوة الاسلامية كما يصورها وات، كما ان القرآن اكتمل نزوله وتدوينه وجمعه قبل ان تظهر اي بوادر للاعتراض المسيحي على الدعوة، والآيات (17، 72، 73) من سورة المائدة توضح ذلك كما في قوله تعالى : ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) ([1])، وقوله تعالى ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)) ([2])، وقوله تعالى ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) ([3]) اظن ان الامر واضح تماماً لماذا اشتملت انتقادات القرآن الكريم على المسيحيين، فالحكم عليهم بالكفر لانهم ادعوا ان المسيح هو الله، وبذلك جحدوا وانكروا نعمة الله تعالى عليهم باتخاذهم المخلوق والعبد الهاً لهم، وادعائهم بان المسيح هو الخالق.

ان التبرير الاستشراقي للمسيحيين وما تعرضوا له من انتقادات صارمة في اكثر من موضع في القرآن الكريم، لا يستند على اية قواعد متينة، فالجانب التاريخي يعلن حالة الخذلان التام لمن يعولون عليه لان الصراع الديني في بداية الدعوة الاسلامية لم يظهر بوجه المسلمين الا من خلال ممثلي الديانة الوثنية في مكة وحلفاءها، وممثلي الديانة اليهودية في المدينة واطرافها الشمالية، ولم يكن هنالك صراع ديني اسلامي مسيحي

1- الآية (17) سورة المائدة.

2- الآية (72) سورة المائدة.

3- الآية (73) سورة المائدة.

على الاقل خلال سنوات الدعوة في عهد النبي محمد (ﷺ) واكتمال نزول القرآن. ولكنه حرج كبير ان لا تأتي بتبرير وانت متهم بالكفر والانحراف في اصل العقيدة التي تنتمي اليها وتدافع عنها منذ قرون طويلة.

المراجعة عند وات لها مفهوم مغاير عن الواقع الحقيقي، فهو يفهمها على انها اضافات وتغييرات جرت على حال النص القرآني في عهد النبي محمد (ﷺ) وبعد وفاته، وهذه الاضافات والحذوفات جاءت ليتوافق حال هذا النص مع الاسس التي يقوم عليها الدين الاسلامي ولاسيما فكرة التوحيد.

فقصة الآيات الشيطانية التي اعتمد عليها وات هنا كنموذج لدور المراجعة وماتقوم به من عملية اعادة النظر بمختلف الموضوعات لابقاء حالة التكامل في صورة الاسلام. هو يشير الى ان هذه الآيات رفعت وحذفت بعد ان اصبح واضحاً ان وجودها الذي عبر عنه سابقاً بانه طلباً للشفاعة من الله من خلال تلك الاصنام لايتوافق مع اساس فكرة التوحيد الاسلامية.

لقد سبق ان اشرنا الى حجم التلاعب المقصود وغير المقصود باخبار السيرة، وقصة الغرانيق او ما تعرف بالآيات الشيطانية، ينطبق عليها هذا الوصف، فالقول بان النبي محمد (ﷺ) وتأثراً من شدة رفض دعوته من قبل اهل مكة، لم يشأ ان تزداد الفجوة بينه وبينهم اكثر من ذلك، فسعى لجذبهم واغرائهم بذكره اللات والعزى وبشرعية عبادتهما من خلال ما نسب اليه من ذكر مكذوب (أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الاخرى، تلك الغرانيق العلى، وان شفاعتهن لترتجى). هو كلام لايصمد امام العقل والمنطق، فكيف لنبي يقضي سنوات طويلة يتعبد الله تعالى في مقام معزول، ويتهئ لامر النبوة، وتبليغ الناس ان يظهر بهذا المظهر الضعيف المتردد الذي يتودد فيه للاقوياء في مكة ويسعى لكسب تأييدهم ولو على حساب الاخلال بوحدانية الله تعالى ! كيف يكون ذلك، هل يعقل ان النبي محمد (ﷺ) لم يدرك بعد فكرة الوحدانية، او انه لم يتيقن بعد من تعاسة تلك الالهة، فعبر عنها بان شفاعتها الى الله لترتجى ! اين العقل واين المنطق

المنصف من هذه التصورات الساذجة، فبدلاً من ان نحافظ على رصانة الصورة السليمة والواقعية للنبي محمد (ﷺ) وموقفه من اصنام اهل مكة، واقرارنا التام بمنهجه المتكامل الذي سار عليه بثبات وبخط مستقيم منذ بداية الدعوة وحتى وفاته، نأتي بهذه الصورة الهزيلة ! .

5 - جمع القرآن الكريم

هو من اكثر الموضوعات عرضةً للتلاعب والتزوير، فمرويات واخبار حفظ القرآن الكريم وتدوينه وجمعه احتوت على العديد من التناقضات خلال سعي بعض الاطراف من المجتمع الاسلامي الاول او المناصيرين لهم، الى تقديم صورة تلائم مصالحهم وتعزز من مواقعهم السياسية او الدينية اوالاجتماعية.

فالنص القرآني اصبح المادة الاولى التي ينبثق منها اساس كل مفصل من مفاصل الحياة، هو دستور الامة وقانونها الذي يفصل في شؤون الناس الدينية والدنيوية، وهو المادة الاساس لتحصيل العلم والتعلم، فلايمكن لاي مسلم ان يبدأ بتحصيل العلم الا من خلال القرآن الكريم حفظاً ودراسةً واستيعاب. بل ان تفرع العلوم وتطورها كان من خلاله وانطلاقاً منه.

وبناءً على ماسبق ادرك المسلمون القيمة العظيمة للقرآن الكريم، وازداد حجم ادراكهم هذا خلال الاجيال اللاحقة التي اعقبت العصر الاسلامي الاول. فكان المجتمع يتعامل بدرجات عالية من الاحترام والتقديس لكل الاشخاص الذين اعتقد انهم ساهموا في حفظ هذا النص وتدوينه وجمعه، وهكذا وجدنا ان مرويات واخبار جمع القرآن قد احتوت على مايمكن تصديقه وما لا يمكن ذلك، فازداد الكذب وعظمة روح المبالغة في ادوار الصحابة، وراحت بعض الفئات تختلف مع غيرها في ان هذا العمل يحسب لفلان دون فلان، وهكذا لم يتركوا لرسول الله (ﷺ) الا صورة التقصير والاهمال كما عبرت

عن ذلك بعض المرويات : بقولهم انه مات تاركاً القرآن مفرقاً بين الرقاع، وانه لولا تنبه وفطنت فلان من الصحابة وقيامه بجمع القرآن لضاع !!! ([1]).

في واقع الامر، الحقيقة تختلف تماماً عما نقلته لنا المرويات والاخبار، والصورة التي احتوتها المصادر الاسلامية لعملية جمع القرآن لاتصمد امام تساؤلات منطقية طرحها المستشرقون، والقول بان الصحابة تنبهوا لضرورة حفظ القرآن وجمعه بعد ان توفي رسول الله (ﷺ) تاركاً الآيات مفرقات بين الصحف والرقاع صورة مفتعلة وغير حقيقية، قلنا انها تدخل في باب تعظيم ادوار بعض الصحابة.

اذن نحن بامس الحاجة اليوم الى ان نقدم تصور جديد للكيفية التي جُمع القرآن الكريم خلالها، انطلاقاً من فهم حقيقي ومنطقي لمنهج النبي محمد (ﷺ) في اداء ادواره التي قام بها خلال مسار الدعوة الاسلامية بالكامل، فلم ينقل عنه (ﷺ) انه ترك عملاً، او لم ينجز مهمة خلال سنوات الدعوة والتكليف الالهي بالرسالة، فهو الحريص شديد الحرص على اداء ادواره الرسالية، ولذلك فاننا من هنا نصل الى اليقين التام بان مهمة جمع القرآن وحفظه قد اتمها النبي (ﷺ) في حياته بكل تفاصيل الجمع والحفظ واكملها قبل وفاته، والا كيف نفهم قوله تعالى ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)) ([2])، ولا ادري لماذا علينا مسايرة الفهم الخاطئ والنقل الخاطئ والصورة المفتعلة القائمة على ان النبي (ص) توقف هنا ولم يكمل جمع القرآن وحفظه من الضياع !!! وترك هذا العمل لغيره من الصحابة الذين بفطنتهم تنبهوا الى ضرورة الجمع والحفظ فقاموا بذلك، ولو لا فعلهم هذا لضاع القرآن !!! .

الشواهد كثيرة على ان رسول الله محمد (ﷺ) كان شديد الحرص على حفظ النص القرآني عبر أليات عديدة، ابتدأت بالحفظ الصدري لكل مانزل عليه مباشرةً، ثم الحفظ

1- ينظر : الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، دار النفائس، بيروت، 2008، ص ص142 - 146.

2- من الآية (3) سورة المائدة.

التحريري من خلال كتابة الآيات النازلة كلاً في موضعها من السور، ثم المراجعات الدورية المتكررة سنوياً لكل ما نزل وما يترتب على ذلك من ترتيب الآيات والسور حسب مواقعها، وهذا الحرص الشديد لاشك انه مرتبط بوعي النبي (ﷺ) وادراكه لاهمية القرآن في حفظ الامة من الانحراف والضلال وابقاءها على درب الهدايه، فضلاً عن ذلك فقد ورد عنه (ﷺ) تحذيره لاصحابه مما اصاب اليهود والنصارى من الضلال بعد ماتركوا مصاحفهم ولم يتعلقوا بحرفٍ مما جاءهم به انبيائهم ([1])، وهذا التحذير يستلزم العمل على الحفظ لا الترك والاهمال.

فحالة الوعي والادراك لاهمية القرآن وضرورة حفظ نصوصه وجمعها اذن كانت حاضرة وبشدة عبرت عنها افعال واقوال رسول الله (ﷺ)، لذا فالمنطق السليم يدفعنا نحو الاعتقاد الصريح والتام على ان جمع القرآن قد تم واكتمل في حياة النبي محمد (ﷺ) وقبل وفاته، واما عن ادوار الصحابة من بعده، فلا ارى بانها تعدت مسألة مواصلة الحفظ وفق المسؤوليات التي اصبحت في عاتقهم والحرص على عدم ضياعه بعد ان تولوا الخلافة بعد وفاة النبي محمد (ﷺ).

ان الاشارة الذكية التي ظهرت وسط اراء المستشرق وات حول هذا الموضوع تبين حالة الارباك الواضحة التي بدت على المفسرين المسلمين وهم يسعون للتوفيق بين مضمون قوله تعالى ((لا تُحرّك به لسانك لتعجل به. انَّ علينا جمعهُ وقُرأنهُ. فاذا قرأنهُ

1- ورد في مسند احمد رواية بهذا الشأن جاء فيها : " عن ابي امامة الباهلي قال لما كنا في حجة الوداع قال رسول الله (ص)... (يا ايها الناس خذوا من العلم قبل ان يقبض العلم وقبل ان يرفع وقد كان أنزل الله عز وجل :(يايها الذين امنوا لا تسئلوا عن اشياء....غفور حليم) قال فكنا نذكرها كثيراً عن مساءلته، واتقينا ذلك حين أنزل الله على نبيه (ص)، قال فأتينا اعرابياً فرشوناه برداء... ثم قلنا له : سل النبي (ص)، قال: فقال له : يا نبي الله كيف يرفع العلم منا وبين اظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها نساءنا وذرارينا وخدمنا ؟ قال :فرفع النبي (ص) رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب، قال فقال : (... هذه اليهود والنصارى بين اظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا بحرف مما جاءتهم به انبياءهم) ". احمد بن حنبل (ت241هـ)، مسند احمد، مؤسسة قرطبة، مصر، لا.ت، جـ2، ص 66-65.

فاتّبع قُرءانهُ. ثُمَّ انَّ علينا بيانهُ)) ([1]) من جهة، وبين الصورة المفتعلة من ان القرآن لم يجمع قبل محاولة زيد بن ثابت من جهة اخرى ([2])، فظاهر الآيات ان علينا جمعه وقرأنهُ لايدعم اطلاقاً فكرة ان النبي محمد (ﷺ) توفي تاركاً القرآن مفرقاً متناثراً بين الصحف والرقاع، لان الله تبارك وتعالى تكفل ذلك (ان علينا جمعه) ومن مستلزمات هذا التكفل الالهي ان يؤدي النبي (ﷺ) دوره في الجمع والحفظ بالتمام والكمال لا ان يترك ذلك منقوصاً غير مكتمل.

يعلق وات على هذه الآيات قائلاً :" ان التفسير الطبيعي للآيات تلك تعني ان محمد كان يعيد قراءة القرآن الموحى به من الله وتابعه كذلك عند جمعه اي جمع الآيات المكتوبة بشكل منفصل سوية... لو لم يكن محمد قد انشغل بجمع القرآن سيكون صعباً ان نرى كيف ان زيد او اي مسلم اخر يقوم بهذه المهمة التي اكد القرآن ان الله سيقوم بها، ومن ناحية اخرى لو ان محمد قد انجز الجزء الاكبر من جمع القرآن فسيكون من المفترض انه اكمل هذا العمل طبقاً للمبدأ الذي كان يتبعه في انجاز الرسالة " ([3]).

ان تعظيم الدور الذي لعبه زيد بن ثابت وغيره من الصحابة قد ساهم في احداث فوضى عارمة بتفاصيل الجمع، وبالتالي دفع باتجاه رسم صورة مفتعله وغير حقيقية لكامل عملية الجمع. وبدلاً من محاولة فهم حجم الدور الذي قام به زيد خلال العصر الراشدي

1- الآيات (16 - 19) سورة القيامة.

2- لملاحظة هذه الصورة المفتعلة ينظر: البخاري، ابوعبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي (ت 256هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، 1986، جـ4، ص1907. احمد بن حنبل، مسند احمد، جـ1، ص 10. الترمذي، محمد بن عيسى السلمي (ت279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق احمد محمد شاكر واخرون، دار احياء التراث العربي، بيروت، لا.ت، جـ 5، ص283. النسائي، ابوعبدالرحمن احمد بن شعيب (ت303هـ)، فضائل القرآن، تحقيق فاروق حمادة، دار احياء العلوم، ط2، بيروت، 1992، جـ1، ص75. الزركشي، محمد بن بهادر بن عبدالله (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق احمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1971، جـ1، ص233.

3- Watt,Islamic revelation,p22.

والذي لا يعدو قيامه بتدقيق النسخة المجموعة والمحفوظة في حياة النبي (ﷺ) مع ما محفوظ في صدور الرجال، ومن ثم العمل على نسخها الى عدة نسخ وتوزيعها على الامصار الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان. لقد فُهم هذا العمل الذي قام به زيد على انه الشروع بجمع القرآن من صدور الرجال والصحائف والرقاع المفرقة والتي عثر على بعضها بعد سنوات من وفاة النبي وبالصدفة !!!

هذه الصورة المفتعلة اعطت للمستشرقين الفرصة في ان يطعنوا بسلامة النص القرآني وقد بدا ذلك واضحاً من خلال المستشرق وات الذي يُعد اقل المستشرقين طعناً بسلامة النص القرآني حيث قال :" يبدو مرجحاً ايضاً ان زيد وجد بعض الآيات لدى حفظة القرآن لها نفس البداية ولكن بنهايات مختلفة... ان مشكلة جامع القرآن ستكون فيما اذا كان عليه ان يعيد كل ما جمعه لعمل واحد كل مرة أو ان يهتم بما هو مختلف. يبدو ان الاسلوبين قد اتبعا حسب ظرف كل حالة. ان من واجبات جامع القرآن الاخرى هو ان يضع كل سورة بالترتيب الصحيح، وتُظهر تقارير عن مخطوطة ابن مسعود ان هناك اختلاف في الترتيب " ([1]) .

ثم يشير وات الى موقف المستشرقين عموماً بالقول :" لدى العلماء الاوربيون شكوك حول النسخة الاولى التي جمعت في زمن ابو بكر بشكل خاص لان الاوراق التي اعطيت الى حفصه للاحتفاظ بها يبدو انها لم تكن رسمية باي حال من الاحوال. قد يكون الامر كذلك، ولكن في تلك الفترة قام زيد بجلب ما استطاع من المخطوطات التي وجدها ولكن بشكل غير رسمي " ([2]) .

نعود مرةً اخرى للتأكيد على ما افرزه الاختلاف والتناقض في مضامين المرويات الاسلامية الخاصة بالجمع، والمتأثرة بروح المنافسة والسعي لاضفاء الدرجات العليا على

1- Watt,Islamic revelation,p23.

2-Ibid، p24.

شخوص محددة من الصحابة من خلال بوابة جمع القرآن وحفظه، ونتيجةً لهذه التراكمات المتناقضة تجمعت في كتبنا جملة من المرويات التي شوشت الفكرة وقدمت المبررات للطعن بسلامة النص القرآني. كما ان مصطلح جمع القرآن في تقديري لم يكن واضحاً ومحدداً عند اغلب الصحابة، لذا وصف البعض منهم افعال عاديه وبسيطه جداً لبعض الصحابة على انها جمعاً للقرآن، في حين تغافلوا عن الوصف الدقيق لكل ما قام به النبي محمد (ﷺ) خلال سنوات الدعوة من حرص شديد على الحفظ الشفهي، الى الحرص الشديد على كتابة ما نزل من القرآن، الى مراجعة ما كتب من القرآن في كل عام، الى تشجيع المسلمين وحثهم على قراءة القرآن وحفظه والدوام على ذلك، تغافلوا عن وصف كل ذلك حتى قالوا ان النبي (ﷺ) توفي تاركاً القرآن مفرقاً بين الرقاع !!!. اذن المشكلة في طريقة فهمنا للمصطلحات والتعبير عنها في مروياتنا، لذا فنحن بحاجة ماسة لاعادة النظر في تراثنا.

الفصل الثاني : " افتراضات من الوحي القرآني"

1 - " المعنى الضمني للقرآن العربي "

2 - " تصورات قاطعة "

3 - " افتراضات كونية "

4 - " تصورات تاريخية "

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثاني

1 - عبارة " القرآن العربي "

2ـ الافتراضات الكونية

3 - التصورات التاريخية

4 - عالمية الدعوة الاسلامية

1 - المعنى الضمني للقرآن العربي (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

لقد تم ذكر عبارة " القرآن العربي" في نص القرآن خمس مرات في الوحي الذي نزل على محمد، ولهذه العبارة معنى لم يدركها المسلمون بشكل كامل والتي لها أهمية عظيمة في عصر عالم ما بين الأديان. النقطة الأساسية أن القران موجه من خلال محمد إلى الشعب الذي يفهم العربية فإذن لابد أن يكون مفهوما لهم، إن هذا يعني أكثر من استخدام الكلمات المتعارف عليها عند العرب في أوائل القرن السادس. إن مجمل الحياة كامنة في استخدام اللغة وخصوصا في الوسط الثقافي والفكري بكل معايير تفكيرها المميزة وبنظرتها الخصوصية وبقيمها الجمالية والأخلاقية ومفاهيمها التاريخية... إن الفهم الحقيقي للقرآن يتطلب معرفة الظاهرة المميزة لحياة العرب، وبطريقة تفكيرهم، وخصوصا في الصحراء ([1]) .

إذن فاللغة العربية ارتبطت بوسط ثقافي خاص فيه مظاهر مختلفة ميّزتها عن أوساط ثقافية أخرى. إن لهذه الحقيقة أهمية كبرى خصوصاً في عالم ما بين الأديان...[2].

لقد أكد القرآن بان رسالة محمد لقومه هي نفس الرسالة التي بعث بها أنبياء آخرون لأقوامهم. يبدو من هذا إن المقصود هو أساسيات الرسالة مثل الإيمان بالله وبيوم القيامة وبالأنبياء والملائكة والكتب المقدسة. قد يجادل بعض علماء المسلمين بان الاختلافات بين القرآن وبين العهد القديم والجديد يعود إلى التحريف الذي حصل في هذه الكتب من قبل اليهود والمسيحيين، ولكن ما ذكر في القرآن عن التحريف في تلك

1- Watt,Islamic revelation,p25.

2- Ibid, p25-26.

الكتب كان اقل بكثير مما أكدته نظريات المسلمين المعاصرين. يعود جزء من هذه النظرية إلى القرآن نفسه والذي ذكر فيه بوضوح ان القرآن ليس تكراراً باللغة العربية لمحتويات الكتب الأخرى التي أُوحيَّ بها للرسل الآخرين. كثيراً مما جاء فيه موجه بشكل خاص إلى العرب كما ورد في السورة (106) ([1]) والتي كانت موجهة إلى قريش، وكثير منه أيضا يُعلّم المسلمين لتبني التصرف الصحيح في المناسبات المختلفة في حياة المجتمع مثل الانتصار العظيم في معركة بدر الكبرى والتراجع في معركة احد والتصرف المخيب للآمال من قبل البدو وهكذا. إن الإشارة إلى هذه الأمور في القرآن تؤكد عدم وجود تكرار لكتب أخرى بل انه كان يتعامل مع قضايا معاصرة تخص تلك الحقبة من الزمن ([2]).

إن المشكلة الأساسية هنا هي علاقة الدين بخصوصيات البشرية عالميا وهذا يمكن تناوله بطريقة أخرى، قد يبرز اعتقاد في ان الإحداث المعينة في حياة محمد على سبيل المثال قد تم الحديث عنها في القرآن على انها تعطي مثالاً عن تميز الجوانب الأساسية من حياة محمد، ويعقب ذلك تأكيد القرآن على طابعه العالمي رغم انه يتضمن الإشارة إلى قوم معينين. ولهذا السبب يمكن المجادلة بالقول ان القرآن موجه الى الإنسانية جمعاء وليس للناس من الأوساط الثقافية العربية. وهذه حجة قوية لان الدين الإسلامي قد توسع الى مناطق ابعد من الوسط الثقافي العربي، وقد كسب إتباعاً من أجناس وبيئات مختلفة وهناك جواب قصير على ادعاء ان الإسلام موجّه للبشرية جمعاء وهو ان هناك عدد من الأقاليم الثقافية والتي لم يدخل إليها الإسلام بعد بقدر كبير، تلك هي الأقاليم الثقافية التي تحتضن أديان كبرى، ومن الممكن، وهو امر طبيعي انه في يوماً ما سيقتنع غالبية هذه الأقاليم بالإسلام ولكن أيضا من الممكن ان لايحقق الاسلام مثل هذا التوسع، لذا يمكن القول بان الإسلام قد نجح في التوسع خارج إقليمه الثقافي ولكن

1- سورة قريش ((لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ.إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ.فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ.الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ))

2- Watt,Islamic revelation, p27.

لا يوجد ما يظهر بأن توسعه بشكل أكبر سيكون مستحيلاً ([1]).

هناك أمران لابد من أخذهم بنظر الاعتبار بالنسبة للتوسع الإسلامي في الماضي وهما : ان الأقاليم العربية التي دخلها الإسلام كانت ثقافيا مشابهة للوسط الثقافي الإسلامي. والحقيقة الاخرى التي لا شك فيها وهي انه في الإقليم الذي يكون فيه الإسلام مسيطرا فان الأقوام المحلية تأثرت بالثقافة العربية وفي اغلب الأحيان استبدلت ثقافتها بالثقافة الإسلامية... من هذا يتضح إن أقوام معينة كانت مستعدة لاستقبال الإسلام بعكس أقوام أخرى، وعلى أية حال فان الأمر الأول ليس مستقلا عن الأمر الثاني والمشار لهما انفا([2]).

إن توسع ما يسمى بالعقلية القرآنية في الأقاليم التي يسيطر فيها الدين الإسلامي هي ظاهرة تستحق دراسة إضافية كما هو الحال في التطور المقارن في أقاليم ثقافية أخرى. إن انتشار الجيش الإسلامي قد قاد إلى انتشار الجنس العربي إذا أخذنا بنظر الاعتبار الزيجات الشرعية للرجال. كما انتشرت اللغة العربية أيضا وقد تم اعتمادها حتى من الأقوام التي ليس لها أصول عربية أو إنها غير مسلمة مثلما حصل في مصر القبطية، وكان المسلمون الذين احتفظوا بلغاتهم الأصلية قد حشروا بعض الكلمات العربية في لغاتهم ومثل هذه الحالة حصلت لدى الفرس والأتراك والاردو ([3]) والملايو ([4]) والهاوسا([5]). إن المسلمين الذين احتفظوا بلغاتهم قد احتفظوا بشيء من ثقافتهم الأصلية أيضا.

1- Watt,Islamic revelation, p27-28.

2- ibid,p28.

3- هي لغة هندية آرية من عائلة اللغات الهندية الاوربية، وهي اللغة الرسمية في باكستان وبعض الولايات الهندية.

4- هي اللغة الرسمية لكل من ماليزيا وبروناي وسنغافورة، يتحدث بها اليوم اكثر من (20) مليون نسمة

5 - لغة الهاوسا وهي لغة تشادية تنتمي لعائلة اللغات الأفروآسيوية، تكتب باحرف عربية، واغلب متحدثيها في النيجر وشمال نيجيريا بحدود (50) مليون نسمة.

وحتى اذا قمنا بدراسة إضافية سيكون من الصعب قول الكثير وبتفصيل ولكن سنحصل على انطباع هو انه في جميع انحاء العالم الإسلامي هناك عقلية إسلامية مشتركة ([1]).

ان خلاصة هذه الأفكار هو انه في الوقت الحاضر هناك اقليم اسلامي مميز له خصوصيته عن الأقاليم الأخرى في العالم. وعقلية هذا الإقليم قد صيغت بشكل كبير من الثقافة العربية التي نشأت بظهور القرآن، ويبدو أن الناس في هذا الإقليم الإسلامي مقتنعون به أكثر من الاقاليم الثقافية الأخرى. انه حقاً الدين الذي يلائم عقليتهم. وهذا ليس امرأ مستغربا إذ أن وظيفة الدين هي صياغة عقلية جديدة. ما هو مهم في الدراسة الحالية دراسة علاقة القرآن بهذه العقلية الإسلامية، وبشكل أكثر تخصيصاً إلى العقلية العربية والتي نمت فيها العقلية الإسلامية، والعلاقة بين القرآن والعقلية العربية والمتضمنة في العبارة التي وردت في القرآن " قرآناً عربياً " ([2]).

إن الاعتقاد الراسخ بان القرآن موجه بالدرجة الأولى إلى العرب في القرن السابع سيسهل إعطاء فكرة لمصادر الأفكار القرآنية والتي لن تكون مرفوضة أكثر مما قاله العلماء الأوربيون في الماضي. كان علماء القرن التاسع عشر مهووسين بالبحث عن المصادر. كانت فكرة النشوء هي السائدة وباضطراب فكري معين فقد كان المقترح هو انه اذا ما أظهرت أصل الشيء أو من أين اشتق فانك قد قدمت براهين على حقيقة ذلك الشيء... ([3]).

القرآن ليس من عمل إنسان عبقري، لذا فان هذا يعني بأننا لا نستطيع الحديث عن مصادر القرآن نفسه. ولكن من ناحية أخرى طالما أن القرآن موجه أساسا للعرب وهم أتباع محمد فانه لأمر مشروع أن نسأل كم كان العرب متأثرون بأفكار الديانتين اليهودية والمسيحية أو بأي شكل من إشكال الثقافات التي كانت سائدة في الشرق الأوسط في

1- Watt,Islamic revelation, p 28.

2- Ibid, p29.

3- Ibid, p29-30.

ذلك الوقت. كان بعض العرب على اتصال بالبيزنطيين بشكل أو بأخر وبلا شك كان لديهم اطلاع على الأفكار الاغريقية والمسيحية، كما أن هناك اثر لأفكار الفرس في شعر ما قبل الإسلام. أهل المدينة تعلّموا أشياء عديدة من اليهود المقيمين هناك. لا تعطينا مصادر عقلية العرب ما قبل الإسلام معلومات كثيرة عن عقلية العرب، ولكنها ساهمت قليلا في فهمنا للعملية الثقافية في ذلك الزمان. فلم تبلغنا بأي شيء عن كيفية نقل القرآن الى محمد. ويمكن افتراض إن القرآن وجه إلى العرب كيفما كانوا مع تأثير بسيط من الأفكار اليهودية والمسيحية وباتصال ضعيف جدا مع الحضارات البعيدة عن الجزيرة العربية ([1]).

2. تصورات قاطعة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

تتميز العقلية العربية عن بقية العقليات، مثلما تتميز تلك العقليات بعضها عن البعض الاخر، بافتراضاتها القاطعة. لا تعود هذه الافتراضات إلى مضمون الفكر العربي ولكن لإشكال المعايير الفكرية التي عبر عنها هذا الفكر.

كانت أشكال الفكر هذه عمومية بحيث أن الرجل العادي الذي يعيش في مجتمع صغير وبعقلية مشابهة غير مدرك لما يمكن أن يكون لذلك المجتمع من تأثير عليه... ([2]).

النقطة الأولى في هذا المجال هو أولوية القرابة الشخصية في التفكير العربي. انه أمر معروف لأولئك الذين لهم صلات مع العرب حتى في المدن الكبرى في الشرق الأوسط فانه يرى أن لديهم اهتمام بعلاقة القرابة بالقياس إلى الأوربيين العاديين. ربما يعود ذلك إلى أنهم كشعوب كانوا بعيدين عن المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً، ومن ناحية أخرى فان الأمر يتعلق بوجود شعور عميق لدى الشخص بجذوره التاريخية ذات العلاقة بهذا الأمر... ([3]).

1- Watt,Islamic revelation p30.

2- Ibid ,p30.

3- Ibid, p31.

إن احد جوانب النشاطات الإنسانية هو التميز ما بين ما هو ايجابي أو سلبي، ربما في حياة الصحراء هناك إدراك حول القدرة المحدودة لان يفعل المرء امراً ذا تأثير. هناك معتقد بان " العبد يرى شيئا ولكن الله له رأي أخر" ولكن في الجزيرة العربية فان المبادئ بعيدة المنال. فقد كان الاعتقاد السائد هناك بان الغذاء والرزق أمر مقرر وكذلك "اجل" الإنسان (أي يوم وفاته) مهما عمل الإنسان فان هذه الأمور لن يجري عليها أي تعديل. هذا الأمر قد اثر كثيرا على فعل الإنسان أو انه جعل منه مجرد تابع... ([1]) .

من المعايير الأخرى تلك المتعلقة بانتظام او عدم انتظام الطبيعة... وبعكس الأقوام التي تعمل في الزراعة والذين يعتمدون على المواسم، فان البدو العرب غير عارفين بانتظام الطبيعة او عدم انتظامها. ان سقوط المطر بشكل خاص يعتبر أمراً شاذاً في الجزيرة العربية ففي سنة معينة سينزل المطر بغزارة في احد الوديان ولكن ليس في وادي أخر ليس بعيدا عنه، وهذه الحالة قد تكون معكوسة في السنة التي تليها، لذلك فان حركة البدو تتغير من سنة إلى أخرى. وهذا امر غير مستغرب في أن لا يكون للعرب معرفة بانتظام الطبيعة وقوانينها ([2]).

ان غياب هذا الانتظام قد يكون له علاقة بالميل للتجزئة الذي ظهر في الفكر الاسلامي في وقت لاحق. وهذا الميل الذي يعتبر ان كل حدث هو امر منعزل وليس جزءا من عملية متواصلة بل هو شيء منفرد ومعزول. ان النظرة المتطرفة هذه تقود الى التأكيد، على سبيل المثال بان الشجرة التي هي أمامي في هذه اللحظة لن تكون في محلها في الزمن اللاحق الا اذا اراد الله ان تكون موجودة في ذلك الوقت. قد يكون هذا الميل راجع الى اعتماد مفاهيم الجزئية الى عوامل أخرى مثل التصور الاسلامي الى الله ولكن أياً كان مصدره فانه، ولفترة طويلة لعب دورا في الفكر الاسلامي. ان التركيز على

1- Watt,Islamic revelation p32.

2- Ibid, p33.

عدم ثبات الطبيعة وليس على اساس التقدم الطبيعي، ربما يعود السبب الى الاعتقاد بان الطبيعة متغيرة وغير ثابتة بما يجعل التركيز على الحاجة الى الثبات في حياة الناس. وكما هو معروف فان القسم الاكبر من المسلمين يدعون انفسهم بالسُنّة او اتباع سيرة محمد. هذا المفهوم يعود الى مرحلة ما قبل الاسلام، فقد كانت القبائل البدوية محافظة وكانت تعتقد ان سلامتها تعتمد على سيرة الاجداد اي اعتماد وسائلهم في تناول مشاكل الحياة المختلفة. ان السُنّة تعني في الأصل (المسار المطروق) و بعبارة اخرى (الطريق السالك) بمعنى ان المسافر في الصحراء عليه ان يثبت في سيره على المسار المطروق واي خروج عنه يعني انه سيتوه ان لم يفقد حياته نتيجة لذلك. ان هذا المفهوم هو الذي صاغ التفكير الاسلامي... ومن هنا جاء الطريق الجديد للمسلم في تعريفه للعلاقة بين الاشياء والانسان... بينما نجد الانتظام والصمود والاستمرارية كلها موجودة في ارادة الانسان. فانتظام الطبيعة مرهون بإرادة الله وهي مسألة مشابهة لإرادة الانسان ([1]).

ان الخطوط العامة للتفكير هذه تأتي سوية مع مفهوم القرآن للعملية التاريخية على الأقل في بعض جوانبها. فتاريخ العرب الرحل لم يكن اكثر من سقوط وبروز لقبائل عديدة. لم تكن هناك اي معرفة فيه لتطور متواصل. لم يكن الزمن الخاص بكل قبيلة امراً ذا اهمية. التاريخ اساساً هو عبارة عن تكرار نمطي للأشياء. من الأمور التي جاء ذكرها في القرآن هو ان قبيلة تفوقت وازدهرت، جاءها رسول من الله ولكنهم عصوا امر الله فعاقبهم الله بالتدمير الكامل. ان تكرار هذه الفكرة له جذور عميقة في فكر السامية ... ([2]).

النقطة الأخيرة هي سلوك العرب نحو الاسماء، وبشكل عام، المحتوى اللفظي. كان هناك اوجه تشابه لهذا الأمر عند شعوب أخرى. كان هناك شعور من بين امور أخرى، بأن العلاقة بين الاسم والشيء المسّمى لم يكن من قبيل الصدفة او امراً تقليدياً

1- Watt,Islamic revelation, p33.

2- Ibid, p34.

بل أن هنالك موائمة بين الاسم المعيّن للشيء. ربما هنالك واقعية في هذه النظرة ولكنها قد تضيع في العودة الى أصل اللغة. يبدو مما جاء في قصة آدم في القرآن، كيف انه مُنح معرفة الأسماء (السورة 2 / الآيات 33-30) ([1]). في سفر التكوين كذلك هنالك قصة مماثلة حول كيفية قيام آدم بإعطاء الأسماء للأشياء (2.19،20) ([2]) ولكن في هذه القصة تبين ان آدم هو الذي ذكر أسماء الأشياء والقصة على الأقل منسجمة مع فكرة ان الأسماء مجرد امر تقليدي. على عكس ذلك ما جاء في القرآن بأن الله قد عَّلم آدم الأسماء قبل ان يعطيها للملائكة. يبدو ان هنالك افتراض مسبق بأن معرفة الأسماء تتضمن المعرفة لطبيعة الأشياء وان هنالك علاقة وثيقة بين الاسم وطبيعة الشيء. وبالتالي نفترض ان تلك التسميات هي افتراض مسبق عائد الى عقلية العرب ما قبل الاسلام... ([3]).

ان هذه القائمة من النظريات المعيارية تظهر ان القرآن لم يستند الى دراسة مستفيضة للموضوع وانما هو مجرد مسح ابتدائي ليس أكثر. وعلى أية حال فإنها كانت كافية لتوضيح معنى ما يقوله المرء حول عقلية العرب المميزة ما قبل الاسلام. ان هذا يعطي دعماً قوياً لبعض علماء المسلمين الذين يقولون بانه من غير الممكن ترجمة القرآن من اللغة العربية الى لغة أخرى وليس من المناسب فعل ذلك (رغم ان تفسير القرآن وشرحه امر مسموح به ومرغوب به بالفعل) الخلاصة هنا ان الأمر لا يقتصر على العقلية العربية فحسب بل ان هنالك افتراض علينا ان نرى بأن لكل منطقة ثقافية لها

1- قوله تعالى ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)) الآيات (30 - 33) سورة البقرة.

2- (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره). سفر التكوين الاصحاح الثاني (19 - 20).

3- Watt,Islamic revelation, p35

نظرياتها القياسية المميزة الخاصة بها ([1]).

3 - افتراضات كونية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

لا يمكن باي حال من الاحوال ان تكون النظريات المعيارية هي المظاهر المميزة الوحيدة في عقلية العرب ما قبل الاسلام فلابد لهؤلاء القوم ان يكون لهم تصّور حول الكون. ليس لنا ان نفترض بأن تلك النظريات نظام متماسك فالاعتبارات العامة ودراسة القرآن تظهر بان هناك مزيج من الأفكار في الجزيرة العربية من مصادر مختلفة. قد تكون بلا شك من النظرة الكونية للأجيال السامية السابقة والتي كانت في الاساس مستندة الى النظريات الكونية للعهد القديم وقد اضيف الى ذلك اليهود والاغريق والمسيحية وزرادشتية الفرس. ان الأفكار هذه موجودة بدرجات متفاوتة في عقول الذين توجه لهم القرآن وعاصروا محمد ([2]).

ان معظم العرب في عصر محمد سواء اكانوا من سكان المدن او العرب الرحل يمكن تصنيفهم بالوثنيين مع انهم، كما ذكرنا سابقا، يدينوا بوثنية القبيلة، وفي العلوم الدنيوية يعتقدون ان جوانب الحياة المختلفة مثل الرزق وتاريخ الوفاة، وما اذا كان المرء سعيداً في حياته بشكل عام ام غير سعيد، هي امور محددة سلفاً يطلقون عليها (الدهر او الزمن) والدهر او الزمن ليس الاهاً يعبد ولكنها قوة كونية لا يستهان بها. في آيات من القران (السورة 45 الآية 24) كان هناك اشارة للوثنيين((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)) ([3]). فالفكرة الكونية هي ان رزق الانسان وتأريخ مماته ودرجة سعادته هي امور مثبتة ومقرّة سلفاً (وان ليس بوسع الانسان ان يفعل اي شيء ازاءها) ([4]).

1- Watt,Islamic revelation, p36..

2- Ibid,p36-37.

3- الآية (24) سورة الجاثية.

4- Ibid, p36-37.

وقد تبناها الاسلام على اساس ان الله وليس الزمن او الدهر من يقرر تلك الامور... كان هناك شيئاً من التردد حول قدرة الانسان على تغيير مصيره النهائي. العديد يعتقدون بان الذهاب الى الجنة او النار يعتمد على امتثاله لله من عدمه. لذلك فقد تم تحديد حرية الانسان وهناك من يرى ان الانسان مسؤول عن افعاله... ([1]).

يتضح من القرآن ايضا انه ليس كل الوثنيين العرب لديهم النظرة نفسها، فبعضهم على الأقل يعتقد بالإله الأعلى ولكن في أغلب الأحيان يقدمون التماسهم الى الالهة المحلية وعندما تشتد الحاجة بهم يتوجهون الى الاله الأعلى وبعد ان تمر الأزمة يهملون الاله الاعلى (انظر السورة 39 الآية 8) ([2]). (والسورة 29 الآية 65) ([3])، من هذا المنطلق بالإله الأعلى فسيكون من السهل الأيمان بالله... ([4]).

لقد كان في جزء من العلوم الدنيوية العربية القديمة اعتقاد بأنواع مختلفة من الكائنات الروحية والتي تعرف باسم الجن ومفردها جنية والتي تسمى بالإنجليزية ب (genie) يبدو ان بعضا من هذا الجن جيد وأخر سيء، ففي السورة (72)([5]) تحدثت عن الجن الذين استمعوا الى محمد وهو يقرأ القرآن فأسلموا وهكذا فان كل جني لم يسلم سيذهب الى النار. هنالك شيء مشابه للجن ولكن بدرجة أعلى وهم الملائكة وجميعهم من الصنف الجيد. يبدو ان القرآن يفترض الألفة مع الملائكة، ويرى العلماء المعاصرون غالبا بأن هذه الفكرة قد جاءت للعرب من اليهود والمسيحيين قبل زمن محمد. لقد كان

1- Watt,Islamic revelation,p37.

2- قوله تعالى ((وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)) الآية (8) سورة الزمر.

3- قوله تعالى ((فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)) الآية (65) سورة العنكبوت.

4- Ibid, p37.

5- سورة الجن حيث ورد في مطلعها قوله تعالى ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)).

قبول فكرة الجن والايمان بها قد مهد لها العرب الأوائل كما اعتبرت الملائكة نوع من انواع الجن. وبالاسلوب نفسه تقريباً فان فكرة الشيطان قد عرفها العرب قبل محمد من اليهود والمسيحيين ايضا ([1]).

توجد في القرآن اشارات الى صورة العالم التي كان يعتقد بها عرب الصحاري قبل الاسلام. فالأرض ممتدة مثل البساط داخل الخيمة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) ([2]) بينما تكون السماء مثل سقف او خيمة فوق هذا البساط (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) ([3]) وان السماء يرفعها الله ويمنعها من السقوط على الأرض (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) ([4]) من الامور المحيرة التي جاءت في القرآن ان الجبال قذف بها الى الأرض كي يحافظ عليها من الاهتزاز او الميلان (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ([5]) مثلما توضع الاثقال على جوانب البساط كي لا تحركها الرياح، هذا كله جاء من نظرة العرب الرحل. وفي سور أخرى يقول الله حول خلق السماوات السبع (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ([6]) ويبدو ان هذه الفكرة جاءت للعرب من الفلسفة الاغريقية والتي كانت مألوفة لعلماء الطبيعة ([7]).

لقد كتب الكثير عن أفكار اليهود والمسيحيين التي ذكرت في القرآن والتي

1-Watt,Islamic revelation, p38..

2- الآية (6) سورة الشمس.

3- الآية (32) سورة الانبياء.

4- الآية (65) سورة الحج.

5- الآية (15) سورة النحل.

6- الآية (12) سورة فصلت.

7- Ibid, p38.

تعتبر كافية للإصرار على ان بعض الافكار الكونية التي جاءت من اليهودية والمسيحية والزرادشتية كانت مألوفة لدى العرب قبل الاسلام. وهذا امر طبيعي فقد كان اليهود والنصارى موجودين في الجزيرة العربية اضافة الى الاتصالات التجارية للمكيين مع البيزنطيين والحبشيين والامبراطورية الفارسية.

انه بالفعل لأمر واضح بان قصة نبوة محمد سادت بعد مساعدة بعض الاشخاص مثل ورقة ([1]) (ابن عم خديجة زوجة محمد) والذي كان يعرف قليلا عن تصور الديانتين اليهودية والمسيحية. كانت معرفتهم هامشية وضعيفة لكنها ساهمت في اعطاء محمد فهم عن مهمته الخاصة ([2]).

من الجدير بالذكر ان الكلمة التي استعملت اولا وتكرر استخدامها هي ليست كلمة (نبي) كما في اليهودية والمسيحية ولكن الكلمة التي ميزت العرب هي كلمة (رسول) ليس فقط لان هذه الكلمة التي تعني النبي او الرسول جاءت الى عرب ما قبل الاسلام من المصادر اليهودية والمسيحية. ان افكارهم الكونية تمركزت على فكرة الله هي التي كانت موضع التأثير وربما كان هذا هو السبب في رسوخ فكرة الرب الأعلى عند العرب ما قبل الاسلام. قد يكون هناك تأثير للزرادشتية في هذه المسائل لكن اي تأثير للزرادشتية يمكن تمييزه بسهولة لان موقفها معروف بالثنائية ازاء الخير والشر وعلى فكرة الشيطان أو (ابليس). لذا فان فكرة الخير والشر في ذلك الزمان قد جاءت من الفرس... ([3]).

4 ـ تصورات تاريخية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

بالإضافة الى الأفكار العامة عند العرب ما قبل الاسلام حول هيكل المجتمع كانت لهم اراء معينة حول الماضي القريب والبعيد، والتي يمكن ان يطلق عليها رؤية

1- يقصد بذلك : ورقة بن نوفل.

2- Watt,Islamic revelation,, p38-39.

3- p39. ibid,

تاريخية. ان ادراكهم لمسار الأحداث في الماضي مرتبط بالهيكل الاجتماعي المألوف لديهم.

فقد كانت لديهم خبرة في الكيفية التي تزدهر فيها القبيلة وتقوى ثم بعد زمن تضعف وربما تختفي. لقد تعامل القرآن مع اختفاء قبائل سالفة كحقيقة معروفة للمكيين وفسرها على ان ذلك حصل نتيجة لغضب الله لعدم طاعتهم له... وبالنسبة للعرب قبل الاسلام لا توجد لديهم فكرة عن تسلسل العلاقة بين القبائل المختلفة او الأحداث المرتبطة بهم. لم يكن هناك اطار مرجعي يساعد على ربط الأحداث غير المترابطة. لكل قبيلة معرفتها حول اسماء رؤساءها او قادتها والمعارك التي دارت بين كل قبيلة وأخرى والتي تؤشر دورة الأحداث المختلفة. والخلاصة هي ان التاريخ يفهم بصعود أو انهيار قبائل وفي كل الحالات لا توجد علاقة بين مجموعة وأخرى. اولئك الذين سمعوا القرآن والذين يفترض ان لديهم معرفة بوجود قبائل عاد وثمود الذين ارسل الله لهم النبي هود والنبي صالح في (السورة 34 الآيات 16،15...) ([1]) وتأتي قصة أصحاب الفيل من الاحداث التي يذكرها العرب والتي حصلت في التاريخ القريب(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) ([2])... لم يكن هنالك ادعاء بان اولئك الذين كانت لديهم معرفة بهذه الاحداث قد فسروها باي شكل على ان لها علاقة بالإيمان وقد تكون في هذه الأحداث عنصر من عناصر الرواية التي ساهم القرآن بها وهذا ما سنتناوله في الفصل القادم ([3]).

اضافة الى السيرة المحلية للأحداث في الجزيرة العربية كانت هناك معرفة معينة بالأجزاء التاريخية للإنجيل. وبلا شك فان هذه المعرفة جاءت من قنوات الافكار الكونية نفسها. وحتى في السور الاولى للقرآن كانت هناك اشارة الى بعض القصص الانجيلية

1- قوله تعالى ((لَقَدْ كَانَ لِسبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)) الآيات (15 - 16) سورة سبأ.

2- الآية (1) سورة الفيل.

3- Watt,Islamic revelation, p40.

ولكن تلك الاشارات لم تكن اعادة لتلك القصص ولكنها أخذت من ملامحها العامة ومنها يمكن الاستدلال على ان المتلقين لها لديهم بعض المعرفة المسبقة فيها. وينبغي ملاحظة هذا الاستنتاج بعناية. ان هذا لا يعني ان جميع اهل مكة على معرفة بتلك القصص ولكن ربما واحد او اثنين منهم كانت لديهم معرفة عامة عن قصص لها علاقة ببعض الاسماء. ولكن بعدما بدأ القرآن بالتلميح الى بعض القصص فان الاهتمام ازداد لدى المسلمين وخصومهم بها. فاذا قابلوا اشخاصا لهم المام بقصة ما فانهم كانوا يبادرون بالاستفسار عن التفاصيل والمعلومات عنها. فالمسلمون وبضمنهم محمد كانوا يبحثون عن فهم أفضل للقرآن بينما يبحث الخصوم عن نقاط من اجل توجيه النقد للدعوة. وعلى العموم فان معرفة القصص الانجيلية اخذت بالازدياد في مكة والمدينة بوجود محمد وسيكون من الطبيعي ان تتطور المعلومات التي عكسها القرآن ([1]).

ان نوع المعلومات التي افترضها القرآن للمتلقين قد جاءتهم شفهياً، ولم يكن هنالك من يفترض ان من بين يهود المدينة من كانت لديه معرفة علمية بالإنجيل كالتي يمكن الحصول عليها بالقراءة فحسب. كان هناك عدد قليل من الذين يستطيعون القراءة وربما كانوا قد قرأوا كتابي العهد القديم والعهد الجديد. واذا كانوا قد فعلوا ذلك فانه لن يؤثر على القصص التي وصلت شفهياً الى المتلقين. وفي كثير من الأحيان فان القصص التي الملح لها القرآن لا تشبه تماماً ما جاء في الانجيل، وانما لها شبه بالقصص التي وردت في تفسير العهد القديم لليهود والمعروفة بقصة المدراش ([2]) وقصة معجزة طيور الطين ([3]) (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)... كانت تلك القصص من

1- Watt,Islamic revelation, p41.

2- المدراش مفردة عبرية تعني (البحث في الكتاب المقدس) بمعنى اكثر وضوحا انها التعليقات على الاسفار اليهودية المعروفة.

3- الآية (49) سورة ال عمران.

هذا النوع معروفة لدى عامة الناس في الجزيرة العربية ولم تكن مفاجئة لهم بل متوقعة طالما انها كانت شائعة لدى العامة... ([1]).

يمكن القول ايضا بانه يبدو من السنين السابقة لدعوة محمد في مكة فان اتباعه وغيرهم من المكيين ورغم علمهم ببعض القصص الانجيلية فانهم تعاملوا مع تلك القصص كأحداث منفصلة تماما كما هو الحال في سيرة تأريخ العرب. ربما هم لم يكونوا على اطلاع على تسلسل الأحداث التي وردت في العهدين القديم والجديد ولا على العلاقة الزمانية بين الأنبياء. عندما زادت معرفة المسلمين بمواد الانجيل حينئذ بدأوا بالتعرف على تسلسل الأحداث والأنبياء. لقد تضمن القرآن تسلسل بعض الأحداث في عدد من الآيات خلال الفترات الأخيرة في مكة والمدينة... ([2]).

في المقام الثالث وبالإضافة الى معرفة تاريخ الجزيرة العربية القديم وبعض الأجزاء التاريخية الأخرى للإنجيل فان القرآن يفترض معرفة التاريخ المعاصر ومن الواضح ان أتباع محمد لابد وانهم كانوا يعلمون بما كان يجري حولهم وبالأحداث التي كانوا جزءا منها. كان هناك مؤشر في الأيام الأولى إلى ازدهار تجارة المكيين والقوافل العربية. وفي زمن المدينة كان القرآن يفسر احداثاً عديدة لم يتطلب تفسيرها طالما انهم كانوا يعرفونها، ولكن كانوا دائما ما يحتاجون إلى معرفة الاسباب لاحداث معينة – الاندحار في معركة أحد على سبيل المثال – وما هي أهمية هذه الأشياء من وجهة نظر الله ([3]).

ان الغرض من هذا الفصل كان للتأكيد على الاتصالات والتي لم تحصل في فراغ عقلي ولكن تفترض العقلية المركبة لمتلقي المعلومات... ([4]).

1- Watt,Islamic revelation, p41-42.

2- Ibid, p42.

3- Ibid, p42-43.

4- Ibid، p43.

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثاني

1 - عبارة " القرآن العربي "

"لقد ذكرت عبارة " القرآن العربي " في نص القرآن خمس مرات في الوحي الذي نزل على محمد" هكذا بدأها وات، اِلماحة لا تخلو من الدهاء والمكر. نعم هي فكرة استشراقية سعى وات لتأكيدها في كتابه هذا، من ان القرآن ودين الاسلام اختصا بالعرب وحدهم، على ان النبي محمد (ﷺ) أُرسل من بينهم وبلغتهم، وكتابة القرآن الكريم بلغة العرب كذلك. وعليه فهما لا يمثلان الاقوام غير العربية لان تلك الاقوام لا يتحدثون العربية ولا يفهمونها، ولا تقوم عليهم الحجة في ذلك، وقد استدل المستشرقون على بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)) ([1])، وقوله تعالى((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)) ([2])، وقوله تعالى((وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)) ([3]).

في واقع الامر نحن امام تسائل مهم، هل ان القرآن خاص بالعرب وحدهم، ام هو لعموم البشر على الكرة الارضية ؟

من المعلوم انه كتاب الله عز وجل الذي انزله على عبده ورسوله المصطفى محمد بن عبدالله (ﷺ)، ليكون دستورا لكل البشر بغض النظر عن لغاتهم والوانهم وثقافاتهم، هو لم يختص بلغة او لون او ثقافة اطلاقا وانك لتجد المرونة والتوازن والاحاطه بآياته

1- من الآية (2) سورة يوسف.

2- من الآية (4) سورة ابراهيم.

3- من الآية (214) سورة الشعراء.

واحكامه ما يؤكد لك انها جاءت على هذه الشاكله لتلائم وتستوعب طبيعة التنوع والاختلاف ما بين البشر جميعاً فالخطاب القرآني تسود فيه الصبغة العامة لا الخاصة، هو وان احتوى على النوعين من اوجه الخطاب العام والخاص، الا ان التركيز كل التركيز كان على عموم البشر من خلال توجيه الخطاب للناس عامةً، والنماذج كثيرة لهذا النوع من الخطاب :

1- خطاب موجه لعموم البشر ولكن بصيغة مخاطبة الانسان. فهذه المخاطبة لم تبحث في هوية الانسان وخصوصيته، بل عبرت عنه على اساس انه ممثل لعموم الناس. وجاء ذلك من خلال آيات عدة :

1. كقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)) ([1])وقوله تعالى ((أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ. بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)) ([2])، وقوله تعالى ((أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى.ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى)) ([3]).

2- خطاب موجه لعموم الناس وبصيغة المفردة نفسها (الناس)، اذ وردت في آيات عديدة وقد بانت عليها علامات الرحمة الالهية التي يدعو فيها الناس الى اتباع طريق الهداية، وترك دروب الظلال، والتعلق بطاعة الله لانها حبل النجاة الوحيد، رحمة الله سبحانه وتعالى كبيرة حينما يذكر الناس بضعفهم وقلة حيلتهم، وانهم امام موعد للحساب، ويدعوهم للتهيؤ لذلك اليوم الموعود بالتقوى والعمل الصالح. واعتقد جازماً انه خطاب غير مخصوص بملة او بفئة او طائفة، وهذه نماذج من الآيات القرآنية الكريمة الدالة على ما ذكرناه :

1- الآية (6) سورة الانشقاق.

2- الآيات (3 - 6) سورة القيامة.

3- الآيات (36 - 40) سورة القيامة.

قول الله تبارك وتعالى)) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) ([1])، وقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)) ([2])، وقوله تعالى ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ)) ([3])، وقوله تعالى ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) ([4])، وقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)) ([5])، وقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)) ([6]) .

وفصل الخطاب في الخطاب نفسه، اذ المتتبع للخطاب القرآني وبسهولة سيدرك انه موجه لعموم بني البشر مع وجود المخصوص، واختصاص بعض آياته بالنبي او اصحابه او

1- الاية (49) سورة الحج.

2- الآية (57) سورة يونس.

3- الآية (108) سورة يونس.

4- الآية (158) سورة الاعراف.

5- الآية (5) سورة الحج.

6- الآيتين (2-1) سورة الحج.

اهل مكة او غيرهم ممن كانوا اطراف فاعلين في زمن الدعوة لا يعني ان الله تعالى جعل القرآن خاصاً بهم، ومُنّزلاً من اجلهم دون باقي البشر.

ان الذي يقرأ نصوص المستشرق وات، لاسيما في هذا الفصل يشعر انه امام علامات واضحة من القلق والخوف من مستقبل الاسلام على الوجود المسيحي تحديداً، فلأن وات قارئ جيد للمستقبل كان يستشعر قيمة وخطورة الانتشار الاسلامي، ويدرك انه في المستقبل سيهدد البنية المسيحية، بل سيدفع بها نحو الانهيار التام. نعم هذا القلق بدا واضحاً في نصوصه، لقد حاول التأثير على نضوج الفكرة عند المسلمين، فكرة عالمية القرآن والرسالة الاسلامية من خلال الاشارة الى توسع وانتشار الاسلام الحالي الذي يراه بانه لا ينطلق من كونه دين عالمي بقدر ما هو مرتبط بحالة الفراغ والضعف الديني الذي توسع على حسابه في تلك المناطق، وهذا الامر لن يتحقق مع بيئات الاديان الكبيرة، وبالتالي فان فكرة العالمية هنا فكرة مغلوطة بدليل وجود اديان كبرى مسيطرة على مساحات واسعة من الكرة الارضية. لقد بذل وات جهداً كبيراً للتقليل من قيمة فكرة عالمية الاسلام مراعاةً للمصلحة المسيحية وارى من المفيد الرجوع الى نصه الذي قال فيه :"... يمكن المجادلة بالقول ان القرآن موجه للانسانية جمعاء وليس للناس من الاوساط الثقافية العربية فقط، وهذه حجة قوية لان الدين الاسلامي قد توسع الى مناطق ابعد من الوسط الثقافي العربي، وقد كسب اتباعاً من آجناس وبيئات مختلفة وهناك جواب قصير على ادعاء ان الاسلام موجه للبشرية جمعاء وهو ان هنالك عدد من الاقاليم الثقافية والتي لم يدخل اليها الاسلام بعد بقدر كبير، تلك هي الاقاليم الثقافية التي تحتضن أديان كبرى " ([1]).

اذن هو يعتقد بان فكرة عالمية الاسلام انما اصبحت راسخة عند المسلمين بعد ان تحقق توسعهم على حساب مناطق غير عربية. ويرى كذلك بان ثقافة هذه الاقاليم الجديدة قد انبثقت بدرجة كبيرة من خلال الثقافة العربية تحديداً !!!.

1- Watt,Islamic revelation,p27.

لا اريد تكرار الحديث حول عالمية الاسلام فما استعرضناه من نصوص قرآنية تكفينا، ولكنني اجد ان التعامل مع الثقافة العربية على انها نتاج بشري تمكنت من فرض نفسها على واقع الديانة الاسلامية فاصبحت ممثلة لها على المستوى العالمي !!! اجده تعاملاً مجحفاً بحق الرسالة الاسلامية السامية. الاسلام هو من اعطى قيمة ومكانة للعرب حينما شرفهم الله تعالى بحمل لوائه، الاسلام هو من ارتقى بالعقل العربي حينما ارتقى به من قاع الجهل الى نور المعرفة وليس العكس، الثقافة الاسلامية انبثقت من القرآن الكريم بالدرجة الاولى والسنة النبوية المطهرة، ولايمكن القول انها قد ولدت من الثقافة العربية، لان ما سبق عصر الوحي وبداية الدعوة لم يكن هنالك اي شئ ايجابي كي تعبر عنه الثقافة العربية.

اما القول بان العرب تأثروا بافكار الديانتين اليهودية والمسيحية او بثقافة البيزنطيين وغيرهم، انه لمن الخطأ ان نعتقد بان العرب في الجاهلية لم يتأثروا بالثقافات المحيطة بهم سواء اكانت ثقافات دينية او حضرية، فالعقل العربي شأنه شأن البشرية جمعاء، يصدق عليه ما يصدق عليهم، يتأثر بما يحيط به من ثقافة وحضارة، ولكن ماهو مقدار هذا التأثر ؟ وماهي حدود رقعته الجغرافية ؟ وماهو امتداده الزمني ؟ فمن علامات وقوع التأثر ان ينعكس ذلك على مستوى العقل والسلوك العربي قبل الاسلام، فاين الأثر الايجابي لليهودية اوالمسيحية او الثقافات الحضرية على حياة العرب في الجاهلية !!! والقرآن الكريم يصف حالهم في قوله تعالى ((مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)) ([1])، وقوله تعالى ((قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ.أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ.قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (([2]). هذا هو الواقع الديني للعرب قبل الاسلام عاكفين على عبادة الاصنام والاوثان على الرغم من

1- الآية (40) سورة يوسف.

2- الآيات (71 - 74) سورة الشعراء.

وجود التجمعات الدينية اليهودية والمسيحية في شبه الجزيرة، فلماذا لم تؤثر على عقائدهم وترتقي بها عن عبادة الاصنام ! ونتيجة لذلك عاش العرب في جاهليتهم انحرافاً دينياً كبير القى بظلاله على مجمل حياتهم العامة من حيث السلوك والافعال وحتى التصورات لطبيعة الحياة والاخرة، وفي طبيعة البناء والعلاقات الاجتماعية.

ان الرسالة الاسلامية التي اصبحت هي القاعدة الاساس التي انبثقت منها الثقافة العربية، لانه لم يكن في الموروثات العربية ما يمكنه الصمود والمنافسة مع ما جاءت به هذه الرسالة من القيم والمبادئ والاعراف، ولهذا يمكننا ان نعبر عن الثقافة العربية بشكلها الذي ظهرت به وانتشر انها ولدت من رحم الرسالة الاسلامية، وعليه فلا مجال بعدها لمناقشة تلك الاشارات الاستشراقية، لان الموروثات العربية القديمة لم يكن لها اي قيمة في مقابل ما اضافته الرسالة الاسلامية .

2- الافتراضات الكونية

ان المؤثرات الفكرية والاعتقادية التي يتحدث عنها وات كانت بحاجة الى مناخ ملائم يوفر لها القبول ويخصص لها مساحة في عقول اهل مكة والبيئة المحيطة بهم، فابسط مقدمات ذلك المناخ لم تكن متوفرة وهي الرغبة نحو المعرفة والسعي لتحصيلها ([1])، الرغبة في المعرفة هي التي تدفع باصحابها نحو البحث في الثقافات والاديان المحيطة والاخذ منها ما دامت تقدم الاضافة، لقد اختلف العنصر العربي في وسط شبه الجزيرة العربية عن العربي المتواجد على اطرافها، اختلفا في طريقة التعاطي مع المؤثرات المنسوبة للاديان السماوية او المراكز الحضارية، ولذلك يمكن ان تنطبق صفة الجهل بنسبة اعلى على المجتمع المكي وما يحيطه كونهم لم يتأثروا بالمؤثرات المنسوبة لليهودية والمسيحية.

1- ينظر: العلي، صالح احمد، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام، مؤسسة الرسالة، لا.ت، ص5.

المستشرق كلود كاهين([1]) يدعمنا هنا بقوله : " لقد انتظم هؤلاء البدو في قبائل، وهم لا يتقبلون سلطاناً عليهم... اما عقيدتهم فقد كانت فقيرة جداً تنحدر من معتقدات سامية قديمة ابرز سماتها الخوف من الشياطين على اختلاف انواعها ". بينما المجتمعات العربية القاطنة في اطراف شبه الجزيرة العربية لا ينكر تأثرهم وبشكل خاص بالنصرانية ([2]) ، ولكن قبول فكرة تأثر تلك المجتمعات العربية في اطراف شبه الجزيرة، لا يغير اطلاقاً من حقيقة بقاء المجتمع المكي دون الخضوع الى المؤثرات الخارجية المنسوبة لليهودية والمسيحية قبيل انطلاق الدعوة الاسلامية .

ان الوقوف على الواقع السائد انذاك والتعرف على تفاصيله التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية المباركة، فضلاً عما ذكرته كتب التاريخ واخباره، يؤكد وبما لا يقبل الشك على ان الرغبة في تحصيل المعرفة هذه لم تكن ضمن اولويات اهل مكة، ولم تكن ضمن حساباتهم الحياتية، وذلك لانشغالهم بما هو اهم وهو الانغماس بالعمل التجاري بكل تفاصيله، ومع ان العمل التجاري وفق مفهومه الحالي تدخل في حيثياته سبل تحصيل الانسان للمعرفة، الا انه في عصر جاهلية العرب لم يكن كذلك بدليل ان القراءة والكتابة لم يكن لها اي وزن واعتبار لديهم رغم اهميتها في العمل التجاري ([3])، فهم تجاوزوا اهميتها بما اسسوه من اساليب وطرق لممارسة التجارة بعيداً عنها. وبالتالي فان الرغبة في تحصيل

1- تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للطباعة والنشر، لبنان، 1983، ص11.

2- ينظر : داود، جرجس، اديان العرب قبل الاسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص275-274.

3- لم يكن تاريخ دخول الخط العربي الى البيئة المكية قديماً، فقد تأخر حتى وقت ظهور الدعوة الاسلامية، ومن الاشارات الدالة على حداثة الخط والكتابة عندهم، انه لم يتعلمها سوى عدد قليل جداً من ابناءهم، فضلاً عن كون الخط رديئاً وقاصراً، وتجربة الكتبة المعدودين تجربة ضعيفة، ولو كانت التجربة قديمة لحسُن الخط العربي ولاكتمل ما كان به من نقص، ولما كانت الحاجة لاحقاً في العصور الاسلامية الى تجويده وضبطه.ينظر: شاهين، عبدالصبور، تاريخ القرآن، دار القلم، القاهرة، 1966، ص68-67.

المعرفة غابت عن اهل مكة قبل ظهور الاسلام، وعليه لايمكن تصور ان هذه المؤثرات نفذت الى عقولهم حاملةً تلك المضامين المتقدمة قياساً بمستوياتهم العقلية، ناهيك عن اختلافها التام عن طبيعة مشاغلهم اليومية المتجهة صوب التجارة وتفاصيلها.

من المهم جدا الاستعانة بالآيات القرآنية المباركة التي تكفلت بنقل صورة واضحة لتصورهم الكوني، والمستوى العقلي الذي بلغوه في جاهليتهم، لما تمثله هذه الآيات من قيمة عالية جداً من المصداقية والدقة. فعلى مستوى العبادة، اشركوا بالله تبارك وتعالى وذهبوا في سبيل ذلك اقصى درجات الانحطاط من خلال ما اتخذوه من معبودات، كما يصفهم الباري عز وجل ((وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)) ([1]).

واما تصورهم للمعاد ونهاية الحياة الدنيا فلم يتضمن تلك المعرفة القائمة على عودة الانسان الى الحياة في عالم آخر للحساب والجزاء، لان تصورهم كان قاصراً عن فهم المعاد ومعناه، فتصوروا ان حدود حياة الانسان تنتهي بموته، اذ يبين الله تبارك وتعالى هذا الامر بقوله ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)) ([2]).

واما عن الممارسات الفاسدة التي فضحهم فيها القرآن الكريم، كشغفهم ومعاقرتهم للخمر ومزاولتهم الميسر، فضلاً عن ثلاثة عشر لوناً اخر من الوان الفساد والتي ذكرت في القرآن ومنها الزنا، اللواط، القذف، اكراه الفتيات على البغاء، وظاهرة وأد البنات وغيرها.

واما عن تصورهم للملائكة، فقد اعتقدوا ان الملائكة من الاناث وهن بنات الله، وقد اشار القرآن الكريم لتصورهم هذا في قوله تعالى ((فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ

1- الآية (100) سورة الانعام.

2- الآيتين (8-7) سورة سبأ.

الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ.أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ.أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ.وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ.مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)) ([1]).

وبعد كل ماذكرناه وهو موجز لما نقله القرآن الكريم للمفاسد الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لاهل مكة ومايحيط بها عند ظهور الاسلام. وهو مايُعد بمثابة الدليل الصريح على ان العرب انذاك لم يكونوا مؤهلين ومستعدين لقبول تلك المؤثرات والتفاعل معها. فكيف لقومٍ لايمتلكون مقدمات المعرفة، وغير آبهين بها حتى انهم لا يقرأون ولا يكتبون، ينطبق عليهم هذا الوصف الذي جاء على لسان المستشرق وات :" الاعتبارات العامة ودراسة القرآن تظهر بان هناك مزيج من الافكار في الجزيرة العربية من مصادر مختلفة، قد تكون بلا شك من النظرة الكونية للاجيال السامية السابقة والتي كانت اساساً مستندة الى النظريات الكونية للعهد القديم وقد اضيف الى ذلك اليهود والاغريق والمسيحية وزرادشتية الفرس. ان الافكار هذه موجودة بدرجات متفاوتة في عقول الذين توجه لهم القرآن وعاصروا محمد " . ثم أتبعه بالتأكيد على ان القرآن احتوى على تلك المؤثرات وكأنهُ يحدد لنا احد المصادر التي ساهمت بوضع القرآن، ويذكرنا بتلك الفَّرية الاستشراقية القديمة جداً التي قامت على ارجاع القرآن الكريم الى مصادر يهودية ومسيحية ([2])، وليس ادل على ذلك من قوله :" لقد كُتب الكثير عن افكار اليهود والمسيحيين التي ذكرت في القرآن والتي تعتبر كافية للاصرار على ان بعض الافكار الكونية التي جاءت من اليهودية والمسيحية والزرادشتية كانت مألوفة لدى العرب قبل الاسلام ".

خلال هذا المبحث وجدنا وات يطرح عدة مسائل، ولم يقف عليها بوضوح ولم

1- الآيات (149 - 154) سورة الصافات.

2- ينظر: الغزالي، القرآن الكريم، ص ص 96 - 99.

يستوفها بالكامل، وانما تبقى مدرجة ضمن الفكرة العامة للمبحث نفسه، والقائمة على ان المنظومة الفكرية للعرب قبل الاسلام كانت تحتوي على المؤثرات اليهودية والمسيحية، وهكذا فان ما تضمنه القرآن الكريم وفق رؤية وات يعود الى تلك المؤثرات وعلى هذا الاساس تظهر تلميحاته حول كلمتي نبي ورسول واستخدام المسلمين لهما، وكذلك فكرة الخير والشر وحرية الانسان في الاختيار من عدمها والعلاقة مع الله سبحانه وتعالى.

ان من طبيعة الشرائع السماوية ان تتشابه في فهم المبادئ والوسائل والادوات، لان منبعها واحد هو الله تبارك وتعالى، ولايمكن مسايرة ماطرحه المستشرقون من فكرة انتقال المؤثرات لتصبح الجزء الاهم في بلورة الشريعة الاسلامية، فالاعتقاد بوجود المؤثرات، والاصرار على ان لها دور في بلورة الفكر العربي ابان ظهور الاسلام، يضعنا امام تساؤل منطقي جداً لماذا لم يعتنق العرب في جاهليتهم اليهودية او النصرانية ما دام لتلك المؤثرات القدرة والاثر الواضح على العقلية العربية ؟

ان التشابه الموجود بين ماجاء به الاسلام، وبين ما احتوته الشرائع السابقة، انما هو من باب وحدة الشرائع السماوية في مرجعيتها، التي يصدق وصفها بالدين الواحد، فما خصه الله تبارك وتعالى للشرائع السابقة لايختلف ولايتقاطع مع ما خصه للشريعة الاسلامية. الا ان الفارق بينهم ان تلك الشرائع قد حرفت، وان شريعة الاسلام حُفظت بارادة الله تعالى وامره. ان ماجاء به الاسلام وادى الى احدث ذلك الاثر الايجابية الكبير في عقلية العربي انما يحسب للاسلام دون غيره. ان فهم العربي لكلمتي (النبي) و(الرسول) اتى من القرآن بدون ادنى شك، ولم يأتي من تلك المؤثرات التي يشير اليها وات، والاختلاف بين علماء المسلمين في مسألة تحديد الفرق بين كلمتي النبي و الرسول منشأهُ الاختلاف في فهم ماورد في الآيات القرآنية من ذكرٍ لهما، ومن دون الحاجة الى استعراض تلك الاراء التي وردت في كتب المسلمين سنكتفي بذكر

رأي السيد كمال الحيدري ([1])، الذي أراه من الاراء السديدة المعتبرة التي تستحق ان يؤخذ بها، اذ لا يفرق السيد الجليل بين المفردتين، ويرى بان كل نبي هو رسول، وكل رسول هو نبي، وقد انطبق هذا الوصف على كل من نوح وابراهيم وموسى وعيسى وخاتم الانبياء والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، فكل منهم في شخصيته بعدان : البعد الاول من خلاله بتلقى الوحي الالهي. والبعد الثاني حينما يؤمر بابلاغ ما تلقاه، وعليه فان البعد الاول النبوة، والبعد الثاني هو الرسالة. فالفرق اذن يكون من خلال البعدين، ومستوى البعد الثاني، ولعلنا نزيد بالقول هنا من خلال تساؤل منطقي، ما الحكمة من ان ينبأ الله تعالى الرجل حتى يكون نبياً ؟ هل ينبأ لاجل نفسه ام لاجل الناس، فاذا كان ذلك لاجل الناس تحقق حينئذ البعد الثاني وهو الرسالة فاصبح نبي ورسول في انٍ واحد.

3 ـ التصورات التاريخية

هنا في هذا المبحث أراد وات ان يُسقط ما اسقطه في المبحث السابق من القول بوجود المؤثرات الفكرية، فجعل من الجانب التاريخي الذي احتواه القرآن الكريم يدين بالفضل كذلك لذات المؤثرات التي اشار لها سابقاً .

في الواقع غاب عنه وعن غيره مسألة غاية في الاهمية على مستوى المعرفة، تتضح بسهولة من خلال جملة التساؤلات الاتية : في العلاقة مابين معرفة العرب التاريخية قبل الاسلام من جهة وبين الجانب التاريخي الذي احتواه القرآن الكريم نسأل : من اضاف الى من ؟ ومن كان بحاجة الى المعرفة التاريخية ؟ ثم كيف لنا ان نضع المعرفة العقلية المتواضعة لدى العرب في قبال الحقائق والمعارف المتكاملة الواردة في القرآن الكريم ! ان مجمل الحقائق والمعارف بمختلف اصنافها التي اصبحت مفهومة ومعلومة لدى العرب بعد

1- ينظر : الحيدري، كمال، محاضرة له حول الفرق بين كلمتي النبي والرسول من خلال الرابط الالكتروني على شبكة الانترنت : https://www.youtube.com/watch?v=Fr8q2Zz45M0

ظهور الاسلام انما مصدرها القرآن الكريم، ومن رجع الى القرآن واعتمد عليه في تحصيل العلوم والمعارف ليس بحاجة الى النظر في موروث الجاهلية لانه لا يمثل شئ امام تلك الحقائق الناصعة المستحصلة من كتاب الله العزيز. فضلاً عن انهم لم يمتلكوا في الجاهلية المعرفة التاريخية اطلاقاً، واما قول وات :" لقد تعامل القرآن مع اختفاء قبائل سالفة كحقائق معروفة للمكيين وفسروها على ان ذلك حصل نتيجة لغضب الله لعدم طاعتهم له ". فهذا تزوير واضح وانتقاص من القيمة العظيمة للقرآن الكريم، ولا نحتاج الى جهد كبير لاثبات بطلان هذا الكلام.

لو سألنا علماء التاريخ هل لديكم احداثاً تاريخية وقعت في شبه جزيرة العرب ايام الجاهلية ولم يذكرها القرآن الكريم ؟ يقيناً اننا لا نجد هكذا ذكر لاحداث تاريخية مهمة لم يرد ذكرها في القرآن الكريم وبالتالي فان اقتصار معرفتنا التاريخية اليوم بالاحداث المهمة التي ذكرها القرآن هو الدليل على ان العرب في الجاهلية لم تكن لديهم اية معرفة تاريخية، الا في حدود التواريخ المعاصرة القريبة من عهد الاسلام، اما تلك الاحداث البعيدة زمنياً، اعتقد انها عرفت من خلال الاشارات القرآنية الاستثنائية لها التي تبعتها بعد ذلك جهود قسم من علماء المسلمين في التقصي والبحث لفهم تفاصيل تلك الاشارات .

اما اشارته للاحداث التاريخية الهامة والتي من الممكن تصنيفها ضمن التاريخ المحلي كأنهيار سد مأرب، وحملة ابرهة الحبشي وفيلته على بيت الله في مكة، فانني اعتقد ان الذاكرة العربية لم تجد ان هنالك اهمية لحفظ هذه الاحداث التاريخية قبل ان ياتي القرآن ويسلط الضوء عليها، ببساطة العرب في جاهليتهم لم يعتنوا بتاريخهم العام ولم يعملوا على حفظه، وتلك القرون العديدة من ايامهم كانت حافلة بالاحداث ولكنها لم تنقل ولم تحفظ، ولا نعلم عنها الا الشيء القليل، وهذا يؤشر انه لا قيمة للتاريخ لديهم. وبالتالي فان الذاكرة العربية في ايام جاهليتهم لم تحتوي على الافكار التاريخية التي اشار لها وات.

فعلى سبيل المثال السيل العرم الذي ضرب بلاد اليمن، وهو من الاحداث التاريخية غير البعيدة عن انطلاق الدعوة الاسلامية، ولكن احداثه لم تصبح واضحة ومؤثرة في

عقلية العربي، الا بعد ان اشار له القرآن الكريم رغم انها كانت اشارة للعبرة والتحذير. فمما يروى : ان ارض سبأ انما كانت من اخصب اراضي اليمن واثراها، غير ان السيل كثيراً ما كان يغرق هذه الارض ويقال انه في عهد الملكة بلقيس، او في عهد غيرها من الملوك تم غلق ما بين الجبلين بالصخر والقار وحبست المياه من وراء السد، وجعلت له ابواب بعضها فوق بعض، ورتبت هذه المياه الخارجة من السد لتصب في اثنا عشر مخرجاً على عدة انهار لتتم الاستفادة من هذه المياه بالتساوي بين الناس ([1]).

هذا التنظيم في توزيع المياه زاد من بلاد اليمن ازدهاراً ورخاءاً وحياة هادئة، وانعكس ذلك على قوة البلاد ووحدة كلمة ابناءها حتى اصبحت تفوق كل البلدان انذاك. ولكن اِعراض اهل اليمن عن شكر الله تعالى لنعمه عليهم وانغماس ملوكهم في الترف والملذات واللهو والشهوات، رغم ان الله تعالى قد بعث اليهم بثلاثة من انبيائه ودعوهم الى الله وذكروهم بنعمة الله تعالى عليهم وانذروهم عقابه، فاعرضوا وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمه، فكان نتيجة ذلك كله ان سلط الله عليهم سيل العرم، فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس ([2]).

مايهمنا هنا بغض النظر عن تفاصيل انهيار سد مارب، هو زمن تصدع وتهدم السد، فبعض الباحثين يشير الى ان التهدم الذي ورد في القرآن الكريم انما وقع فيما بين عامي 542م، 570م، وعلى اثر ذلك ترك الناس مزارعهم واضطروا الى الهجرة منها، لكن هذا التاريخ القريب جدا من عصر ظهور الاسلام، وبالتالي فاحداثه ستكون معروفة وغير مختلف عليها بدرجة عالية، ولكن بعض الروايات تشير الى انه يعود زمنياً الى ما قبل الاسلام باربعة قرون اي في القرن الثالث الميلادي انهار السد وهُجِّرة القبائل، ولهذا فان كلمة الفصل في ذلك لا يمكن نطقها بسهولة في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا .

1- ينظر : مهران، بلاد العرب ، ص 314.

2- مهران، بلاد العرب، ص314 - 315.

4 ـ عالمية الدعوة الاسلامية

الحديث حول اشارة وات من خلال قوله :" لقد تم ابلاغ محمد في الآيات الاولى ان يقول ذلك وبأن مهمته هي التحذير وبأن لا طموح سياسي لديه " هذا الطرح في غاية الاهمية والخطورة، ثم يقول في مكان اخر :" وبعد الهجرة الى المدينة توسع مفهوم كلمة الرسول وهي المسمى المعروف لمحمد باعتباره متلقي الرسالة بالاضافة الى تسلمه رسائل الله فانه اصبح مسؤولاً عن ادارة المسلمين طبقاً لتلك الرسائل، وبهذا فقد اصبح للرسول دور سياسي.

الحديث هنا عن حدود الادوار التي كان النبي محمد (ﷺ) يؤديها في اشارة وات الى ان دوره في البداية كان محصوراً بالتحذير والانذار، ولم يكن قد تعدى أي دور سياسي كما انه لم يكن لديه اي طموح سياسي بمعنى انه لم يفكر في ان يقوم باي دور سياسي، وهذا مايفترضه وات من انه كان اعتقاداً واضحاً في ذهن النبي (ﷺ) في وقتها، ولكن بعد الهجرة فان هذه الادوار البسيطة التي افترضها وات بانها محصورة فقط بالتبليغ تطورت الى مستويات وادوار اكثر سعة شملت ادارة شؤون المسلمين وممارسة الادوار السياسية التي لم تكن واضحة منذ البدء.

هذا الكلام حقيقة ينم عن محاولة واضحة يقوم بها وات لتعزيز الفكرة التي يعمل عليها وهي ان الدين الاسلامي هو دين خاص بالعرب وبالبيئة العربية، وبعد ان تمكن من فرض نفسه في المنطقة العربية والبيئة العربية اخذ يتطلع نحو العالمية، وهكذا تقوم فكرته على ان النبي (ﷺ) كان يظن ويعتقد ان ادواره محدوده ولا تتجاوز حالة التبليغ والتحذير والانذار لاهل مكة، ولكنه بعد الهجرة تطورت ادواره واضيفت ادوار جديدة كان في مقدمتها الادوار السياسية .

في الواقع هذا الكلام غير سليم لاننا لا نتحدث عن شخص عادي يتصرف او يمارس ادواره الحياتية وفقاً للمتغيرات والظروف الطارئة، نحن نتحدث عن نبي ارسله الله تبارك وتعالى برسالة سماوية لاجل ان يؤدي وظائف وادوار محددة. كيف لنا اذن ان نتصور

ان الانبياء لايعلمون ولايعرفون مقدار وحدود الادوار المراد منهم القيام بها، والاعمال المناطة بهم من قبل الخالق، الا بعد ان تجري بهم رياح المتغيرات والظروف. لقد كان النبي محمد (ﷺ) على علم تام ودراية كاملة بحجم الادوار الموكله له، كان على علم ودراية ماذا يعمل، وكيف يعمل، والى اي حدٍ ممكن ان يصل في عمله، ولهذا فان الادوار السياسية التي قام بها (ﷺ) كانت معلومة ومفهومة في توقيتاتها ونتائجها بالنسبة له. ان الظروف التي احاطت بالنبي محمد (ﷺ) واصحابه في مكة ومن ثم في المدينة لم تكن على مستوى واحد، ومن الطبيعي ان لا تتساوى الادوار السياسية التي لعبها رسول الله (ﷺ) بين ادواه وهو في مكة، وبين ادواره وهو في المدينة. لقد كان المسلمون في مكة ثلة قليلة مستضعفة في مقابل قوة كبيرة من المشركين في العدد والامكانيات، ولكن مع ذلك لم يختفي الدور السياسي اطلاقاً عن المرحلة الاولى من الدعوة من خلال توجيهه المسلمين باتجاه الهجرة نحو الحبشة، او لقاءه (ﷺ) بزعماء القبائل الوافدة على مكة وعرضه الدعوة عليهم، والاتفاق مع الاوس والخزرج وتوجيه المسلمين الى الهجرة صوب المدينة، كل تلك الاعمال التي قام بها رسول الله (ﷺ) هي ادوار سياسية هامة تصدى لها رسول الله (ﷺ) في سنوات الدعوة الاولى لتوجيه حركة المسلمين الموجودين داخل مكة، توجيه هذه الحركة باتجاه الهجرة او باتجاه المقاومة او باتجاهات اخرى ويقيناً انه توجيه مرتبط بارادة الله تعالى. ولكن الادوار السياسية التي قام بها في المرحلة الثانية من الدعوة وهو في المدينة كان لها اثار ايجابية كبيرة انعكس على مستقبل الدعوة الاسلامية وانتشارها، ويقيناً ان نتائجها كانت معلومة عند النبي (ﷺ).

لازلنا نؤكد على ان المستشرق وات سعى جاهداً لاثبات محلية القرآن ومحلية الدين الاسلامي، وحصره بالبيئة العربية، ونصهُ الصريح في نهاية المبحث يؤكد نواياه حيث قال فيه :" هذا الدين جاء ليلائم البيئة المكية والبيئات المحيطة بها ". هذه الاشارات والايحاءات تكررت في هذا المبحث ففي مكان آخر، وحول الآية (3) من سورة

قريش قوله تعالى ((فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)) يعلق عليها قائلاً :" يبدو ان الله تعالى يأمل من هذه الآية بان الذين يعبدون الصنم الاكبر مع بقية الاصنام الصغرى سيرون في القرآن انه يقدم نموذج مشابه لما امنوا به من قبل ".

ان عملية تعظيم وتقديس البيت الحرام في مكة، لم تكن وليدة دعوة النبي محمد (ﷺ) انما تعظيم البيت الحرام هو قديم وقدمه مرتبط بتاريخ البيت الحرام الذي يعود الى نبي الله ابراهيم (ع)، وليس من شان الله تعالى ولا من اسلوب القرآن الكريم ولا من منهج الدعوة الاسلامية ان يعمل هكذا لكسب اهل مكة، فتقديس الكعبة بيت الله الحرام لم يكن من اجل كسبهم الى جانب الدعوة، لان التقديس والتعظيم هو قديم قبل ان تُعبد الاصنام والاوثان في مكة، وقلنا ان ذلك يعود الى عهد نبي الله ابراهيم (ع).

اذن التعظيم هنا ليس له اي رابط او علاقة بموقف اهل مكة من الدعوة، انما هذا قديم وثابت وصريح. الله تبارك وتعالى لا يجامل ولا يراوغ ولا يخادع، جل شانه وتعالى صريح وواضح في كتابه، في آياته، في كلامه الموجود في القران الكريم، فالمنهج الالهي واضح من خلال ذلك، حتى ان سُنة المصطفى محمد (ﷺ) هي انعكاس لارادة الله تعالى ومنهجه، وليس في ذلك مجاملة ولا مراوغة ولا مخادعة لكسب وَّد اهل مكة حتى يقفوا الى جانب الدعوة.

بعدها نصل الى النتيجة التي ارادها وات والتي يقول في شأنها في نهاية مبحثه :" ان هذا البحث في العلاقة بين القرآن وعلاقته بالبيئة العربية (المحيطة بمكة) يوضح بان رسالة الاسلام كانت تلائم حاجات القوم الذين عاش معهم محمد وهو ليس مجرد تكرار للاديان القديمة الاخرى كاليهودية والمسيحية، وانما هذا الدين جاء ليلائم حاجات القوم. وعبارة (حاجات القوم) هنا نوع من انوع التطور في بناء تصور استشراقي جديد للدين الاسلامي، وكأن المستشرق وات هنا يحاول اخراج نفسه من الفكرة الاستشراقية القديمة التي طالما اكد عليها المستشرقون السابقون له من ان الاسلام هو تكرار

واقتباس للاديان السماوية السابقة لهُ وتحديداً اليهودية والمسيحية ([1])، هنا هو نفى ذلك واكد على ان الاسلام ليس اقتباس او تكرار لتلك الاديان، وانما الاسلام جاء ليلائم البيئة المكية او البيئة العربية المحيطة بمكة، وهذا بطبيعة الحال متغير جديد في التصور الاستشراقي طرحهُ وات.

قد يعتقد البعض ان هذا المتغير يمثل حاله من الموضوعية التي يطلقها المستشرقون على انفسهم في موضوعات الاسلام، ولكنني اعتقد ان هذه المتغيرات في التصور الاستشراقي القائم على نفي فكرة الاستقاء والتأكيد على ان الاسلام جاء ليلائم البيئة العربية، انما يراد منها دفع فكرة عالمية الاسلام وانه دين خاص بالبيئة العربية حصراً بمعنى ان حدود هذا الدين لا تتجاوز شبه الجزيرة العربية او المنطقة العربية. وهذه الفكرة هي اكثر ملائمة للتطورات والمتغيرات الاجتماعية المعاصرة، وبالامكان ان يعتمد عليها الغرب لمواجهة المد الاسلامي والانتشار الاسلامي الذي بات يهدد الوجود المسيحي في عقر داره.

1- الغزالي، القرآن الكريم، ص ص99-96.

الفصل الثالث : "الخبر في المحتوى القرآني"

1 - " علاقته بالحالة المعاصرة"

2 - " تفسير الاحداث المعاصرة"

3 - " ادعاء القرآن الحداثة"

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثالث

1 ـ الخبر في المحتوى القرآني

2 - تفسير الاحداث المعاصرة الواردة في القرآن

3 - القرآن واحداث المستقبل

1 ـ علاقته بالحالة المعاصرة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

كان من اللياقة في بداية القرن العشرين تقديم القرآن كمختارات لأفكار من اليهودية والمسيحية مع تميز بسيط وليس كشيء جدي او أصيل. ان هذه النظرة كانت باقية من الدعاية الحربية لفترة الحروب الصليبية عندما كانت أوروبا الغربية خائفة من الجيوش الإسلامية والتي كان عليها تزوير صورة الإسلام ([1])... على افتراض أن محمد قد اعلن دعوته من فراغ. وعندما يتم النظر الى الكتابين المقدسين بمحتواهما التاريخي ستأخذ القضية بعدا مختلفا معقدا. ان نبي العهد القديم لم يتحدث من فراغ عقلي أكثر مما فعل محمد، هو تحدث إلى أناس كانت الرسالة مألوفة لهم من أنبياء سابقين مع شيء من تاريخ شعوبهم التي وجهت لهم... بالنسبة لمحمد في مكة حاولت أن اظهر كيف أن الرسالة بما فيها من آيات للقرآن كانت متكيفة مع الحالة في مكة عندما بدأ محمد رسالته هناك ([2]) :

اولاً: سيكون مفيدا هنا ان أُلخّص الجدل الذي كان موجودا آنذاك بشيء من التفصيل. اختيرت بعض السور التي نزلت في بداية الدعوة بحيث لم تذكر فيها الخصومة إلى محمد لا صراحةً ولا تلميحاً. ركزت تلك السور كما يبدو على خمسة نقاط رئيسة وهي:

(1) أللّه قوي وخيّر.

(2) الناس سيحاسبون امام الله في يوم القيامة من اجل ان يذهبوا الى الجنة او النار طبقا لأعمالهم.

1- للمزيد حول صورة الاسلام عند الغرب خلال تلك العصور. ينظر:

Southern, R.W, Western Views of Islam in the middle ages، Harvared, 1962, pp 14-25.

2- Watt,Islamic revelation, p44.

(3) على الناس ان يعبدوا الله ويشكرونه.
(4)على الناس ان يكونوا كرماء بما ملكوا من ثروة .
(5) لقد ارسل محمد كنذير يبلغ رسالة الله الى قومه ([1]).

إن النقاط الأربع الأولى مستنبطة من اليهودية والمسيحية مع اختلاف التركيز. على سبيل المثال لم تكن الأديان القديمة تعير اهتماما كبيرا لموضوع كرم الأثرياء. إن محور الدين الجديد هو النقطة الخامسة ([2]).

حتى الإطار التاريخي للأفكار الأخرى عند تفحصها يمكن أن ينظر لها على انها مرتبطة بمكة في ذلك الزمن. كانت مكة مركزا تجاريا وكانت قوافلها التجارية تذهب الى اماكن بعيدة مثل دمشق في الشمال واليمن في الجنوب وكان للمؤسسات التجارية تشعبات واسعة. كان التجار الكبار هم الأغنياء ويؤمنون بأن أي شيء لا بد ان يتحقق بالمال والتخطيط إضافة إلى ذلك فإنهم كانوا منهمكين في جمع الأموال الذي انساهم التقاليد العربية فاهملوا رعاية الفقراء في قبيلتهم. لقد حصل انهيار في أخلاقيات تقاليد الصحراء التي تؤكد على الفضائل الأساسية في حياة المجتمع. وكل ما بقي من اخلاقيات تقاليد الصحراء هو جوانب من (قانون الانتقام) .

ان النقاط الخمس التي ذكرناها كانت لها علاقة بهذه الحالة. من أجل مواجهة وجهات النظر الخاصة بقوة الانسان والتي فشلت بالاعتراف بمحدوديتها. لقد تم دعوة البشر للاعتراف بقوة الله، والى حمده وشكره وعبادته، ولغرض مواجهة الانهيار في اخلاقيات التقاليد وفشل تلك التقاليد في التعامل في هذه المسائل فقد تم التأكيد على ان مصير الانسان مرتبط بحساب يوم القيامة والذي يستند إلى عمل الإنسان نفسه. لذا فقد كان الانضباط الاخلاقي قد تم تقديمه لملائمة النظرة الفردية للتجار الكبار. ولغرض محاربة سياسة الأيادي المغلقة على ثرواتهم واهمالهم للفقراء من قبائلهم فقد تم التأكيد على

1- Watt,Islamic revelation, p44-45.

2- Ibid, p45.

ان من الأسئلة المهمة يوم القيامة فيما اذا كان الانسان بخيلا أو كريما في ثروته. وهكذا فبالنسبة الى النقاط الاربعة الاولى وحتى اذا كان القرآن يعرض افكارا قديمة، لكنه اختار واكد على الجوانب التي كان لها علاقة خاصة بمكة في القرن السابع ([1]).

النقطة الخامسة والتي تقول بأن محمد قد ارسل كنذير إلى قومه فإنها في جزء منها تؤكد على التطبيق الخاص بيئة رسالة محمد. ان القرآن نفسه يعترف بان رسالته في الاساس هي لإعادة نفس الرسائل التوحيدية التي نزلت في الماضي واستجاب الناس لها، ولكن هذه الرسالة قد أوحيت حديثا الى محمد. ومع ذلك فان فكرة الوحي التي تطورت في القران جاءت بعدة امور أصلية. فقد ورد بشكل واضح إعلان أن المخطئين وغير المؤمنين سوف ينالون عقابا في الدنيا والآخرة. لقد تم إبلاغ محمد في الآيات الأولى أن يقول ذلك وبان مهمته هي التحذير وبان لا طموح سياسي لديه، وبعد الهجرة الى المدينة فقد توسع مفهوم كلمة الرسول وهي المسمى المعروف لمحمد باعتباره متلقي الرسالة. فبالإضافة إلى تسلمه للرسائل الالهية فانه اصبح مسؤولا عن ادارة شؤون المسلمين. وبهذا فقد أصبح للرسول دور سياسي اضافي. لقد كان لأنبياء العهد القديم دور سياسي أيضا ولكن " رسول الله"كان له مسؤوليات اعظم واكبر ([2]).

عند النظر الى الآيات الأولى من القرآن ومقارنتها بالآيات الأخيرة منه فان من الواضح ان العديد منها والتي تناولت تنظيم حياة المجتمع الاسلامي في المدينة هي أحكام أصلية، فقد نما المجتمع الاسلامي وتطور بالتدريج وبشكل رئيسي باتباع نفس الاستعمالات العربية الموجودة حتى في الافكار المثالية التي قيل أنها وجهت عملية التكيف فقد كانت بنكهة عربية.ليس من الضروري فحص هذه الامور بصورة تفصيلية مطولة. الأمر المهم هو النظر في تطور السلوك ألقرآني لأديان العرب ما قبل الاسلام.

من الجدير بالذكر بان الأيام الأولى من نزول القرآن لم يكن هناك هجوم على أي

1- Watt,Islamic revelation, p45-46.

2- Ibid, p46.

دين فجميع النقاط الخمس التي اشرنا لها كانت ايجابية ما عدا العقوبة للبخلاء او لأولئك الذين لا يؤمنون بالله في يوم القيامة، فقد أمر القرآن أهل مكة بعبادة رب الكعبة (السورة 106 ألآية 3) ([1]) يبدو أن هذه الآية تأمل بان الذين يعبدون الصنم الأكبر مع بقية الاصنام الصغرى سيرون في القرآن تقديم نموذج مشابه لما امنوا به من قبل... الذي جرى هجوم القرآن على الذين يؤمنون بآلهة متعددة في ذلك الوقت. ومعتقداتهم هذه ظهرت في مواجهة دين محمد كخصوم، لقد جاء الاسلام للتأكيد على فكرة ان الله واحد ولا يوجد اله غيره ليُعبد ([2]).

في وصف هذه الحالة سيكون من غير الممكن تجنب... القول طبقا للشكل المعتمد في هذه الدراسة بأن القرآن قد بدّل اتجاهاته او نهجه. يجب التأكيد هنا بأن هذه ليست خدعة لفظية نتجنب بها القول بأن محمد قد غيّر من سياسته... يرى المراقب بأن هذه القوة وهي توجيه المجتمع نحو ظروف مُرضية وطبيعي ان تكتشف الطريق الى أمام وهو بناء قانون جديد للمجتمع بشكل معدل يتواءم مع المعتقدات الجديدة، ومن أجل إضعاف هذه القوى والسماح بمواصلة الاصلاح الاجتماعي لا بد من التمييز بين مناصري الإسلام وأولئك الذين يريدون الابقاء على الوضع الراهن، فالقوى الاجتماعية التي تدعم الاصلاح اوجدت هذا المعيار وفقا للنهج الجديد الذي يهاجم المعتقدات القديمة رغم مرارة الهجوم على الأصنام فان كثيرا من معالم الدين القديم تم استيعابه بالإسلام. لقد جاءت المفاهيم المشتركة في المسيحية واليهودية لتأخذ شكلا عربيا متميزا في القرآن. لم يكن هناك تأكيد على خلق الله للكون او الانسان في الماضي البعيد او على سيطرته الكاملة على الأنشطة الكونية في ذلك الوقت. ومع انه هو الرحمن الرحيم، فهو جاء مع بعض الغموض الذي يعود الى زمن العرب ما قبل الاسلام. هناك آيات عديدة حول سيطرة الله على عملية خلق الانسان... وهكذا فان في رفض القران للوثنية عند العرب وقبولهم الضمني

1- قوله تعالى ((فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)) الآية (3) سورة قريش.

2- Watt,Islamic revelation, p46-47.

لمظاهر الديانة السائدة في الجزيرة العربية آنذاك، ومع هذا لا يجد المرء شيئا مستنبطا من الديانة اليهودية والمسيحية يمكن الركون اليه واعتباره اصيلا ([1]).

ان هذه العلاقة بين الإسلام ودين العرب القدماء تتوازى مع العلاقة بين ديانة العهد القديم والدين الكنعاني. فقد كان هناك رفض قاطع لمسالة الشرك. في نفس الوقت فان ظاهرة التضحية بذبح الحيوانات تعود الى الديانة الكنعانية التي ارتبطت بمعتقدات ذلك الدين، لكننا نجدها أخذت مكانة مهمة في عبادة بني اسرائيل. وبقدر ما كانت المسيحية هي استكمال للعهد القديم فان ظاهرة التضحية أصبحت مركزية على اساس ان صلب المسيح اعتبر من قبله ومن قبل اتباعه على انه فداء، فهذا التوازي بين الاسلام والعهد القديم لم يحصل بالصدفة ولكنه أمر ضمني في الايمان بالله الواحد.

ان هذا البحث في العلاقة بين القرآن وقوم مكة والبيئة العربية يوضح بان رسالة الاسلام كانت تلائم حاجات القوم الذين يعيش معهم محمد وهو ليس مجرد تكرار للأديان القديمة الأخرى... وربما في ضوء انتشار الاسلام لاحقا فان من الافضل القول ان تلك الرسالة المخصصة الى القوم في مكة والمدينة قد شكلت اول جوانب العالمية لها ([2]).

2. تفسير الأحداث المعاصرة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

إن أحد وظائف القادة الدينيين من صنف الأنبياء عليه ان يظهر لقومه كيف ان مصيرهم مثبت وفق الأحداث التي تحصل لهم، وكيف ان أحداث أخرى معينة سيبدو انها ستدمر ايمانهم والتي يتطلب تفسيرها بطريقة او بأخرى... ([3]).

لقد ابتهج المسلمون كثيرا بانتصارهم في معركة بدر ولكنهم اكتئبوا بعد معركة

1- Watt,Islamic revelation, p47-48.

2- Ibid, p48.

3- Ibid, p49.

احد... كانت المشكلة في ان المكيين اعتبروا انتصار بدر كدليل على ان الله قاتل معهم والذي اصبح اساسا لثقتهم العالية بأنفسهم. وبعد بدر بدأوا يشكون في ان الله يقاتل لأجلهم وبدأت ثقتهم بالانحسار. عالج القرآن موضوع فقدان الثقة بان العكس هو الصحيح ليس لان الله قد تغيّر من ناحيته بل بسبب عدم طاعة الرماة الذين تركوا مواقعهم لانهم كانوا يتوقون للحصول على الغنائم. لقد كان هذا التفسير للهزيمة وصمود محمد في الازمة بمرور الزمن هو الذي اعاد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ([1]).

كان القرآن يعطي تفسيرا للأحداث المعاصرة. ففي الفترة المكية كان القران يرجع ازدهار تجارة أهل مكة الى الله. ان تفسير القرآن للأحداث القديمة مثل حملة الفيل والقصص عن تدمير أقوام مختلفة كان قد نقلها القرآن لهم لأول مرّة ولكن يمكن تصور بأن لأحداث معاصرة شبيهة عندالعرب. كان المسلمون، طيلة الفترة المكية، على علم بوجود معارضين لدينهم مما يدفعهم للتساؤل عن سبب هذه المعارضة ؟ فاذا كان محمد مرسل من الله فان عليه ان يواجه هؤلاء المعارضين. فلقد أكد القرآن في عَّدة مواضع انه لامرٌ مألوف ان يكون هنالك معارضين مشيرا الى كثير من القصص الانجيلية والعربية وفي كل تلك القصص فان الرسول سينجو رغم ان قومه سيدمرون بالكامل. على هذه الخلفية يمكن توقع ان القرآن قد فسّر الانتصار في معركة بدر على انه عقاب للمكيين لعدم ايمانهم بالرسالة وانتقام لمحمد منهم كونه الرسول ([2]).

جانب أخر للحالات المعاصرة والتي كان فيها تفسير القرآن مهماً هو العلاقة بين المسلمين والمجتمعات الموجودة من اليهود والنصارى والذين كانوا على اتصال معهم. احداها كانت اعتراف الاسلام للهوية الاساسية لرسالة اليهودية والمسيحية. والجانب الأخر هو انتقاد المسيحية واليهودية للقرآن ولمحمد. وعلى قدر ما كان المسلم يتفهم ذلك النقد فانهم كانوا يحاولون ان يجعلوه يشك بحقيقة محمد والقرآن. لقد كان سلوك اليهود يشكل تهديدا

1- Watt,Islamic revelation, p50.

2- Ibid, p50-51.

جديا للمجتمع السلامي المتنامي. جاءت صعوبات المسيحيين بشكل رئيسي عندما اقتربت نهاية حياة محمد حيث توجهت القبائل المسيحية باتجاه الشمال نحو سورية ([1]).

وردت واحدة من النقاط في تفسير القرآن لهذه الحالة وكانت هي أن اليهود عارضوا محمد وانتقدوه لأنهم حرّفوا الشكل الأصيل لدينهم ونفس الشيء ينسحب على المسيحيين. لم يكن مستغربا انهم رفضوا القرآن لا سيما وانه كرر نفس الدين والذي عرّف بانه دين ابراهيم والذي أصر على انه ليس يهودي او مسيحي. النقطة الأخيرة كانت صحيحة حيث ان اليهودي يمكن ان يعرف بأنه من سلالة يعقوب(ويدعى أيضا إسرائيل) أو انه من المتمسكين بالمجتمع الديني على اساس وحي النبي موسى، ويعقوب هما من سلالة ابراهيم. فقد ربط القرآن ابراهيم و اسماعيل بمكة ولكنه لم يشر ابدا الى ان أي من العرب هو من سلالة اسماعيل، وقد اعترف المسلمون لاحقا بأنساب العهد القديم بهذا الشأن. كانت هناك موائمة في الادعاء بأن الاسلام هو استعادة لأصالة دين ابراهيم لهذا فقد كان المسلمون محميون من الهجوم الفكري لليهود والنصارى. وبهذا فقد تم الحفاظ على العلاقة مع الدينين. في البداية قبلت الدعوة من الأقوام التي لم تكن على علم بكتابي اليهود والمسيحية ولكن عندما تعرّف العلماء المسلمين على الانجيل وتقابلوا مع اشخاص لهم معرفة به فقد جرى دراسة نظرية (تزوير الكتابين) بتفصيل أكثر ([2]).

من كل هذا سيكون واضحا بأن التفسير القرآني للأحداث المعاصرة في ذلك الوقت لم تكن مجرد ممارسة اكاديمية وانما توجيه عملي للمسلمين في كيفية معالجة المشاكل القائمة.لم يكن التوجيه مجرد تطبيق ميكانيكي لبعض القواعد بل استجابة خلاقة للتحديات معينة، وبذلك يمكن ان يكون هناك أي شك في اصالة القران ([3]).

1- Watt,Islamic revelation,P51.

2- Ibid, p51-52.

3- Ibid, p52.

3. ادعاء القرآن الحداثة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

هناك أسباب وجيهة تدعم كون القرآن ليس مجرد تكرار لأفكار اليهودية والمسيحية ولكن فيه عناصر الحداثة والأصالة. ان وجهة نظر المسلم المألوفة للقرآن تنطوي على ادعاء اخر للحداثة والتي يجد العلماء الاوربيون صعوبة بالاعتراف بها. المسلمون يعتبرون ان البيانات الواردة في القرآن عن الماضي السحيق مثلا حول زمن الانجيل أكثر مصداقية من القصص التي اوردتها السير التاريخية. وهذ اعتراف بأن القرآن هو مصدر مستقل للمعلومات التاريخية. ان العلماء المعاصرين يرون في القرآن مصدر مهم للمعلومات حول الأحداث التي عاصرت نزوله ولكن بالنسبة للماضي السحيق فهم غير مستعدين للاعتراف بأكثر من انه يعكس الأحداث التاريخية المعاصرة في مكة. النقطة المهمة في هذا الشأن وخصوصا بالنسبة للمفسر الإسلامي المستند إلى القرآن هي أن النبي عيسى لم يمت على الصليب. ان السؤال الأول الذي يجب البحث فيه هنا هو اذا كان القرآن نفسه قد قدم هذا الادعاء او ان هذا الادعاء كان تفسيرا لما ورد في القرآن. إن البحث يبدأ بالآية (49) من السورة (11) ([1]) والتي تقرأ: ((تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)) جاءت هذه في أخر سورة نوح والتي تضمنت ان الله رفض مساعدة ابن نوح الكافر. ان الكلمات الواردة في الآية تتطلب منا الاعتقاد بانه في هذه الحالة فهذه القصة ليست مألوفة لأهل مكة وعلى اية حال فان المسألة ليست بهذه السهولة ولكن اذا اخذنا بآيتين أُخريين حيث تأتي نفس العبارة : " تلك أنباء من الغيب نوحيها إليك" هنا لا تعني ان محمدا جاهل بالقصة لكنه كان غير موجود وقت وقوعها. في قصة زكريا ومريم جاء في الآية (44) من السورة (3) ([2]) : ((ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)) ونفس

1- سورة هود.

2- سورة ال عمران.

الشيء جاء في الآية (102) السورة (12) ([1]) : ((ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)) ([2]).

لابد من الاعتراف هنا بعدم وجود صعوبة لغوية ضمنية في فهم هذه الآيات لتعني بان القرآن نقل المعلومات التاريخية الواردة فيها وهي لم تكن معروفة سابقا لأغلبية المتلقين لها ولكن يبدو ان تلك الآيات يمكن ايضا ان تفهم بطريقة مختلفة قليلا. فالسورة الأولى (3) والآيتين (4 و5) (علّم الانسان ما لا يعلم) تعني ان الله اعطى الانسان معلومات عما حدث في الماضي السحيق، وهذا يبدو انه يفسر تساؤل الناس من التراث المروي وكيف انهم بتعلمهم القراءة والكتابة ستكون لهم معرفة بقصص الماضي، ونفس التساؤل ينسحب في الآيتين المشار إليهما أنفاً والتي تشير الى كلمة (الغيب) والتي تعني أنها حصلت في وقت لم يكونوا فيها موجودين. لذا فهنالك مبرر للاعتقاد بأن الآية الأولى تؤكد على غياب المعلومات من القناة المعتادة لها وهي السيرة الشفوية المنقولة. وهذا سيترك الباب مفتوحا لإمكانية ان تكون هناك معلومات جاءت للعرب من قنوات غيرالقنوات الاعتيادية أي الكتب ([3]).

بهذا يبدو انه ليس مستحيلا ان يكون محمد قد حصل على معلومات عن هذه القصص من شخص كان قد عرفها من قراءته لكتب ما. ان وجود مثل هذا الشخص لم ينكره القرآن في رده على اتهامات بعض المكيين. كما ورد في الآية (103) من السورة (16) ([4]) : ((لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)) لقد تم التأكيد على انه لم يكن بإمكانه ان يورد نصا حقيقيا. الفكرة هنا في هذا الرد ان محمد على الرغم من انه يعرف بالقصص من قبل شخص ما

1- سورة يوسف.

2- Watt,Islamic revelation, p52-53.

3- Ibid, p53-54.

4- سورة النحل.

فان النص القرآني سيأتيه كما اتته النصوص القرآنية الأخرى وان الرسائل الواردة في القرآن كانت مألوفة لدى محمد ولكن الاساس هو الدرس المستنبط من القصة. ان هذا الراي مدعوم من الآية الأخيرة (111) من سورة (12) ([1]) : ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) ([2]).

ربما يجادل البعض بأنه طالما كان القرآن هو تأكيد على الأديان السابقة فبالتأكيد هو لا يدعي أنه أعطى معلومات فيه غير معروفة بالمرة للبشر لان مثل هذا الادعاء سيعني للبعض ان هناك اختراع لهذه القصص. ان الرأي المقترح هنا ان شكل ومحتوى القصص هي التي جاءت عن طريق الوحي ولها أساس من الصحة وانها كانت جذابة لمواءمتها للآراء المعاصرة عن الوحي.

وعلى هذا الاساس يمكن الاستنتاج بان حادثة صلب المسيح يمكن ان نطالعها باختصار. والتي ذكرت ضمن سياق سرد آثام اليهود المختلفة والتي تضمنت ايضا كما ورد في الآية (157) السورة(4) ([3]) : ((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا))، إن الأمر الأول الذي يمكن ملاحظته في هذه الآية هو أنها ليست هجوما على المسيحية وانما دفاعا عنها ضد اليهود. فاليهود يدعون بانهم قتلوا المسيح، والمسيح هو عنوان لا نعرف مدى أهميته، وهي مجرد حقيقة صريحة لكنها تتضمن ادعاء بان المسيحية شيء غير حقيقي. ان هذا هو ما يريد القرآن ان ينفيه حيث يعتبر المسيح نبي او رسول من الله. لقد أعطى القرآن تعبير لهذا الاعتقاد الذي كان له جذور عميقة في العقلية العربية في ذلك الوقت ([4]).

1- سورة يوسف.

2- Watt,Islamic revelation,p54.

3- سورة النساء.

4- Ibid, p54-55.

المسيحيون يعتقدون ان صلب المسيح هو انتصار وليس هزيمة لان ما تبعه هو قيامة المسيح وولادة الكنيسة. ان القرآن الموجه الى الأقوام التي تعتقد بعمق ان رسول الله لا يمكن ان ينتهي بهزيمة، ينكر على اليهود ادعاهم بقتل المسيح ووضعها بالشكل التالي: (ولكن شبّه لهم). ان مثل بعض المقولات المشابهة لهذه هي الطريقة الوحيدة التي تدحض ادعاء اليهود بان رسول الله يمكن ان يهزم. فسر علماء المسلمين في الزمن اللاحق هذا الادعاء بانه هرطقة حول صلب المسيح وانتصار عيسى. والتي كان معاصري محمد لم تكن لديهم معرفة كاملة بالأمر في هذه الآية من القرآن ([1]).

... وهنا يمكن ان نتساءل " من قتل عيسى" والجواب قد يكون ليس اليهود وليس الرومانيين ولكنه هو نفسه بمعنى انه قبل بموته، وبانه الارادة المسيطرة على العملية باكملها وانه ترائي لليهود بأنهم قتلوه ([2]).

1- Watt,Islamic revelation, p55-56.

2- Ibid, p56.

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثالث

1 ـ الخبر في المحتوى القرآني

من الجميل ان تجد في كتابات وات بعض الاعترافات الجريئة التي تبين حجم التشويه والتلاعب الذي مارسه الغرب خلال القرون الماضية وبشكل خاص حول الاسلام وسيرة النبي محمد (ﷺ) والقرآن الكريم.

فالاشارة الافتتاحية التي ذكر فيها ان القرآن الكريم عُد عند الغرب مختارات من الافكار اليهودية والمسيحية. وان منشأ هذه الافكار يعود الى ما خلفه الصراع المسيحي ـ الاسلامي الذي استمر لقرون طويلة، اذ كانت المحطة الابرز فيه هي الحروب الصليبية التي بدأت في (490هـ ـ 1096م) ([1])، واستمرت لقرنين من الزمن تركت خلفها اثار نفسية عميقة ولاسيما في جانب العالم المسيحي، خلفت شعوراً عدائياً متنامياً باستمرار أتجاه الديانة الاسلامية ورموزها، هذا الشعور ازداد وبلغ ذروته مع اجواء التهديد العثماني لشرق اوربا، والانتصارات الساحقة التي تحققت للمسلمين ابتداءً باسقاط القسطنطينية سنة (857هـ - 1453م) ([2])، وتحويلها الى ابرز المراكز الاسلامية، بل محطة انطلاق جيوشهم نحو مدن واراضي اوربا اذ ان سقوط القسطنطينية قد فتح الطريق للمسلمين لينساحوا في شرق اوربا. وما ان حل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي حتى وصلت الفتوحات العثمانية الاسلامية الى منتصف اوربا تقريباً،

1- ينظر: باركر، ارنست،الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لا.ت، ص25.

2- العمري، عبدالعزيز، الفتوح الاسلامية عبر العصور، دار اشبيليا، ط3، ص380.

وتمكن العثمانيون في عهد سليم الاول وسليمان القانوني من ضم بلدان اوربية عديدة الى كيان دولتهم كاليونان وألبانيا ويوغسلافيا والمجر وبلغاريا لتصبح جميعها ضمن حدود الدولة الاسلامية، كما وصلوا الى فيينا عاصمة النمسا فدفع ملكها الجزية للمسلمين ([1]).

وفي ظل تلك الاجواء المشحونة تشكلت صورة قاتمة عن الاسلام واستمرت اثارها السلبية على عقلية مفكري الغرب رغم تطور مناهج الدراسات التاريخية وادعائهم الموضوعية في ذلك، ولهذا يشير وات هنا الى نظرة الغرب للقرآن على انه مختارات من افكار يهودية ومسيحية هو تصور متداول في الساحة الاستشراقية على اقل تقدير حتى منتصف القرن العشرين عند البعض منهم، وحتى يومنا هذا عند البعض الاخر .

لقد اضاف بعض المستشرقين الى هذه الفكرة ما يزيد من حالة التشويه، اذ لم يكتفي البعض بتصوير القرآن الكريم بانه عبارة عن مختارات من افكار يهودية ومسيحية، بل روجوا الى فكرة ان تلك المختارات هي لا تمثل حقيقة افكار المسيحيين لانها اخذت من مسيحيي الشرق، وهؤلاء يختلفون عن مسيحيي الغرب وفقاً لتصورهم، ولنا بالمستشرق الانكليزي جورج سيل صاحب ابرز الترجمات الاجنبية للقرآن الكريم عند الغرب، خير مثال على ذلك، الذي نفى حقيقة ان القرآن الكريم هو اول من صرح ببطلان الاعتقاد الخاطئ الذي كان سائداً بين المسيحيين حول مقتل المسيح (ع)، والذي جاء في قوله تعالى ((إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)) ([2]) ، هذه الحقيقة نسبها سيل للمصادر المسيحية الشرقية القديمة، وان القرآن اخذها من تلك المصادر، ثم لم يكتفي بالغاء نسبتها للقرآن الكريم، بل وصف هذه المصادر المسيحية القديمة التي اخذ منها القرآن حسب قوله، وصفها بانها

1- العمري، الفتوح الإسلامية، ص 380.

2- الآية (55) سورة ال عمران.

تراثيات خرافية للمسيحيين الشرقيين ([1]).

اذن هم لم يكتفوا بالقول ان محمداً (ﷺ) قد اخذ منهم ماتمكن خلاله من صنع وانشاء القرآن !!!، بل اضافوا لذلك حينما قللوا من شأن وقيمة مسيحيو الشرق واعتقاداتهم وافكارهم ليزيدوا في قولهم انه (ﷺ) اخذ من المتخلفيين من ابناء دينهم ممن مازالوا يعتقدون ويؤمنون بالخرافات.

هكذا كانت صورة الاسلام تطرح امام الناس في الغرب، ومن الطبيعي ان تبقى لهذه الصورة اثار سلبية حتى يومنا هذا، ولعلنا ننظر الى التفاتات المستشرق وات هنا بعين الاحترام انه تجرأ وتحدث صراحةً عن تلك الرواسب القديمة التي مازالت عالقة في الذهن الغربي.

اما قوله من ان السور التي نزلت في بداية الدعوة لم تهاجم عبادة المشركين في مكة، ولم تصنع شكلاً من الخصومة بين النبي محمد (ﷺ) من جهة، وبين المشركين من جهة اخرى، انما ركزت على اظهار حقائق مهمة كالتأكيد على قوة الله تعالى وقدرته، وعلى الناس واجب عبادته وشكره، وانه تعالى سيحاسبهم في يوم القيامة على افعالهم، وان النبي محمد (ﷺ) هو رسوله اليهم، كنذير ومبلغ ونبي. هذا الكلام سليم جداً، لان طبيعة الخطاب الديني الموجه للناس يقتضي ان يأخذ اشكالاً متدرجة من حيث المرونه والشدة، فليس من المنطق ان تبدأ الدعوة الاسلامية بخطاب قرآني قائم على التعنيف والتأنيب والوعيد، بل من المنطق ان يبدأ هذا الخطاب بايضاح الحقائق وبيانها للناس ودعوتهم لاستكشافها وفهمها وتحفيزهم للسعي في ذلك كقوله تعالى ((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)) ([2]) وهي دعوة صريحة، وتساؤل مهم وضع في اذهان الناس لدفعهم باتجاه فهم العلاقة بين الخالق والمخلوق وضعف المخلوق امام قدرة الخالق.

1- Sale, George،The Koran، London, 1921, p49.

2- الآية (5) سورة الطارق.

هذه التساؤلات وغيرها شكلت بوابات مهمة للمعرفة والوصول الى حقيقة الكون وعلاقته بالخالق، فكان لابد ان تبدء بها الدعوة الاسلامية من خلال الخطاب القرآني، فقد استمر هذا النوع من الخطاب الايضاحي البياني خلال السنوات الثلاث الاولى من الدعوة، وهي ما اصطلح عليه في كتب التاريخ بالمرحلة السرية من الدعوة، اذ لم تشهد اي مواجهة او اصطدام بين النبي (ﷺ) ومشركي مكة، لان حركة النبي (ﷺ) كانت حركة منسجمة تماماً مع ايقاع الخطاب القرآني، بل هي المعبره عنه امام الناس.

ولكن غاب على وات البحث في علَّية تحاشي الخصومة والاصطدام المبكر من حياة الدعوة. فعلى الرغم مما لله تعالى من قدرة على احداث الاشياء، فهو جل وعلا صاحب القدرة المطلقة ما ان يقول للشئ كن حتى يكون، ولكنه تعالى اراد للدعوة الاسلامية ممثلة بالخطاب القرآني ان تأخذ شكلها الطبيعي فهكذا تؤسس المناهج السليمة التي يفترض ان يتعامل بها الانسان في مفاصل حياته المختلفة.

النبي محمد (ﷺ)كان بحاجة الى ايجاد قاعدة اولى تتوفر فيها عوامل الاصغاء، الفهم، التحمل والصبر والدعم، هذه القاعدة بهكذا مواصفات لايمكن ايجادها وبناءها من خلال الشروع بالدعوة عبر الخصومة، ولهذا فقد استغرق النبي محمد (ﷺ) مايقرب من ثلاث سنوات يجمع هذه القاعدة من خلال المحادثات الفردية والاقناع القائم على مستوى عالٍ من الفهم للاسلام.

كما انه منهج عقلي متقدم اذا نظرنا اليه وعملنا على اجراء تطبيقات مماثله له على مستوى سلوك الافراد داخل المجتمع. فالمجتمعات الانسانية عادةً لا تتقبل اية فكرة جديدة ممن يعتقدونه خصماً لهم، وبالامكان احداث حالة من الاستجابة الايجابية داخل هذه المجتمعات في التعامل مع الفكرة المطروحة ممن يعتقدونه مسالماً لهم. وبالتالي فان المنهج القرآني عبر عن نفسه في بداية الدعوة على انه مسالم وليس خصم، على امل ان يحقق ذلك اعلى نسبة من حالات الاصغاء والتعرف والفهم لطبيعة الدين الاسلامي.

بالعودة الى مضامين السور والآيات التي نزلت في بداية الدعوة التي حددها وات

بخمسة نقاط رئيسة، الاربع الاولى منها وصفها بانها مستنبطة من اليهودية والمسيحية ! ولا ادري من اجاز لنا الحق في نسبة المعارف والحقائق العامة لدين دون اخر، وهل هي استكشافات ذلك الدين واصحابه ! حتى نصف الدين الذي يأتي من بعده بانهُ دين مقلد لما سبقه، استنبط واستقى منه مجمل ما جاء به.

لقد احتوت نقاط وات الاربع على حقائق عامة ومعروفة ومتداولة لاسيما عند اصحاب الديانات السابقة، فان حقيقة ان الله قوي وخَّير، او انه تعالى سيحاسب البشر على اعمالهم فيجزي المحسن ويعاقب المسيئ، او انه على الناس عبادة الله وشكره، وان ينفقوا مما رزقهم الله تعالى، هي ليست ابتكارات يهودية ومسيحية، ولايمكن النظر الى هذه الحقائق على انها مرتبطة بهذه الاديان حصراً، فمصدر الحقائق هو الله تبارك وتعالى، وهو من وضعها معلومة ومعروفة عند اصحاب تلك الاديان وبالتالي فان الحقائق وان تطابقت الاديان في فهمها وتداولها، لا يعني اطلاقاً انها تعود وتنسب لاقدم تلك الاديان دون غيرها. ان منشأ الاديان السماوية ومصدرها واحد هو الله تعالى، ولذلك لايمكن القول ان هذه الحقائق استنبطها القرآن الكريم من اليهودية والمسيحية لانهما ليسا المصدر، وهو في النتيجة كلام غير دقيق لا ينم عن معرفة ويسعى لالغاء دور الله تعالى في بعث الاديان وتوجيهها وتزويدها بالمعارف والحقائق.

2 ـ تفسير الاحداث المعاصرة الواردة في القرآن

ان التفسير القرآني للاحداث الراهنة التي صاحبت ايام الدعوة الاسلامية، يرى فيه المستشرق وات على انه نوع من انواع اقناع المسلمين المحيطين بالنبي (ﷺ)، فهو يعتقد بان احدى وظائف القادة الدينيين (الانبياء)، عليهم ان يظهروا لقومهم كيف ان مصيرهم مثبت وفق الاحداث التي تجري، فضلاً عن ذلك يذكر بان احداثاً اخرى سيبدو وكأنها ستدمر ايمانهم، ويقصد بها حالات الانكسار والهزائم في المعارك التي عادة

ماتخلف انكسار وانهيار للايمان والعقيدة، ولهذا فهو يقول ان هذه الاحداث التي من المتوقع ان تدمر ايمانهم، وتؤدي الى انكسارهم تحتاج الى تفسير بطريقة او باخرى حتى لاتؤدي الى هذه النتائج (نتائج الانكسار).

ثم بعد ذلك يتطرق الى اسباب هزيمة المسلمين في معركة احد في السنة الثالثة من الهجرة، ويرى بان ماورد في القرآن الكريم انما هي محاولة لتفسير اسباب الهزيمة، من خلال قوله :" كانت المشكلة في ان المكيين اعتبروا انتصار بدر كدليل على ان الله قاتل معهم " وهنالك ما يشير الى هذا الامر من خلال النصوص القرآنية ([1])، ولكن بعد هذا الانتصار في بدر وقعت هزيمة احد فعبر عنها وات بقوله :" وبعد بدر بدأوا يشكون في ان الله يقاتل لاجلهم وبدأت ثقتهم بالانحسار وعالج القرآن موضوع فقدان الثقة بان العكس هو الصحيح، هزيمتهم في احد جعلتهم يعكسون هذا الاعتقاد بدلاً من اعتقادهم السابق بان الله يقاتل معهم، الان بعد هزيمتهم في احد بدأوا يعتقدون بان الله قد تغير ولم يقاتل معهم.

اذن حصل على اثر تلك الهزيمة فقدان الثقة بالله تعالى، لذلك فان القرآن اخذ يعالج موضوع فقدان الثقة هذا من خلال تصحيح هذا الاعتقاد، وبطرح تفسير اخر لهزيمة المسلمين في المعركة، وهو عدم التزام الرماة بمواقعهم وتركهم لها لجمع الغنائم.

1- قوله تعالى ((وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)) الآيات (123 - 126) سورة ال عمران، قوله تعالى ((إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ. إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)) الآيات (9 - 12) سورة الانفال.

نتوقف هنا لنناقش هذا الطرح، فنقول ان الانتصار في معركة بدر كونها اول معركة مباشرة بين المسلمين والمشركين، كان لابد من وقوعه بامر الله تعالى، اذ كانوا بحاجة اليه، فوضعهم ومكانتهم واستمرارية وجودهم متوقفة على هذا الانتصار، اما ان يمضون للامام في الدعوة وبناء دولتهم، واما ان ينتهي كل شئ. فالهزيمة كان من الممكن لها ان تؤدي الى زوال الدعوة والدين. ولهذا فان الله تعالى كان حاضراً وبقوة في هذه المعركة لنصرة المسلمين واذلال اعدائهم، رافق ذلك ان المسلمين في معركة بدر بذلوا اقصى درجات العطاء والتضحية على ارض المعركة، ولانهم لم يتوقعوا هذا الانتصار فهم لم يخرجوا لاجل غنائم الحرب لانهم وببساطة لم يتصوروا بانهم على قلتهم هذه سينتصرون في المعركة وسيهزمون المنظومة الحربية الضخمة لمشركي مكة، حتى مع سماعهم بوعود النصر والظفر، وادراكهم بانهم مع الحق ويقاتلون الباطل، لذلك فان نواياهم كانت نبيلة وصادقة وخالصة لله تعالى.

ولكن بعد هذا الانتصار الكبير في بدر، وبعد ان علموا ان الله تعالى بعث من يقاتل معهم من الملائكة ((إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ))، وكان ذلك من اسباب نصرهم المؤزر على قريش، اعتقد الجزء الاكبر من المسلمين وهم في هذه المرحلة مازالوا لم تكتمل لديهم حالة الفهم والادراك الكاملة لهذا الدين. والكثير منهم على اثر الانتصار الكبير في بدر تشكلت في داخله ثقة مفرطة في مسألة الاتكال على الله تعالى، وبرزت لديهم حالة تقنين الجهد المبذول في ارض المعركة، بمعنى بروز ظاهرة الاتكال على قدرة الله تعالى وعونه لهم، التي اصبحت راسخة في الاذهان من ان النصر سيتحقق كما تحقق في معركة بدر ((وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)) وهذا الاعتقاد خلق نوع من الاتكال وعدم بذل العطاء والجهد الكافي لتحقيق النصر.

هذا الاعتقاد حينما تغلغل في قلوب المسلمين او النسبة الاكبر منهم، مع التأكيد على اشارتنا السابقة من ان قسم منهم مازالوا بعد لم يستوعبوا، ولم يفهموا جيداً هذا الدين،

يمكن القول ان هؤلاء اعتقدوا بان اي معركة سيخوضونها مستقبلاً بعد الانتصار في بدر، فان الله تعالى سيتكفل بنصرهم مهما كانت الظروف، وبالتالي هذا الاعتقاد الخاطئ ساهم بدرجة عالية في التأثير على حجم عطاءهم في المعركة اللاحقة. هذا الاعتقاد كان من اخطر الانحرافات التي مرت بها الامة، لذلك اراد الله تعالى ان يزيل هذا الاعتقاد الخاطئ ويرفعه من رؤوس الناس، ليحل بدلاً عنه اعتقاد اخر يقوم على ان المسلم عليه بذل كل طاقته وجهده لتحقيق النصر، والاتكال على النفس قبل الاتكال على الله تعالى من خلال بذل درجات قصوى من الجهد دون اي تقصير.

ان الله تعالى لا يريد من الانسان الاتكال عليه وتعطيل جهده وطاقته، بل يريد منه مع الاتكال على الله تعالى ان يتكل على نفسه ويبذل اقصى جهده. فمعظم المسلمين في معركة احد لم يبذلوا جهدهم الكامل في المعركة، لانهم كانوا يعتقدون ان الله سينصرهم في هذه المعركة كما نصرهم في بدر، بل تصوروا انه تعالى سيبعث ملائكة تقاتل نيابةً عنهم، وهكذا فان الله تعالى اراد ان يصحح هذا الاعتقاد الخاطئ من خلال ماكتبه عليهم من هزيمة في معركة احد، وليكن درساً لهم يتعلمون منه ان الله تعالى يعطي العبد بمقدار جهده وعطائه.

وردت اشارة في سورة ال عمران الآية (152) قوله تعالى ((وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)) الروايات اشارة الى تفسير هذه الآية الكريمة في ان الصحابة خالفوا امر النبي محمد (ﷺ) في معركة احد فتركوا مواقعهم ونزلوا لجمع الغنائم. هذا لا يتعارض مع ما ذكرناه ولكنه لا يُعد في تقديرنا السبب الرئيس للهزيمة في احد بالرغم من ان الروايات الاسلامية اكدت على انه السبب الرئيس لهزيمة المسلمين في احد. يجب ان ننظر بموضوعية الى قيمة هذا السبب، فهو لا يَعدوا كونه تبرير لتخاذل وضعف العطاء الذي كان عليه الصحابة في تلك

المعركة، ليس مستبعداً ان تفسير وتبرير الهزيمة في معركة احد تمت المبالغة في حجم نتائج تلك الاخطاء التي ارتكبها قسم من المسلمين عند مخالفتهم لاوامر النبي وترك مواضع القتال، ناهيك عن ان موضوع مخالفة اوامر النبي (ﷺ) وترك مواقع القتال والنزول لجمع الغنائم، لايتعارض مع طبيعة الفكرة التي طرحناها كسبب رئيس للهزيمة، وهي ان المسلمين لم يبذلوا جهدهم لتحقيق النصر، متكلين على ان يمدهم الله تعالى بمن يقاتل معهم ونيابةً عنهم كما حصل في معركة بدر. نعم لقد اراد الله تعالى ان يُبيّن للمسلمين خطأ اعتقادهم ويدفعهم باتجاه الاتكال على انفسهم لتحقيق النصر ببذل اقصى الجهد، فجاءت تلك الهزيمة المؤلمة درساً عظيماً لهم وازالةً لتلك الاعتقادات الخاطئة.

مسألة اخرى تدعم ما قلناه، وهي ان المشتركين في معركة احد معظمهم كانوا ممن قاتل في معركة بدر، وحققوا النصر على ذلك العدد الكبير من معسكر الشرك. كيف لهم ان يحققوا نصرهم في بدر، ثم ينهزموا في معركتهم الثانية في احد على الرغم من ازدياد عددهم في الثانية ! لقد بذلوا في تجربتهم الاولى في معركة بدر كل ما لديهم في سبيل تحقيق النصر، على الرغم من ان الظروف والمعطيات كانت في مصلحة العدو، فكافئهم الله تعالى بالنصر، فادركوا ان ذلك بارادة الله وعونه، واعتقدوا ان الله تعالى سيمنحهم هذا العون في كل حروبهم، فلما جاءت معركة احد تكاسلوا ولم يبذلوا فيها مابذلوه من جهد في السابق، فتخلى الله تعالى عنهم ليشعرهم بخطأ ما اعتقدوه.

اذن هنا تفسير الاحداث المعاصرة لرسول الله (ﷺ) لا تبدو واضحة، واقعاً نحن لا ندرك حقيقة ماجرى بالكامل، والتفسيرات ليست واضحة او دقيقة باستمرار، كما ان بعض الاحداث لم يتم التطرق اليها بشكل صريح وواضح، لاسيما تلك الانفعالات النفسية التي لا تعكسها الروايات المنقولة، نحن حينما نتحدث ونقول المسلم الذي خرج منتصراً بعد معركة بدر هذا الانتصار الباهر، لا نتعرض اطلاقاً الى تلك الاثار النفسية التي تركها هذا الانتصار سواء اكانت ايجابية او سلبية، ولا نتطرق الى تأثير ذلك على مستوى عطاء المقاتل المسلم واستجابته لاوامر النبي (ﷺ) ووصاياه، وعليه

يمكننا ان نتصور حجم الاعتقاد الذي تشكل في ذهنية قسم كبير من المسلمين بأن الله تعالى سينصرهم في كل حرب يخوضونها، وما لذلك من تأثير واضح على تفاعل واستجابة المسلمين، وعطائهم واندفاعهم في المعارك. لذلك كانت معالجة الله تعالى لهذا الداء بالدرس الكبير الذي اخذوه في هزيمتهم بمعركة احد.

فربما يعترض احدهم قائلاً لماذا التركيز في المصادر الاسلامية على ان عصيان اوامر النبي (ﷺ) والنزول لجمع الغنائم هو سبب الهزيمة، ولاتصحح هذه الفكرة. نقول ان عصيان بعض المسلمين اوامر النبي (ﷺ) لايمكن نفيه كاحد اسباب الهزيمة، كما ان المصادر التاريخية اعتمدت فيما اوردته على المرويات ولم تتضمن عملية التحليل والاستنتاج وتقديم رؤية موضوعية وفق المنهج العقلي.

مازلنا في الموضوع نفسه، تفسير الاحداث الراهنة، وهنا يشير وات الى واحدة من النقاط الهامة في تفسير القرآن لهذه الحالة، من خلال تفسير معارضة اليهود للنبي محمد (ﷺ) لانهم حرفوا الشكل الاصلي لدينهم، بمعنى ان معارضتهم للنبي (ﷺ) جاءت كنتيجة لتحريف دينهم الحقيقي، والامر ذاته ينطبق على النصارى الذين عارضوا وحاربوا دين الاسلام وانتقدوه، من بعد ان حرفت اديانهم ولم تبقى على اصولها التي نزلت بها من السماء، ثم يعلق وات على ذلك قائلاً :" لم يكن مستغرباً انهم رفضوا القرآن لاسيما وانه اصلاً كرر نفس الدين والذي عرف بانه دين ابراهيم واصر على انه ليس يهودي او مسيحي ".

هذه المسألة دائما ما يتكرر ذكرها ان القرآن والاسلام هما تكرار لليهودية والمسيحية وكتبهما، ونحن بدورنا لا يمكن ان نقبل بهذا الكلام، اذ كيف يكون ذلك ونحن اصلاً نؤمن بانها اديان محرفة ولم تحافظ على كيانها الاصيل، حينما استبدلته باخر محرف ولم تبقى على شكلها الذي نزلت به. نعم بالامكان القول ان الاسلام تكرار لتلك الاديان لو حافظت على اصالتها، ولكن مع وجود التحريف الامر مختلف تماماً، لانه لايمكن القول

بان الاسلام هو تكرار للتحريف !!!.

نعم نحن لا نقول بان الاسلام هو تكرار لليهودية والمسيحية، وانما الاصح ان نقول ان دين الاسلام هو تكرار وتبيان لدين الله تبارك وتعالى الصحيح، الذي عبر عنه باليهودية فُحرفت، وعبر عنه بالمسيحية فُحرفت، فعبر عنه بالاسلام مختتماً به، لذا لايمكن ارجاع خاتم الاديان واصحها الى دين قد طالته يد التحريف واخرجته من اصله الالهي.

اننا كمسلمين حينما نقول ان دين الاسلام هو استعادة لدين ابراهيم عليه السلام، فعلاً نحن نؤمن بذلك، لان دين ابراهيم (ع) وشريعته هي الشريعة السماوية الصحيحة السليمة التي حرفت على يد اليهود، وحرفت مرةً اخرى على يد النصارى، فجاء الاسلام ليصحح ذلك التحريف ويظهر حقيقتها على يد النبي محمد (ﷺ). مع ضرورة مراعاة ان الديانة الاسلامية وبحكم تأخرها الزمني عن باقي الاديان السماوية، جاءت بكونها اكثر شموليةً ووضوحاً، واكثر تبياناً من تلك الاديان السابقة، وهذا راجع الى عوامل عَّدة منها : اولاً: المجتمع البشري الذي عاصر الرسالة الاسلامية هو مختلف عن تلك المجتمعات التي عاصرت نبي الله ابراهيم (ع) وباقي الانبياء موسى وعيسى (عليهم السلام)، مع الانتباه الى ان المجتمعات كانت في حالة توسع وتكاثر مستمر، هذا الاتساع البشري رافقته تعقيدات جديدة للحياة البشرية، وبالتالي كلما زاد التعقيد زادت الحاجة الى تشريعات جديدة تتناسب مع ذلك وتعالج اشكالاته. ولهذا حينما نقول ان الديانة الاسلامية هي الاكثر شمولاً والاكثر وضوحاً والاكثر استيعاباً بمعنى انها استوعبت كل تلك التعقيدات التي تضمنتها الحياة البشرية، وفي ضوء ذلك انتجت تشريعات متكاملة غير منقوصة.

اذن هذه المسألة من الضروري الالتفات لها، وعليه لا يمكن القول ان الاسلام هو تكرار لليهودية والمسيحية، وبالوقت نفسه يمكننا القول انه اكثر شمولية من اصولها قبل التحريف، ولان مصدر الاديان السماوية واحد هو الله تبارك وتعالى، عليه لايجوز نسب

مرجعية الاديان لليهودية ولا للمسيحية ولا حتى للاسلام، فمرجعها الله تعالى لا غير.

ان للقرآن الكريم ادوار ضخمة ومهمة في حفظ دين الله تعالى، وبالامكان ان يعمل على تنقية الاديان السابقة مما اصابها من التحريف لو جرى التعامل معه على انه معيار المصداقية التامة الصادرة من الله تبارك وتعالى، لنَّقت تلك الاديان انفسها، وهي دعوة صريحة للباحثين عن الحقيقة : من اراد ان يُنقي شريعته من المدخلات والتحريفات، عليه بالرجوع الى القرآن الكريم لان الله تبارك وتعالى حفظ هذه الشريعة الممثلة بالقرآن من التحريف والتلاعب ([1]) وهي تطابق تماماً اصول تلك الاديان قبل ان تُحرف. وعليه بالمقدور ان يتخذ من القرآن الكريم معيار لفحص وتنقية اليهودية والمسيحية، واخراج كل المدخلات التحريفية، فما يتعارض مع القرآن الكريم هي مادة مُدخله على الاصل يجب ازالتها، وكل مايتوافق مع القرآن لاشك هو جزء من الاصل النازل من عند الله تعالى. وعليه فان القرآن الكريم ممكن ان يؤدي دور عظيم اخر حينما يعتمد عليه اصحاب الاديان السابقة لتنقية اديانهم من المدخلات التحريفية، وبالتالي يتحول من كتاب للمسلمين فقط، الى كتاب لكل البشرية.

يختتم وات هذا المبحث بقوله :" من كل هذا سيكون واضحاً بان التفسير القرآني للاحداث المعاصرة في ذلك الوقت لم تكن مجرد ممارسة، وانما توجيه عملي للمسلمين في كيفية مواجهة المشاكل القائمة. وبذلك لايمكن ان يكون هنالك اي شك في اصالة القرآن "، واشارة وات هنا الى اصالة القرآن المقصود بها طبيعة فهم المسلمين لقيمة القرآن الكريم، وليس من باب الاعتراف باصالة القرآن الكريم، بدليل انه في مجمل كتاباته حول الاسلام والنبي محمد (ﷺ) لانجد اعترافاً صريحاً واضحاً بنبوة محمد (ﷺ)، فكيف اذن يقول باصالة القرآن هنا !.

1- قوله تعالى ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) الآية (9) سورة الحجر.

3 ـ القرآن واحداث المستقبل

من خلال عنوانه هذا نستشعر ان المستشرق وات يسعى لايجاد نقاط ضعف في طبيعة محتوى القرآن الكريم، فالانتقاد القرآني لطبيعة العقيدة المسيحية لا يمكن قبولها باي حال من الاحوال من قبل هذا المستشرق او من اقرانه، ولهذا تظهر امامنا نواياه واهدافه من خلال تناوله لهذا الموضوع ومن عنوانه الرئيس هذا.

القرآن الكريم اشار الى الاعتقاد الخاطئ بمسألة صلب المسيح (ع)، وحادثة الصلب التي اعتقد بها اليهود والنصارى انها طالت عيسى (ع)، لتصبح اساس العقيدة المسيحية لاحقاً. الا ان القرآن الكريم اشار بوضوح وصراحة الى بطلان هذا الاعتقاد، وانه لايتصل بحقيقة ماجرى من خلال قول الله تعالى ((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)) ([1])، هذا الكلام الالهي الثابت الصادق تقاطع تماماً مع ذلك الاعتقاد الذي قلنا انه شكل اساس العقيدة المسيحية، من خلال ايمانهم بأن ماحصل في واقعة الصلب انما هو افتداء المسيح للبشرية، وتضحيته بنفسه ليفتدي البشرية ويطهرهم من اثار تلك الخطيئة الاولى التي ارتكبها آدم (ع) ([2]).

القرآن الكريم نسف هذا الاعتقاد جملةً وتفصيلا بقول الله تعالى وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم، وهنا تظهر لنا عظمة وقيمة هذا الكتاب العزيز، اذ انه يحتوي على كل شئ بما في ذلك تصحيح معتقدات اصحاب الاديان الاخرى. ويبدو ان هذه المسألة دفعت بالمستشرق وات للبحث في موضوع حداثة القرآن وما جاء فيه من موضوعات حديثه ليست بقديمة، والسعي لايجاد مبررات مقبوله لما صرح به القرآن من جهة، ولبيان

1- الآيتان (157 - 158) سورة النساء.

2- ينظر : جنيبير، شارل، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبدالحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت، لا.ت، ص148.

طبيعة الاعتقاد المسيحي بواقعة الصلب من جهة اخرى.

فمن المعلوم ان المسيحية بخطها العام تؤمن بوقوع صلب المسيح (ع) على الرغم من ان هنالك بعض العلماء والطوائف المسيحية التي تنفي وقوع الصلب، الا اننا نتحدث الان عن المسار العام للمسيحيين والذي يقوم على ايمان هؤلاء بالصلب، ومنهم هذا المستشرق الذي وجد نفسه امام خيار واحد فقط وهو الدفاع عن واقعة الصلب رغم ادراكه بهشاشة الموقف المؤمن بها، وضعفه امام الحجة القرآنية.

كما قلنا ان اصول العقيدة المسيحية قائمة على اساس الايمان بالفداء والصلب، وان اي رفض لواقعة الصلب فان اصول هذه العقيدة ستنهار وتهدم بكل سهولة. المستشرق وات في طريقة تناوله لهذا الموضوع اراد ان يقلل من قيمة هذا التصريح القرآني، والدفاع عن العقيدة المسيحية من خلال مهاجمة الاخبار التي صرح بها القرآن والتي قد تصنف بانها اخبار حديثه او معاصره لزمن الدعوة او تسبقها بقليل. فتحدث عن انباء الغيب التي كان النبي محمد (ﷺ) يعلمها وقد اشار الى جملة من الآيات القرآنية واخذ يحلل في معناها ومحتواها ليؤكد في النهاية على مسألة مهمة : وهي انباء الغيب التي ذكرها القرآن الكريم

لقد اكد وات على ان انباء الغيب هذه، كانت غير معلومة عند النبي محمد (ص) وهو يجهلها هو وقومه من اهل مكة، ولكنها معلومة ومعروفة عند غيرهم من الاقوام ممن سبقوهم او عاصروهم بدليل ما اشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى))تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِي)) ([1])، وقوله تعالى ((ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)) ([2])، وكذلك قوله تعالى ((ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

1- الآية (49) سورة هود.

2- الآية (44) سورة ال عمران.

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)) ([1]). في الواقع لا اختلف مع وات فيما اشار اليه من ان الآيات القرآنية ذكرت بوضوح ان انباء الغيب تلك اختصت بغيابها عن النبي محمد (ﷺ) وقومه من اهل مكة، ولم تكن معلومة لديهم، هذا الامر لايمكن الاعتراض عليه، لاننا نتحدث عن قصص ذكرها القرآن الكريم كقصة نبي الله نوح (ع)، او قصة نبي الله زكريا ومريم العذراء، هذه القصص جميعها لم تكن معلومة للنبي محمد (ﷺ) وقومه قبل الدعوة ونزول القرآن، ومن الطبيعي ان تكون معلومة للاقوام السابقة بحكم وردها، او اجزاء منها في كتب التوراة والاناجيل، ولكن يجب الالتفات الى ان ما ذكره القرآن من هذه الاخبار يختلف في بعض تفاصيله عما تحتويه كتب اليهود والنصارى، ومنشأ هذا الاختلاف هو التحريف الذي طال هذه الكتب التي تم التلاعب بالحقائق التي احتوتها في زمن نزولها على الانبياء، وبالامكان الاعتماد على هذه الخاصية للقول بحداثة اخبار القرآن وعدم تكراره لاخبار التوراة والاناجيل حرفياً، والا كيف نفسر الاختلافات الصريحة التي جاءت في القرآن ([2]) عمن سبقه من الكتب بخصوص اخبار نبي الله نوح (ع)، اوزكريا ومريم، اونبي الله يوسف (ع) اوغيرها من قصص الانبياء الاخرى. اذن ما طرحه وات من ان القرآن يدعي الحداثة، هي حقيقة واقعة، فالقرآن في اخباره احدث واصدق واوثق من الكتب السابقة. وهذا الاختلاف ليس دليل حداثة فقط وانما دليل اصالة القرآن ويمكن لكل متتبع موضوعي ان يشعر بذلك من خلال الاختلافات التي اشرنا اليها.

نعود الى قصة الصلب، قلنا ان الطوائف المسيحية عموماً تقول بأن المسيح (ع) قتل على الصليب وافتدى بذلك البشرية، ولكن كما قلنا القرآن فند ونسف هذه الاكذوبة، ومن الادلة الواضحة التي تؤيد ما جاء في القرآن الكريم من تفنيد : وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم:

1- الآية (102)سورة يوسف.

2- لملاحظة الفرق بين ما احتواه النص القرآني من جمة والنص التوراتي من جمة اخرى.ينظر : الغزالي، القرآن الكريم، ص ص99 - 106.

اولا : ان الذي وضع على الصليب والذي نعتقد نحن بأنه صلب هو احد الحواريين ويدعى (يهوذا) الذي خان عيسى (ع) وقام بالاخبار عن مكانه حتى يلقى القبض عليه، فلما قام بفعلته تلك واخبرهم بمكان عيسى (ع)، وبقدرة الله تعالى شُبه لهم بأنه هو عيسى فأقتيد ونفذت فيه عقوبة الصلب مصداقاً لقوله تعالى وماقتلوه وماصلبوه... انما رأوا صورة المسيح عيسى (ع) بشخصية يهوذا، فاعتقدوا بأنه هو المسيح ([1])، ومما يؤكد ذلك ان يهوذا هذا لم يظهر ولم تعرف اخباره بعد حادثة الصلب، ولم يذكر اي شئ عن باقي حياته او عن وفاته، مما يؤكد بأنه هو من نفذت بحقه العقوبة. كما ان الكلمات التي كان ينطق بها وهو على الصليب لم تكن توحي بأنه نبي الله عيسى (ع)، فقد نقل عنه انه كان يصيح بصوت عال ويصرخ قائلاً :" ايلي ايلي لما شبقتني " بمعنى الهي الهي لما تركتني ([2])، وهذه العبارة تعبر عن حالة الخوف من الصلب والاستنجاد، وهذا يتقاطع مع مفهوم الفداء الذي ترتكز عليه العقيدة المسيحية، لانهم يعتقدون ان المسيح (ع) كان راضياً وسعيداً بقيامه بالفداء، وتطهيره للبشرية من خطيئتهم، فطلب النجاة يتقاطع مع الرضا والسعادة التي يعتقدون بها.

ثانياً: كما ان هنالك ادلة اخرى تؤكد ماجاء في القرآن، ومنها ان حادثة الصلب التي وقعت لم يشهدها مسيحي واحد، حتى تؤخذ منه تفاصيلها، فالحواريون تفرقوا خوفاً بعد ان اعتقدوا ان المسيح (ع) القي القبض عليه، كما ان حادثة الصلب اصبحت حقيقية لانها شاعت بين الناس بأن " المسيح أُلقي القبض عليه وسيق الى مصيره الاخير على الصليب " هذه الاخبار كانت موضع تداول بين الناس، سرعان ما رسخت في اذهانهم على انها قصة حقيقية متكاملة، لم يظهر من يطعن بها او يكذبها الا بعد سبعة قرون من خلال التصريح القرآني.

بالعودة الى المستشرق وات وموقفه من ضعف النص الانجيلي والاعتقاد المسيحي

1- ينظر: المنشاوي، ناصر، الجوانب الخفية من حياة المسيح، مصر، 2003، ص120.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص116.

الخاطئ، في مقابل قوة النص القرآني ومايحتويه من حقائق، يظهر وات بشكل مكشوف وواضح هنا، وهويبحث عن حالة موائمة بين الاعتقاد المسيحي من جهة، والحقائق التي ذكرها القرآن الكريم من جهة اخرى، لكي لا يظهر هذا التقاطع الفاضح للعقيدة المحرفة عند المسيحيين. ان المنهج الذي اتبعه وات يعبر عن ادراكه لحجم قوة الحقيقة القرآنية، ولكنه في الوقت نفسه لايريد الاعتراف بذلك، ولذلك سعى لايجاد مخرجات مقبولة حسب ظنه، لا تظهر الموقف المسيحي بحالة من الضعف او الاستسلام امام الحقيقة القرآنية، سعى لايجاد حالة توافق بين ذلك الاعتقاد والتصريح القرآني حينما قال : " المسيحيون يعتقدون ان صلب المسيح هو انتصار وليس هزيمة لان ما تبعه هو قيامة المسيح وولادة الكنيسة "، بعد ذلك قال : " ان القرآن الموجه الى الاقوام التي تعتقد بعمق ان رسول الله لم ينتهي بهزيمة " اكد هنا على مفهوم الانتصار الذي تشترك فيه كل من المسيحيةو الاسلام، ثم توجه ليؤكد على انكار القرآن الكريم ادعاء اليهود بأنهم صلبوا المسيح (ع) :((... ولكن شبه لهم)) موظفاً هذا التصريح القرآني لدعم فكرته، ان ادعاء اليهود الانتصار على عيسى (ع) بعد اتمام عملية صلبه، انما هو اشتباه لان عيسى (ع) لم يهزم، وانما انتصر. ثم يقول : " وهنا يمكن ان نتسأل من قتل عيسى، والجواب قد لايكون اليهود وليس الرومانيين، وانما هو نفسه قبل بموته، كونه الارادة المسيطرة على كل العملية وانه فقط ترأى لليهود انهم قتلوه ".

لاحظ كيف يخلق حالة من الموائمة والتوافقية بين كل التفسيرات الدينية لواقعة الصلب، ففكرة قبول المسيح (ع) بموته وصلبه، والاشتباه الذي اشار اليه القرآن ، يراه وات متفقاً مع التصور اليهودي، فما عدُّه اليهود هزيمة للمسيح بصلبه، عدُّه المسيحيون انتصاراً، وهذا يتوافق مع التصور الاسلامي. ولكنه هنا نسي ان التصريح القرآني متكامل وليس جزئي : وما قتلوه، اي نفي كامل لقتل عيسى (ع)، وما صلبوه اي نفي لصلبه، ولكن شُبِّه لهم، وهذا جواب شافي ووافي لكل من يسأل اذن من هو الذي قتل على الصليب اذا لم يكن المسيح (ع)، هو الشخص الذي اشتبهوا بانه المسيح (ع) وترائى

لهم بصورة المسيح بامر الله تعالى.

من كل ماسبق يتبين لنا ان المستشرق وات اعتمد على هذا المنهج، القائم على مسارات تضليلية، ليرفع حالة الحرج التي اضحت عليها الديانة المسيحية، حينما واجهت الحقائق القرآنية وهي بموقف الضعف وفقدان الحجة.

يبقى القرآن الكريم والحقائق التي جاء بها، فوق كل المحاولات والاساليب التي اتبعها المستشرق وات ، فالقرآن اول من اشار الى هذا الخطأ الفادح في اصول العقيدة المسيحية، وفي التصور اليهودي، وبالتالي فان من دواعي الموضوعية التمسك بما ورد في القرآن وتصحيح هذه الاعتقادات المنحرفة.

الفصل الرابع : "نزول الوحي "

1 - " الاستجابة للانبياء "

-2 " اسس قبول الدعوة "

3 - " مفهوم العرب للمعرفة "

قراءتنا النقدية لما ورد في الفصل الرابع

1 - الاستجابة لدعوات الانبياء

2 - اسس قبول الدعوة الاسلامية

1 ـ الاستجابة للانبياء (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

تشير العديد من قصص القرآن الى ان استجابة القوم الى الرسول هو فعل منفرد اما بالقبول او الرفض. ففي السورة (26) الآيات (105 - 191) ([1]) كانت هناك عدد من القصص المتشابهة لبعضها البعض تتحدث عن نوح وهود وصالح وشعيب. في كل قصة من هذه القصص يقول الرسول ما معناه: " انا رسول الله اليكم فاخشوه وافعلوا ما أقوله لكم وبعكسه ستكون هناك عقوبة شديدة لكم ". هذا هو كل شيء في مفهوم الرسول كنذير. وكما ذكر في قصص السورة (26) لم يذكر شيء عن قبول الرسالة التي جاء بها النذير. لقد كان الرسول يتحدث بقوة شخصيته، ربما لأن القصص التي اوردتها هذه السورة موجزة لان الغاية منها ربما شيء أخر... ([2]).

هناك غموض معين حول استجابات معينة للناس. فليس واضحا لماذا يقوم البعض بالاستجابة ايجابيا والآخرون سلبيا. لقد أظهر القرآن الله على انه قوة خارقة يسيطر على الكون وبهذا لابد انه يسيطر على استجابات الناس ايجابا او سلبا. واحدة من الآيات وهي (6) من السورة الثانية في القرآن تصف الأشخاص الذين أظهروا عدائهم لمحمد ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) وفي بعض العبارات تستخدم كلمة ان الله "يهدي" من يشاء و "يقود" من يشاء الى الهدى أو الضلال وبعض الأحيان تستخدم هذه العبارات بشكل مطلق كوصف كامل لأنشطة الله. ويمكن ان يحصل الارشاد وهداية الانسان عندما يقول " يشرح صدر" وفي بعض الأحيان يقود الى ان يكون صدره (ضيق) كما في الآية(125) من

1- هذه الآيات من سورة الشعراء لم نذكر نصوصها لكثرتها.

2- Watt,Islamic revelation, p57.

السورة رقم (6) ([1]) ((فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) وفي آيات أخرى هناك اشارة الى مساعدة الله أو عونه (النصر، والتوفيق) او عكس ذلك (الخذلان). ومهما كانت الكلمات المستخدمة هناك غموض في استجابة الناس سواء كانت ايجابية او سلبية ([2]).

ان الوصف المبسط للاستجابة للرسول تعود الى الفترة المكية. بعد الهجرة الى المدينة، أصبحت عملية الدعوة والاستجابة لها أكثر تعقيدا. في بداية الدعوة في مكة استجاب محمد وعدد من الرجال ايجابيا لها. هؤلاء المؤمنون التئموا ليشكلوا مجموعة قائمة بذاتها. وقد أدت الهجرة الى انضمام اكبر عدد ممكن من الأشخاص في مجموعة المؤمنين. والتي اصبحت جماعة... ولهذه المجموعة او المجتمع نزل الوحي بأمور تخص الحياة المشتركة لهم والتي شارك فيها جميع ابناء المدينة. فاصبح الناس او (القوم) كيانا معقدا اجتماعيا وسياسيا. فقد نمت المجموعة من نزول الوحي الأول والاستجابة له ولكنه تطور من خلال استجابة لاحقة للرسالة التي كان وجود مجتمع المؤمنين فيها مفترضا وهكذا اصبح مناسبا ان يقال بأن " الكيان الكامل للإسلام التاريخي" اصبح قائما هنا. وقد كان للقرآن وظيفة مهمة في هذا الكيان ([3]).

حتى اولئك الذين كانت استجابتهم سلبية للرسول واصلوا علاقتهم مع الدعوة الاسلامية. وفي المصطلح الذي ذكرناه في الفصل الأول من الكتاب فهؤلاء يمكن ان يطلق عليهم انهم من ال (ectosoma) اي المحيط الخارجي للدعوة. وهذا يعني انهم سيواصلون التأثر بالأفكار التي جاءت بها الدعوة وبمجموعة الناس الذين استجابوا لها، هذا لا يعني انهم بالضرورة قد قبلوا الأفكار او ان لديهم علاقات طيبة مع المسلمين بل

1- سورة الانعام.

2- Watt,Islamic revelation, p58.

3- Ibid, p48-49.

حتى مع وجود رفض تام لها وانهم أعداء للمسلمين الا ان التأثر يبقى موجودا، وأكثر من ذلك فان القرآن واصل التوجه بآياته الى الكفار بإعطاء محمد التوجيهات للرد على معارضتهم. وبهذه الطريقة كانت العلاقة متواصلة حتى بين الكفار والوحي.

كانت الحالة مختلفة قليلاً في المدينة، فالبعض عرفوا بـ (اولئك الذين في قلوبهم مرض) و (المنافقون). كان هناك اشخاص، ولو بشكل رمزي، قبلوا الاسلام في وقت الهجرة ولكنهم لم يكونوا راضين عن الظروف الجديدة بالمدينة، وعارضوا محمد لأسباب سياسية. هؤلاء ايضا من المجموعة التي أطلقنا عليها (endosoma) اي الجسم الداخلي ولكنهم يحاولون الخروج منها وهم الذين ربما كانوا ايجابيين من الإسلام من الناحية الدينية ولكنهم سلبيين بالنسبة للأمور الأخرى التي تحصل ([1]).

2 ـ اسس قبول الدعوة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

في العهد القديم كانت الفكرة ان النبي او الرسالة الألهية من اجل ان يصدقها الناس لابد من حصول (معجزة). فعندما بعث الله موسى الى بني اسرائيل كان خائفا من انهم لن يصدّقوه فأعطاه الله دليلين (سفر الخروج 4/1-9) أحداها انه حول العصا الى افعى واعادها عصا ثانية. والأخرى هي شفاؤه من الجذام وزواله منه. واذا لم يقتنع بنو اسرائيل بهذه المعجزتين فانه سيرمى الماء على الأرض ليتحول الى دم... ([2]).

ان مفهوم تقديم المعجزة أو الدليل اصبح بارزا في الدعوة الاسلامية لاحقا. ولكن في القرآن كان هناك اشارات قليلة له تمثلت في قصة موسى وهي تلك المتعلقة بالعصا التي اصبحت ثعبانا (الآيات (103 - 118) من السورة رقم 7) ([3]) ((ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

1- Watt,Islamic revelation, p59.

2- Ibid، p59-60.

3- سورة الاعراف.

الْمُفْسِدِينَ. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآَيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ. وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))، ويلاحظ ان هذه المعجزات لم تستعمل لإقناع بني اسرائيل بل لإقناع فرعون كما ورد في (سفر الخروج رقم 7). ولحد الان لم يستعمل محمد كما يبدو اية معجزة لإقناع العرب بانه رسول من الله. ان البراهين التي ساقها القرآن في الآيات الأولى منه هي في اقناع القوم بقوة وعظمة الله وليس بمصداقية رسالة محمد. وهنا مرة أخرى نشير الى ان محمد بوصفه " نذير" بالعقوبات التي تواجههم نتيجة عدم الايمان بالله فجاءت معركة بدر والتي يمكن اعتبارها... كبرهان على رسالة محمد. لم تكن هذه الفكرة غائبة حيث ان الانتصار في معركة بدر كان تصديقا لكل ما كان يطرحه محمد كون انها عقوبة للمكيين ولكن لم تجر اية اشارة الى ان ذلك تأكيد لرسالة محمد. ان الانتصار في بدر هو الذي رسخ في أذهان المسلمين الرسالة ولذلك لم يكن ضروريا اعطاءها صفة البرهان على صحة الرسالة حيث ان المسلمين امنوا بها اصلا ([1]).

1- Watt,Islamic revelation, p60.

يبدو ان القرآن كان لديه تصوران لأسس قبول الدعوة. اولا توقع ان يستجيب القوم بايجابية بالاستناد الى قوة وسائل اقناع محمد وشخصيته المعروفة بالاستقامة. أدت هذه العوامل الممزوجة مع ثقته العالية بالنفس بلا شك الى قبول الناس بالدعوة. ثانيا، ان القرآن من خلال شكله وقيمته الأدبية كان يقدم نفسه بقوة دون الحاجة الى برهان على مصداقيته. وهذا واضح في التحدي الذي قدمه اذا كانوا يستطيعون الأتيان بسورة او عشر سور من مثله كما ورد في(الآية 13 من السورة 11) ([1]) و(الآية 38 من السورة رقم 10) ([2]). وقد نوقش لاحقا عما اذا كانت بلاغة القرآن جاءت نتيجة لما احتواه من شكل واسلوب أدبي. يتفق القراء المعاصرون على انه لا يوجد اي عربي في ذلك الوقت يستطيع ان يقلده بفعالية. كان جميع العلماء المسلمين يعتقدون بأن الأساس هو اعجاز البلاغة الأدبية للقرآن. كما ان الاعتقاد الاساسي كان بأن هناك اعجاز ادبي في القرآن بعيد عن قدرة البشر. فهو لا يمكن ان يكون انجاز أدمي ولذا فلابد ان يكون من عند الله وما يعزز ذلك هو التأكيد (لأسباب غامضة) ان محمد كان اميّا ([3]).

اذا كان بالإمكان اثبات ان القرآن كان مصدرا مستقلا وحقيقيا للمعلومات حول احداث وقعت في الماضي السحيق فان هذا سيعزز اراء الذين يعتقدون بان اصله الهي....

لحد الان فان اسباب قبول القرآن التي اخذت بنظر الاعتبار كانت على اسس واعية. المفهوم الحديث عند الانسان هو ان يرجع الكثير من الامور الى اللاوعي. عندما يتحدث المؤرخ المعاصر عن العوامل الاجتماعية ولاقتصادية يؤشر على بعض الاحداث في الماضي اذن هو يفكر في مبررات من اللاوعي... في هذه الدراسة لا توجد

1- قوله تعالى ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) من سورة هود.

2- قوله تعالى ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِي)) من سورة يونس.

3- Watt,Islamic revelation, p 60-61.

ضرورة لنفعل اكثر من الاشارة الى الاسباب المتوفرة بالنسبة لقول او رفض الدعوة. احوال مكة شرحناها بالتفصيل في " محمد في مكة" وكذلك في القسم الاول من الفصل السابق وبالنسبة الى العوامل الخاصة بوعي الانسان فقد تم بحثها في الاسلام والتكامل في المجتمع والحقيقة في الاديان ([1]).

3 - مفهوم العرب للمعرفة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

ان طبيعة الاستجابة للقرآن في القرن الأول للإسلام على الأقل والطابع الدقيق لمكانته ووظيفته في حياة المجتمع الاسلامي كان مشروطا جزئيا بمفهوم متميز للمعرفة السائدة عند العرب في القرن السابع. ان التركيز على فحص هذا المفهوم هو الكلمة العربية (العلم)... في العصر الحالي واستخدمت بمعنى (العلوم) في اللغات الاوروبية. ان العلماء الدينيين التقليديين مازالوا يسمون (علماء) وهي مأخوذة من نفس اصل الكلمة(علم) لكن هذا لا يعني انهم (علماء) اي(scientist) ما له علاقة بهذه الدراسة هو ليس المعنى العام لكلمة (العلم) وانما المعنى العام الذي يميزها في اللغة العربية او المعاني العديدة لها كما هو الحال في اللغات الأخرى التي تعطي عدة معاني للكلمة الواحدة ([2]).

ان المعنى المميز لكلمة (معرفة) باللغة العربية يمكن ان نؤشرها بمعنى (الحكمة) هي الحكمة بما يتعلق بالسلوك العام للحياة البشرية والتي يمتلكها عدد محدود من الأشخاص بدرجات متفاوتة، اشخاص قد يكونوا حكماء. رجال أخرون الذين حققوا سياقات الحكمة بقدر تمكنهم من الدخول في نظريات الحكماء. ان الانسان العادي لا يستطيع اضافة الى مخزون البشر من الحكمة ولكن الحكيم فقط يستطيع ذلك...([3]).

... ان المعرفة العلمية تعطي الانسان قوة على الطبيعة، لكن معرفة التاريخ والأدب

1- Watt,Islamic revelation, p61.

2- Ibid, p61-62.

3- Ibid،p62.

بقدر ما يتعمق فهم الطبيعة البشرية تعطي المرء قوة أكبر على البشر... إن مفهوم المعرفة كمصدر للقوة له تأثير مهم على الموقف الأوروبي في دراسة الدين والتاريخ العلماني للشعوب الأخرى. فإذا كان على الأوروبي أن يشن حربا على بلد أسيوي فسيعمل على معرفة الكثير عن ماضي ذلك البلد لان هذه المعرفة ستمكنه من توقع لردود فعل العدو في الحالات المختلفة. وسيكون الدين هو واحد من عوامل المعرفة. بعض الأحيان تخطط البعثات التبشيرية بنفس طريقة العسكر، وتُعّد معرفة الاديان الاخرى مساعدة على تحويل اتباعها. لقد ازدرى الإسلام دراسة الأديان الأخرى، استناداً على ان المعرفة هي الحكمة وبما أن الأديان الأخرى بنظر الإسلام فيها خليط من الأخطاء فان المسلمين لا يعتقدون بان من الحكمة دراسة الأديان الأخرى... لدى العلماء المسيحيين تجربة مع الإسلام هي أن المسلمين يسألون لماذا تدرسون الإسلام إذا كنتم لا تؤمنون به، لقد أهمل المؤرخون المسلمون دراسة تأريخ الدول العلمانية في القرون الوسطى رغم توفر المعلومات لديهم ([1]). في مثل هذه الظروف بالإضافة إلى أن المعرفة تعني الحكمة فإنهم متأثرون بسلوك القبائل العربية التي تمجد الذات إزاء القبائل العربية الأخرى ([2]).

لقد تم عرض التناقض بين العرب والأوربيين بشكل صارخ في مفهوم المعرفة ولكن يمكن ملاحظة أن أيا منهم لم يقتصر على مفهوم واحد للمعرفة، فالأوروبيون يعتقدون ان دراسة الأدب فيه الكثير من المعرفة عن طبيعة النفس البشرية... ([3]).

رغم الموقف الاسلامي من موضوع "الحكمة" والحكماء فقد اتخذ نقل المعرفة في البيئة الاسلامية شكلا متميزا. فقد لعب حفظ نص كلام الحكماء حيزا كبيرا سواء اكان لقمان

1- لقد فات على المستشرق وات هنا ملاحظة التقدير العال من قبل علماء المسلمين لنتاج العقل اليوناني، فقد اظهروا اعجابهم الشديد بذلك النتاج ولاسيما في المجال الفلسفي، ولم يخفِ البعض تأثره بالتراث اليونانى على الرغم من انتمائه لبيئة وثنية، وفي المقابل علماء المسلمين لم يهتموا بنتاج العقل الاوربي خلال حقبة القرون الوسطى، لانه لم يكن هنالك من نتاج معرفي يستحق الاشادة والاشارة اليه بفضل سلطة الكنيسة وقيودها.

2- Watt,Islamic revelation, p62-63.

3- Ibid, p63.

ما قبل الاسلام، او للزعماء الأوائل للحركة الصوفية، وأمر طبيعي ان يعتبر محمد كرجل الحكمة وأن ما يقوله أو يفعله والذي يعرف بالسيرة أصبح لها دور مهم في التراث الفكري للإسلام. أدرك العلماء المسلمين في العام 800 م هو امر من السهولة ان يبتكروا قصصاً حول محمد وكثيرون كانوا يفعلون ذلك في حين ان اخرين كانوا يجرون تعديلا بسيطاً على القصص الأصلية. لذا فانهم ابتكروا معايير كثيرة في معرفة السيرة الصحيحة من غيرها. تعتمد هذه المعايير على دقة وصدق ذاكرة ناقل الحديث وكان تطبيق هذه المعايير يتطلب معرفة جميع أسماء ناقلي أي حديث لمحمد من ذلك الوقت ولحد الأن. وهكذا فان العالم الاسلامي اصبح فيه عدد من سير محمد لعلماء تولوا نقل الحديث من الماضي ([1]).

لقد كتب القرآن، وهو كلام الله، بنفس الطريقة وبمزيد من الخشوع. ولكن هناك اختلاف، فالقرآن كتب في عام 650م ([2]) رغم ان شكل الكتابة كان مازال غامضا. أي ان في بعض الحالات فان على القارئ ان يختار بين عدد من الطرق لقراءة الكلمة الغير منقطة او معلّمة، كما كانت هناك مجموعة من القراءات التي حفظت من قبل حفاظ القرآن وسلمت شفويا وهذا يشبه الأفكار الخاصة بنقل الحديث. في حالة القرآن يبدو ان الاعتقاد كان بان حفظ وتلقين النص للمسلم سيدخل تدريجيا في حكمته، يعتقد المراقبون الأوروبيون المتعاطفون بان اعادة وتكرار القرآن له تأثير لا واعي على النظرة العامة للمسلمين ([3]).

عندما كتب كلام الله وحفظ كما هو الحال في الانجيل والقرآن فان الاستجابة له اصبحت مستمرة. لم تكن استجابة المتلقين الاوائل له هي التي تؤخذ هنا بنظر الاعتبار بل الأجيال اللاحقة الذين استجابوا للنصوص المقدسة، و هذا ما حصل لليهودية والمسيحية ولكن الأمر حصل في الاسلام بوتيرة اكبر بسبب مفهوم المعرفة والحديث.

1- Watt,Islamic revelation, p64.

2- الذي حصل في خلافة عثمان بن عفان هو نسخ المصحف، اما المباشرة بالكتابة فان ذلك قد جرى في وقت مبكر جداً وفي عهد وحياة رسول الله محمد (ص).

3- Ibid, p64-65.

فالنص القرآني أصبح كما كان، العمود الفقري لكيان الدعوة الاسلامية... واذا أخذنا الاجيال اللاحقة فالأمر بالنسبة لها مختلف قليلا عما كان عليه الحال في السابق، حيث انها تضمنت جزءا من السيرة التي استجابت لها الأجيال الأولى. فالابن الذي يعلمه ابوه القرآن يتأثر باستجابة والده للقرآن. ان استجابة كل جيل للقرآن او لأي دعوة ألهية اخرى محكوم بعاملين : تأريخ المجتمع الديني حتى تلك اللحظة وفعل الحالة المعاصرة. ولا يحتاج الأمر للتذكير بان هذين العاملين يختلفان من جيل الى جيل... ([1]).

على كل جماعة من جماعات الاديان الكبرى و العديد من الجماعات الأخرى عليها أن تعطي معرفتها للجيل اللاحق، ففي العصور البدائية كان الأب في الغالب هو المعلم وغالبا ما ينظر الى العلاقة بين المعلم والتلميذ كما هي علاقة الاب بالابن. لقد اعتمدت السير الاسلامية، كما لوحظ على موهبة الحفظ ولكنها ايضا اخذت بعين الاعتبار مواصفات المعلم الأخرى. ويمكن ملاحظة ذلك في حرية المعلم في الابتكار من حيث طريقة التفكير التي اتبعت في استجابته هو للنص المقدس. وهذا اعتراف ضمني بان المعلم او الأب لا ينقل النصوص فحسب بل مواقفه وتجاوبه هو أيضا. إن نقل المعرفة كان له دور مهم في المجتمع ([2]).

... الغزالي (المتوفى عام 1111م) ([3]) وهو من منظري الإسلام العظام، وضع نظرية بحيث ان كثيرين من المتصوفة كان لديهم تجربة روحية مقاربة لتلك التي لدى محمد. الكلمة التي استخدمت فيها هي (الذوق). بدأت نظريته من مسألة الاختلاف بين سماع وصف مكان ما او شخص ما وبين رؤية ذلك المكان او الشخص بشكل مباشر، وجادل بان هناك نفس الاختلاف بين مواصفات الحقائق الروحية في القرآن والسيرة النبوية وبين ان تكون للمرء تجربة مباشرة معهما، هذه الخبرة المباشرة" الذوق" التي أكد على امتلاك

1- Watt,Islamic revelation, p65.

2- Ibid, p65-66.

3- ابوحامد محمد الغزالي (450 - 505هـ/1058 - 1111م) احد ابرز علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري.

الصوفية لها. وعلى العموم فهو لا يدعي بأن التجربة المباشرة هي التي جلبت حقيقة الرواية للصوفيين بل انها أعطت معرفة كاملة حول حقائق القرآن والسنة النبوية. يبدو لأغلب الأوربيين ان هذه نظرية معقولة ولكن لابد من القول ان هذه رغم مصداقية الغزالي العظيمة، لم تحصل على القبول الكامل. لاشك هذا يعود إلى ان نظرية الغزالي لا تطبق نظرية المعرفة كأساس للحكمة ([1]).

قد يبدو غريبا أن مفهوم العرب للمعرفة كأساس للحكمة قد انتشر على نطاق أوسع من العالم العربي بين المسلمين من أعراق عديدة و كان أوضح تفسير لهذه الحقيقة هو أن القرآن يعالج مشاكل الإنسان الأساسية ولهذا فقد قبل على نطاق واسع فمعالجة الحقائق الأساسية للحياة الإنسانية تقابل بترحيب من المجتمع كما هو الحال في الإسلام. ان المعايير الضمنية في اللغة تصبح غير واردة. فالناس الذين يشرفون على الغرق مستعدين لقبول أي منقذ كفوء. ولكن هذا ليس هو التفسير الكامل. ان اي جماعة لها خلفية ثقافية مميزة يصبحون جميعهم مسلمين فلابد ان تأتي اوقات للضغط العصيب والتوتر من هذا النوع او ذاك فان التجاوب سيكون مشروط بخلفيتهم الثقافية ولأنهم مسلمون فانهم سيرجعون الى النصوص القرآنية للاستجابة الى ذلك التوتر ولكن اختيار الآيات القرآنية وتفسير تلك الآيات سيتأثر بثقافتهم السابقة. ان مثل هذه الأمور قد تثير المزيد من الاختلاف داخل المجتمع فقد يتصور كل طرف بان هناك مخاطر قد تهدد حياة المجتمع ([2]).

تستحق هذه القضية في المسيحية والإسلام مزيدا من الدراسة. لقد أخذتها بنظر الاعتبار لان بعض عواملها في أماكن أخرى ولكن مازال هناك الكثير الذي يتعين القيام به. ان أساس المشكلة هو امتصاص الخلافات من عقلية النظام الفكري العام للدين.

1- Watt,Islamic revelation,p66. في هذا التعبير المستشرق وات استخرج فكرته من خارج التجربة، ففي مقارنة الغزالي للقوة الروحية التي حصل عليها المتصوفة من خلال السلوك والصفائيات مع الرقي الروحي للرسول (ص) في تجربته عبر الوحي والتلقي.. هذا نظرٌ من السطوح وليس لهذا المستشرق ان يدخل في عمق التجربتين الصوفية من جانب والنبوية من جانب اخر مختلف.

2- Watt,Islamic revelation, p66-67.

ان الدين العظيم الذي يحتوي الكثير من التنوع في الأعراق لابد ان تبقى فيه خلافات بين الطوائف او اتجاهات الرأي. ولكن العديد منها امتص او اختفى. قد يحلو للبعض الاعتقاد بان بعض الذين جاءوا من عقلية مختلفة وجدوا ان عقليتهم قد تم احتواءها بالعقلية الجديدة السائدة في دينهم الجديد. ولكن لا يوجد ما يؤكد بان هذه الفكرة صحيحة في كل الحالات، وفي حالات يكون هنالك قبول وتكيف حقيقي. ومن الجدير بالذكر إن العقلية الفارسية ازدهرت بشكل واضح في افكار الثقافة العربية والإسلامية ([1]).

ان الاعتبارات التي ذكرت في الفقرات السابقة لها علاقة بالحالة المعاصرة. يواجه المرء مشاكل معينة كعضو في مجتمعات مختلفة، قد تكون المشاكل سياسية أو اجتماعية او محلية، في بعض الحالات يكون الدين مهما جدا لأنه يعالج أمورا حيوية للأحداث وهو يمثل المجتمع الأكبر. وكما ذكرنا في السابق فان الانسان الذي يواجه مشكلة فانه يرجع الى مجتمعه الديني. وسيكون تجاوبه مع الحالة طبقا لتاريخه، والسير ليس بالضرورة من خلال النظر للسوابق الصارمة وانما بالتكيف للظروف الراهنة الجديدة حيث ان هنالك مشكلة ينبغي ايجاد الحل الافضل لها وفقا لجذور المجتمع وتاريخه. ان لهذا المبدأ اثار هامة بالنسبة للعمل التبشيري. ان حركة البعثات التبشيرية المسيحية والتي بدأت عام 1800م لم تفرق بين تمسيح او أوربة الناس. كانت تتوقع تحول الناس من دياناتهم القديمة وكذلك العمل على ثقافاتهم وعقلياتهم القديمة ايضا. ربما كان لهذا ما يبرره لأنهم كانوا يتعاملون مع مجتمعات بدائية نسبيا وهذا تصور غير مرضي و خطير ومضلل عندما يطبق مع أديان عظيمة وعالمية ([2]).

وأخيرا قد ننظر في مسألة نظرية. بقي الكتاب المقدس (المفترض انه من الوحي) كما هو من جيل الى أخر، ولكن حصل اختلاف بسيط في وظيفته، في المسائل التي يتم التأكيد عليها او في تفسير بعض نصوصه. هنا يبرز السؤال : هل ان

1- Watt,Islamic revelation, p67.

2- Ibid, p67-68.

الشكل الشفهي فيه معاني عديدة ؟ او ان الرجال المعاصرين يقرؤونه بشكل جديد على افتراض ادخال معاني جديدة في شكله الشفهي؟ اذا كان البديل الأخير اقرب الى الحقيقة فقد يكون البعض قد وضع مفهومه الى الشكل اللفضي لعلاقته مع البعد التاريخي. ليس من وظيفة هذه الدراسة الإجابة على هذه الأسئلة ولكن قد تخدم موضوع التفسير في الفصل القادم ([1]).

1- Watt,Islamic revelation,, p68.

قراءتنا النقدية لما ورد في الفصل الرابع

1 ـ الاستجابة لدعوات الانبياء

طرح وات هنا اثارة خطيرة ومغالطة واضحة حينما تحدث عن عملية استجابة الناس لدعوة النبي محمد (ﷺ)، اذ رجع الى بعض الآيات القرآنية ليؤكد على ان الاستجابة مرتبطة بمشيئة الله تعالى وارادته، وفق نظرية الجبر والتفويض، ووفقاً لهذه الارادة الالهية فان فعل الانسان سواء اكان خيراً ام شراً هو موجه ومسير ومرتبط بمشيئة الله تعالى، وعليه فان استجابات الناس لدعوات الانبياء، هي خاضعه للارادة والمشيئة الالهية : ((كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)) ([1]) بارادته هو لا بارادة الانسان، ووفقاً لذلك فان موقف قبول دعوة النبي محمد (ﷺ)، او موقف رفضها وفق رؤية وات هي ليست اختياراً بشرياً، بل هي ارادة الهية ([2]).

يبدو ان المستشرق وات لم يفهم تماماً المضمون القرآني الذي ورد في بعض الآيات، كما انه لم يفهم الموقف الاسلامي من نظرية فعل الانسان وعلاقة هذا الفعل بالارادة الالهية، فهو يسعى للتأكيد على ان نظرية الاسلام قائمة على ان الانسان مسير وليس مخير في افعاله، وهذا ليس بصحيح فعلماء الامة لايؤمنون بقول وات هذا اطلاقاً، فالانسان لايمكن تسييره وتوجيهه بهذه الطريقة، لان ذلك يتقاطع مع قوانين الله تعالى ويتعارض مع عدالته، ومع مبدأي الثواب والعقاب الذين توعد بهما عباده.

1- من الآية (31) سورة المدثر.

2- يجب الانتباه الى ان كلام وات هذا لا يعد اعترافاً بنبوة محمد (ص) ولا بالقرآن الكريم على انه كلام الله تعالى، انما يريد بهذا الكلام احداث التناقض والتقاطع في اصول الفكر الاسلامي.

هذه الاثاره التي طرحها وات، ليست بجديدة، فهي من المسائل التي شغلت الامة الاسلامية في وقت مبكر جداً، تعود زمنياً الى العصر الاموي، وقد ساهم حكام بني امية بالترويج لها وتوظيف نتائجها لمصالحهم السياسية، وتثبيت اركان دولتهم، فالتاريخ يخبرنا بأن المجبره (الجبرية) قد ظهروا في هذا العصر، وكانوا يقولون بأن فعل الانسان مخلوق لله تعالى سواء اكان هذا الفعل خيراً ام شراً، وان الانسان ليس له ان يختار هذا او ذاك، لان الله تعالى هو الذي يوجهه حسب ارادته للقيام بذلك الفعل او هذا. وبالتالي ارادوا ان يأسسوا لثقافات تخدم مصالحهم السياسية حتى يقولوا ان افعالهم التي ارتكبوها تمثل ارادة الله تعالى ومشيئته، وهي مقدرة على الناس منه تعالى، وبذلك فان كل الجرائم التي اقترفوها من قتل وظلم للعباد انما كانت مقدره عليهم من الله تعالى، فلا يعترض الناس عليهم ولا يسعون للثورة على اصحاب السلطة، انما يشعرون بالرضا والقبول لاعتقادهم ان ذلك يمثل ارادة الله وقضاءه. هذا ما اراده الامويون ان يشيع بين الناس مستندين في ذلك الى قوله تعالى : ((اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)) ([1])، وفي مكان اخر قوله تعالى : ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) ([2]).

واقعاً نحن هنا لسنا بصدد البحث فيمن زّوُج، واسس لفكرة القضاء والقدر والجبر، ولكننا متيقنيين تماماً ان الامويين كان لهم دور كبير في ذلك، لما يساهم في تثبيت اركان دولتهم ويخدم مصالحهم السياسية، وممكن ان نصنف هذا الدور الذي تم بالتعاون مابين السلطة الاموية وبعض علماء المسلمين المعاصرين لهم، بانه نتاج التحركات الفكرية الاولى التي سعت للاجابة على تساؤلات مهمة وخطيرة ومثيرة، كالسؤال : هل ان الانسان مخير ام مسير في افعاله ؟

بعدها ظهرت جماعة تسمى بالقدرية او المفوضة، والقدرية الذين يقولون بأن فعل الانسان يصدر عنه خيراً كان او شراً، انطلاقاً من قدرته وعقله وعلمه وتحركه، وبالتالي

1- الآية (62) سورة المدثر.

2- الآية (96) سورة الصافات.

فهو صادر بأرادته الكاملة دون ان يكون لله تعالى اي تدخل في ذلك، ويبدو ان القدرية في ظهورهم كان كرد فعل لظهور الجبرية، واستدلوا على ان الله تبارك وتعالى منح الانسان حرية الارادة والاختيار دون تدخله كما في قوله تعالى : ((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)) ([1]) اي ان هذا الانسان الذي اعطاه الله تعالى العقل وعلمه الشريعة، هو صاحب الاختيار في فعله خيراً كان ام شراً دون ان يكون لله تعالى اي تدخل في ذلك.

ويلاحظ ايضاً ان عقيدة المعتزلة في افعال الانسان تلتقي مع فكرة القدرية ([2])، وقالوا بمبدأ حرية الارادة في افعال الانسان، وانه مستقل في افعاله وليست له حاجه الى الله تبارك وتعالى.

هذه الافكار في الواقع افكار ناقصة غير سليمة، والجواب على ان الانسان مخير ام مسير في افعاله، هو امرٌ بين امرين، هو الطريق الوسط الذي عليه مذهب ائمة ال البيت (عليهم السلام)، والتوفيق بين الامر الاول، والامر الثاني، ولذلك عُبر عنه بأنه الامر بين الامرين حيث يقول الامام جعفر الصادق (ع) سلام الله عليه :" لا جبر ولا تفويض " بمعني لا سلب لحرية الانسان بالاختيار ولا حرية مطلقة، ولكن امرٌ بين امرين [3].

وخلاصة ذلك ان افعالنا هي افعال حقيقية تتم بمحض اختيارنا، واسبابها طبيعية كلها تتم ضمن قدرتنا واختيارنا، ولكن هذه الافعال الممثلة لارادة الانسان تدخل ضمن دائرة سيطرة الله تعالى، ولا يمكن لها ان تتعارض مع ارادة الله تعالى وسلطانه، لانه هو الامر والناهي في كل شئ، قال تعالى : ((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

1- الآية (3) سورة الانسان.

2- حول عقيدة المعتزلة.

3- ينظر : شبر، عبدالله، حق اليقين في معرفة اصول الدين، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بلا، 1997، جـ 1، ص 149 - 150.

الْعَالَمِينَ)) ([1])، فمشيئة العبد الانسان متوقفة في تحققها على مشيئة الله تعالى، وبعبارة اكثر وضوحاً، فعل الانسان الذي يمثل ارادته واختياره يتحقق ويكتمل تارةً، ولايكتمل مهما سعى لتحقيقه تارةً اخرى، انسجاماً مع ارادة الله تعالى، بمعنى ان الانسان يقوم بالفعل باختياره وارادته خيراً او شراً، ولكن نجاح الفعل وتمامه في تحقيق الهدف مرتبط بارادة الله تعالى ومشيئته.

الانسان بعد ان خلقه الله تعالى ومنحه الحواس، وانعم عليه بنعمة العقل، وحرية الارادة واعطاه الطاقات والقدرات، بذلك اصبح حراً في الاختيار، ولكن هذا الفعل الصادر عن الانسان بارادته وعقله واختياره لايصل الى هدفه ولاتكتمل غاياته الا بما ينسجم والمشيئة الالهية، فان الله تعالى يتحكم بالمسارات العامة للبشرية، والنتائج، وعليه لاتكتمل ارادة الانسان الا بعد ان تنسجم مع ارادة الله تعالى ومشيئته.

ولنستعين بمثال حتى تتضح الفكرة بصورة اكبر، نقول ان هذا الانسان لو قرر ان ينتحر بمحض ارادته، اما بسبب ظروفه التي يعاني منها، كالحرمان والقهر او لاسباب اخرى اوصلته الى حالة اليأس والاستسلام فقرر الانتحار، على الرغم من ان الله تعالى منح الانسان العقل والقوة والصبر ليوظفهن في مواجهة التحديات، والتغلب على ظروفه وان لا يستسلم. على اية حال لو قرر الانتحار، فانه هذا الانسان هنا لم يوجه من قبل الله تعالى لهذا الفعل، ولم يجبر على ذلك، انما كان بمحض ارادته واختياره. هنا سنلاحظ كيف تتحقق الموائمة بين اختيار الانسان للانتحار وبين مشيئة الله تعالى.

لو افترضنا ان هذا الانسان الذي قرر الانتحار برمي نفسه من فوق بناية مرتفعة جدا، قد كتب الله تعالى ان تقبض روحه هذا اليوم : فهل سنقول ان الله تعالى كتب عليه ان يقتل نفسه هكذا بهذه الطريقة !!! او ان الله تعالى كتب عليه القتل !!! الجواب كلا فهذا الانسان قد اختار الانتحار بارادته، رغم ان الله نهاه عن ذلك، ولكن فعله هذا

1- الآية (29) سورة التكوير.

توافق مع ارادة الله ومشيئته بقبض روحه هذا اليوم، فتحقق الموت على الطريقة التي اختارها هو بنفسه. ولو افترضنا ان الله تعالى كتب له عمراً اطول، وان لا تقبض روحه هذا اليوم، فهذا الانسان الذي سيقدم على الانتحار لن يكتمل هدفه ولن يتحقق لانه تقاطع مع ارادة الله، فيقوم برمي نفسه من مكان مرتفع وقد تتكسر عظامه جميعها الا انه لا يفارق الحياة، فارادته وهدفه المتمثل بالموت لن تتحقق لان ارادة الله تعالى له بالحياة هي النافذة، وهذا مانسميه الامر بين الامرين، اي ان فعل الانسان مرتبط بارادتين، ارادة الهية عليا، وارادة الانسان نفسه، فان اتفقتا تم هذا الفعل واكتمل، وان لم يتفقا فان ارادة الله تعالى هي الغالبة المتحققة على ارادة الانسان حتى وان سعى في اتمام فعله. لان الامر لاينطبق على مستوى فعل الفرد، بل الحالة مماثلة في حركة المجتمعات والدول، وهذا الامر نراه بوضوح في قيام الدول وسقوطها، او قيام انظمة الحكم وسقوطها، وهكذا فان المتغيرات التي يشهدها العالم على مستوى المجتمعات والدول، والتي تأتي نتيجة فعل الكتل البشرية لتحقيق غاية معينة لاتتحقق اهدافها الا حينما تتفق مع الارادة الالهية، والا فانها وان قامت بالحركة ستفشل بالوصول الى اهدافها، وهكذا هو حال الثورات والغزوات، نجاحها يعني توافقها مع ارادة الله تعالى، وفشلها يعني تقاطعها مع ارادة الله تعالى .

2 ـ اسس قبول الدعوة الاسلامية

بحث وات هنا المعجزة التي لابد من وجودها لتدعم مصداقية كل نبي من الانبياء، وتساهم في قبول دعوته. لقد تحدث عن الانبياء ومعجزاتهم كقصة نبي الله موسى (ع)، وهو يقول :" لابد من ان تكون هنالك معجزة لاحداث حالة تفاعل مع هذا النبي او ذاك " ثم يقول :" ان مفهوم تقديم المعجزة او الدليل اصبح بارزاً في الدعوة الاسلامية لاحقاً " بمعنى ان النبي محمد (ﷺ) لم يقدم اي معجزة طيلة سنوات الدعوة، كما هو

حال الانبياء السابقين، ولكن في العصور الاسلامية التي تلت وفاة النبي محمد (ﷺ) تبلورت فكرة المعجزة، وطرحت على انها كانت موجودة في حياة النبي (ﷺ)، وبعبارة اكثر وضوح اراد القول ان علماء المسلمين في وقت متأخر ابتكروا فكرة حضور المعجزة في حياة النبي (ﷺ)، لدعم حقيقة نبوته. ونص كلام وات هو :" محمد لم يستعمل اية معجزة لاقناع العرب بانه رسول الله " لم يأتي باية معجزة كاحياء الموتى، او شفاء المرضى او غيرها مما عرفت من معجزات عن الانبياء، كما ان الآيات التي جاءت في القرآن الكريم ركزت على عظمة الله تعالى وقوته، ولم تبحث في مصداقية رسالة محمد (ﷺ).

هذا الكلام الخاص بالآيات القرآنية في الواقع سليم جداً، فعلا الآيات الاولى ركزت على بيان عظمة الله تعالى وقوته وقدرته وعلاقة الانسان بربه، ولم تتطرق الى موضوع مصداقية الرسالة وادلة اثباتها، لانه لايعقل ان تتحدث الى قوم، وفي بداية حديثك، وقبل ان يعلموا عماذا سوف تتحدث، تقوم بعرض المعجزات لتؤكد نبوتك، وانك مرسل اليهم من قبل الله تعالى، فمن المنطق ان تتحدث اليهم، وتبين لهم طبيعة الدعوة ومضمونها، بعد ذلك اذا طالبوك حتى يصدقوا ان تأتيهم بمعجزة، وبما يثبت صدقك، حينئذ تضع المعجزة بين ايديهم، وامام اعينهم بامر الله تعالى ليتثبتوا وليصدقوا .

ان واقع الحال، وماحصل في بداية الدعوة ان النبي محمد (ﷺ)، توجه لقومه يدعوهم للاسلام وهو مليئ بالمؤثرات الشخصية المباشرة، والتي لا حاجه معها الى اي معجزة لغرض التصديق، فمن هذه المؤثرات : انه (ﷺ)كان معروفاً لاهل مكة بصدقه وامانته واتزانه ورجاحة عقله، وكان ممن ينالون ثقة عموم الناس، وعليه فان ماشاع عنه (ﷺ) من اخلاق حميدة كانت من بين المؤثرات المهمة، التي يمكن ان تساهم في خلق استجابة جيدة لدعوته ([1]).

1- ينظر: الطبري،محمد بن جرير (ت310هـ)، تاريخ الامم والملوك، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1408، جـ1، ص542، ابن الاثير، علي بن محمد بن محمد عبدالكريم الشيباني الجزري (630هـ)، جـ 2، ص41.

ومن المؤثرات كذلك المبادئ الانسانية المليئه بالعدالة والانصاف التي تحدث بها النبي (ﷺ) مع الناس، والتي عبرت عنها الآيات القرآنية التي قرأها النبي (ﷺ) عليهم، هذه وماقبلها كانت كفيله باحداث استجابة جيدة، عندها لن تكون هنالك اي ضرورة للمعجزات. اذن شخصية النبي محمد (ﷺ) وماتميزت به من خصال جميلة، والنص القرآني روعته وايجازه ومضمونه، كلها كانت مؤثرات ضخمة على واقع الاستجابة الاجتماعية للدعوة الاسلامية.

المشكلة ان زعماء مكة كانوا مسيطرين على نسبة عالية من حركة الناس واستجابتهم لاي دعوة، بل كانوا هم الموجهين لهم كيفما شاءوا، ويمكن القول ان غالبية اهل مكة انذاك كانوا مسلوبي الارادة، ارادتهم تحت سيطرة زعماء مكة، الذين دفعوا الناس للاحجام عن الدعوة، وعدم الاستماع للنبي محمد (ﷺ)، لانهم احسوا بخطورة المؤثرات، احسوا بقوة تأثير النبي (ﷺ) على الناس، ولذلك نقول انه (ﷺ) لم يكن بحاجة الى معجزة لدعم دعوته.

تأكيداً لما قلناه ان كل من استمع للنبي محمد (ﷺ) بشكل مباشر كان يؤمن بدعوته، ففي السنوات الاولى من الدعوة، والتي اصطلح عليها بالسرية، كان النبي (ﷺ) يختلي بافراد من اهل مكة ينتقيهم اما لقرابتهم به او لمعرفته بهم، او لحسن ظنه بهم، وهكذا كان يتحدث اليهم فرداً، فرداً، حتى اجتمع لديه ممن امنوا بدعوته خلال هذه المرحلة اكثر من خمسون مسلماً ومسلمة ممن صدقوه وامنوا بدعوته دون ان يطالبوه بمعجزة ([1]). وهذا الامر واقعاً خلاف ماشهده الانبياء السابقون الذين طولبوا بالمعجزات لتأكيد نبواتهم، فما شهده الحواريون من معجزات جاء بها عيسى (ع) هي دلائل تصديقهم بنبوته ([2]).

1- ينظر ابن هشام، عبدالملك الحميري المعافري (ت 218هـ)، السيرة النبوية، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1994، جـ1، ص ص 287 - 298.

2- الحواريون اصحاب عيسى عليه السلام الذين لم يتجاوز عددهم الاثنا عشر، ما كان لهم ان يؤمنوا بنبوته حتى شهدوا المعجزات على يديه. ينظر: محمود، المسيحية، ص27.

اما في السنوات اللاحقة من الدعوة، فاساليب الانكار والمعاندة والاستكبار التي اتخذها زعماء مكة مع دعوة النبي محمد (ﷺ)، لم يكن لينفع معها الآتيان بالمعجزات، لانهم قرروا محاربة الدعوة باي شكل من الاشكال.

الفصل الخامس : " تفسير الدعوة "

1 - " التفسير الابتدائي "
2 - " منهج التفسير وتوظيفه "
3 - " طرق التفسير"

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الخامس
1 - التفسير الابتدائي للقرآن الكريم
2 - منهج التفسير القرآني وتوظيفه
3 - طرق التفسير

1 - التفسير الابتدائي (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

ان التفسير الابتدائي والعصري للوحي يقوم حتما على الحالة الفكرية السابقة للمتلقين . لقد ناقشنا بالفعل بان الوحي موجه إلى المتلقين وفق نظرة معينة وبالاستناد الى إدراكهم للعالم والبشرية ومدى تألفهم معه . ان القرآن العربي يفترض العديد من جوانب العقلية العربية . وعلى اية حال دعونا الأن ننظر الى هذه المسألة من منظور مختلف ونناقش كيف ان العقلية العربية قادت المسلمين الأوائل الى فهم نص القرآن .

يفسر السامعون الوحي وفقا لمفردات الكلمات المألوفة لديهم، أحيانا قد يحتاج الوحي الى التعبير عن افكار غير مألوفة للمتلقين وفي هذه الحالة تعطى الكلمات المألوفة لهم معاني جديدة او إضافية من الكلمات التي عولجت على هذا النهج في القرآن هي كلمة (الوحي) والتي فنياً تعني (revelation) كان لهذه الكلمة عموما معنى عام وهو (إعطاء إشارة) او (يؤشر) ، في عهد ما قبل الاسلام كان المعنى لكلمة (كافر) وتعني (ungrateful) وقد استعملت في القرآن بنفس المعنى . ثم جاءت فكرة ان يكون الإنسان لا يعترف بأن الله الاهاً واحداً وهو مصدر الخير للإنسان فأصبح معنى كلمة كافر فنياً هو (غير المؤمن) وقد استعملت بتكرار في القرآن بهذا المعنى ... ([1]) .

ان التفسير الأولي للقرآن يعود كما قيل الى إشارات لمراجع معينة في الآيات القرآنية، فمثلا من اجل فهم الكلمات الافتتاحية للسورة رقم (80) : ((عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)) ([2]) علينا ان نعلم ان محمدا هو الذي عبس

1- Watt,Islamic revelation, p69 .

2- الآيات (1 - 3) سورة عبس .

وسيكون مفيدا ان نعرف من هو الأعمى ([1]) . كان المسلمون في ذلك الوقت الذي نزلت به هذه الآيات يعرفون كلاً من محمد والأعمى وربما كانوا قد سمعوا عن القصة . اما أولئك الذين لم يصبحوا مسلمين الا بعد وفاة محمد ، فقد تم شرح القصة لهم ، وكذلك بالنسبة للقصص الأخرى المتعلقة بالرسل السابقين . ربما لم يكن اغلب المسلمين على اطلاع واسع على تلك القصص فيقوم المسلمون ذوي الخبرة الأكبر بشرحها لهم ، كما كان هناك أشخاص في تلك الفترة قد تخصصوا بجمع المعلومات من هذا النوع وقد يضطرون أحيانا للبحث عنها من اليهود والمسيحيين . كانت هذه التفسيرات والتوضيحات يمكن ان يقال انها أنشطة يقوم بها جميع أفراد المجتمع ([2]) .

تشير آيات عديدة من القرآن الى التجارب المشتركة للمجتمع الاسلامي . مثل معارضة الوثنيين المكيين قبل الهجرة ومعارضة اليهود في المدينة ومعارك بدر وأحد ، أولئك الذين اسلموا في زمن الوحي فان التطبيقات كانت واضحة لهم ، اما أولئك الذين اسلموا في المرحلة اللاحقة كان من متطلباتهم ان يعرفوا شيئا عن الظروف التاريخية للوحي . وتدريجيا كلما زاد وعي عقولهم كانت الحاجة الى المعلومات التاريخية أقل وعندما ساد مفهوم القصص التاريخية الغربية كان هذا الإطار قد أصبح سهلاً . بينما كان مفسرو القرآن يحتفظون ببعض المعلومات حول ظروف او مناسبة نزول آية ما ، و كانت

1- اثبتت العديد من المصادر الاسلامية ان الذي عبس في وجه الاعمى لم يكن النبي محمد (ص) اطلاقاً ، ومما نستند عليه في ذلك وصف الله تعالى نبيه محمد (ص) : (وانك لعلى خلقٍ عظيم) وفي مكان اخر : (بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم) ، يتقاطع هذا الوصف الالهي مع طبيعة العتاب الوارد في سياق الآيات في سورة عبس اذا وافقنا على القول بان المقصود بعبس هو النبي محمد (ص) . ان الآيات نزلت بحق رجل من بني امية كان عند النبي (ص) هو الذي عبس بوجه الاعمى (عبدالله بن أم مكتوم) . للمزيد حول تفسير الآيات من سورة عبس ينظر: الطباطبائي ، محمد حسين (ت1402هـ/1982م) ، الميزان في تفسير القرآن ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت .

2- Watt,Islamic revelation, p69-70 .

هنالك معلومات اقل بكثير مما كان مأمولاً تم الاحتفاظ بها ، كما كان هناك تناقض في تلك المعلومات . ويمكن القول أيضا ان تلك الظروف او المناسبات التي نزلت بها الآيات كانت من حدس علماء المسلمين في المرحلة اللاحقة ([1]) .

عندما يحتوي الوحي أوامر مباشرة فان على المسلمين ان يستجيبوا لها فورا وفقا للتفسير الأولي لها أي إتباع معنى الكلمات الواردة فيه ، فعلى سبيل المثال الأمر الذي ورد في السورة (74) ([2]) والتي تأمر للقيام في الليل من اجل التعبد . حتى هنا في كيفية قيام المسلم بتنفيذ الأمر فان الأمر لابد ان يكون بإتباع ما يقوم به محمد والمسلمون الآخرون . قيل ان بعض القصص القرآنية تحتوي أوامر غير مباشرة ، على سبيل المثال عندما يكون احد شخصيات القصة يستحق التقليد . لقد وردت هذه الحالة في قصة يعقوب مثلا عندما تم ذكر « الصبر الجميل» في (الآية 18 من السورة 12) ([3]) فمثل هذا الأمر غير المباشر يجب ان يطبق اذا ما واجه المسلم حالة يحتاج فيها الأمر الى الصبر وهنا على المسلم ان يفعل مثلما فعل يعقوب ... ([4]) .

اذن كان امرا معقولا ان لا يطبق الأمر الا بعد ان يكون هناك تفسير اولي له . ان الله يريد بالوحي ان يكون ذا تأثير كي يستجيب له الانسان إيجابيا ولكن قبل ان يستجيبوا فان عليهم ان يفهموا معنى الآيات المنزلة وعلاقتها بواقع حياتهم . لذا فان التفسير ضروري لعلاقته بالاستجابة وهو جزء لا يتجزأ من البنية التاريخية للوحي ([5]) .

1- Watt,Islamic revelation,p70 .

2- سورة المدثر .

3- قوله تعالى ((وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)) من سورة يوسف .

4- Ibid, p71 .

5- Ibid, p71-72 .

2 - منهج التفسير وتوظيفه (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

لقد أوضح القسم السابق ان الوحي المنزل وثيق الصلة بالحياة اليومية للمجتمع وبشكل خاص تفسير القرآن الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من البنية التاريخية للإسلام . ففي العقود والقرون التي أعقبت وفاة محمد توسع المجتمع الإسلامي توسعا كبيرا وصل إلى ملايين من أعراق مختلفة منتشرة على مساحات واسعة من الكرة الأرضية . وكلما يتوسع المجتمع تصبح الأمور فيه معقدة بشكل متزايد . ان الاستجابة الأساسية وطبيعة الحياة قد استقرت ولكن يمكن ان يحتاج الأمر الى استيضاحات وتطبيقات مختلفة ... اذ ان تطور المجتمع اوجد حالات جديدة ومشاكل جديدة . رغم ان التفسير امر جديد الا انه ليس بالمعنى الذي تم التعبير عنه سابقا في الوحي ولكن بطريقة غير مباشرة ([1]) .

لقد حضي التكييف القانوني والعملي للوحي باهتمام كبير في القرنين الأول والثاني الهجري . فكان لابد ان يستمر العمل بإدارة الدولة الإسلامية وحكمها وفي نشر العدالة . وكان هناك مجموعة من المسلمين المتحمسين الذين أصروا على ان هذا العمل يجب ان يستند الى مبادئ القرآن . تضمن تكييف القرآن للتطبيقات والمبادئ العامة الموجودة في القرآن قياساً بالحالات والظروف الجديدة . لقد وجد المسلمين ان عملية التكيف هذه لابد وان يضاف لها «السنة» او السيرة النبوية التقليدية لمحمد والتي يمكن الحصول منها على السوابق . لذا فقد اعتبرت السيرة النبوية كوحي ثانوي على افتراض يقوم على ان سلوك وممارسات محمد تكون وفقا لفهمه للوحي وبما انه هو متلقي الوحي الاول ومقربا منه فان فهمه له هو الأفضل من بين المسلمين . وبهذا فقد وضع المجتمع الإسلامي نظاما قانونيا وفقا للوحي ([2]) .

1- Watt,Islamic revelation, p72 .

2- Ibid, p72-73 .

من التفسيرات المثيرة للاهتمام ما يسمى بعقيدة عدم خلق القرآن . كان المسلمون يعتقدون بان القرآن هو كلام الله ... نزل على شكل نص شفهي . وبعد مرور قرن على نزوله لم يسأل احد عما اذا كان القرآن قد خلق ام لم يخلق ... فقد تم إعدام الشخص الأول الذي ادعى ان القرآن غير مخلوق ([1]) وكان ذلك بعد مائة عام على وفاة محمد . وقد نوقش هذا الموضوع بضراوة في العصر العباسي بسبب تبنيهم لهذه الفكرة ... لقد كانت هناك مشكلة عملية في توجيه السؤال الاتي : هل ان تكييف المبادئ الإسلامية لموائمتها مع الوضع الجديد هي من مسؤولية الامام او زعيم المجتمع نظرا لبصيرته وتوجهه الروحي ام انها وظيفة اولئك المتخصصون بدراسة القرآن والسنة النبوية ؟ لم يكن الأمر مفاجئاً ان يفضل الذين يحيطون بالخليفة الخيار الأول بينما كان العلماء يفضلون الخيار الثاني .

لقد أجبرت هذه المشكلة العملية وتشعبانها السياسية المجتمع الإسلامي للإجابة على سؤال عما اذا كان القرآن هو مخلوق ام غير مخلوق ، واذا ما قيل ان القرآن كتاب مخلوق فهذا يعني انه لا يحتوي على الصفة الالهية ([2]) .

واذا كان القرآن غير مخلوق وهو كلام الله فهذا يعني انه من طبيعة الله الاساسية ولا يمكن لأحد ان يقف ضدّه .

ان وجهتي النظر هما اساس الاختلاف في المجتمع الاسلامي بين الشيعة والسنة وهناك واقعية في وجهتي نظرهما . حتى اليوم يبدو ان السنة عموما كانوا مؤثرين أكثر في الممارسة ، ولكنهم طوروا شكلا جامدا . بينما الشيعة كانوا محقين بالتأكيد على الحاجة الى قائد ملهم سواء في الميدان السياسي او الفكري . فالإمام هو حاكم مطلق لان الخطر هو ان يقاد المجتمع بعيدا عن جذور الرسالة، لذلك فان الجماعات الشيعية تقف

1- الاشارة هنا الى احمد بن حنبل (164 - 241هـ) الذي لم يوافق الخليفة العباسي والمعتزلة في قولهم بخلق القرآن ، فتعرض اثر ذلك الى اصناف من العذاب ، حتى افرج عنه في عهد المتوكل العباسي . وبذلك فهو لم يقتل كما ذكر المستشرق وات .

2- Watt,Islamic revelation, p73 .

ضد هذه الفكرة ([1]) .

إضافة الى الحاجة للأمور العملية والتي أُلحقت بتفسيرات إضافية للوحي فان المجتمع الإسلامي له حاجات فكرية ايضا .كانت الحاجة الأساسية هي الى فكر ذو نظرة عالمية تستند الى الوحي ...كانت الصعوبات الفكرية موجودة لدى اولئك الذين أصبحوا مسلمين بعدما كانوا مؤمنين بعقائد أخرى ، حيث انهم جاءوا من خلفيات فكرية تختلف عن تلك التي لدى العرب الذين وجهت اليهم الرسالة اولا. لقد قادت هذه الصعوبات الفكرية الى تطور نظرية جديدة لها علاقة بالقضايا العملية ([2]) .

كان الناس يبحثون عن مقاييس تتصف بالثبات على المستويين العملي والفكري . ومن هذا المنطلق بدأ العمل في مسالة المنهجية والتي قد يعدها البعض نوع من انواع التفسير ... ان أسهل طرق وضع المنهج هي في وضع أسس العقيدة . وقد كان لقانون الإيمان المسيحي وضع رسمي بموجب قرار مجلس الكنائس . ولكن في الإسلام فان سلطة مدونة العقيدة لا تتعدى الذين كتبوها . فاذا كان كاتب هذا المنهج هو زعيم إحدى المذاهب فان أتباع المذهب او المدرسة الدينية سيقبلون به ويكون سلطة فيها . في كتابة منهج العقيدة فان المفكر عليه ان يجيب على اسئلة مثل هل ان القرآن مخلوق او غير مخلوق . ومدى موائمة هذا الأمر مع بقية معتقدات المسلمين . قبل ادخال أي معتقد في المنهج الأساسي فانه يخضع لنقاش طويل . من بينها دعم الآيات القرآنية لبعضها البعض سيؤخذ بنظر الاعتبار ومسائل قواعد اللغة والصياغة والتي ستعمل جميعها على تبرير هذا التفسير على التفسير الأخر. لو تابع المرء جدلا ما عن قضية واحدة خلال فترة قرن من الزمن او قرنين سيجد ان صياغة العقيدة تأخذ محتوى كبير من المجهودات الفكرية ([3]) .

1- Watt,Islamic revelation,p73-74 .

2- Ibid, p74 .

3- Ibid, p74-75 .

ان ثبات النظام الفكري مرتبط بوحدة المجتمع . يحصل ان مجموعات مختلفة تريد ان تضع تكييف مختلف لظروف جديدة فعادة سيكون هناك تأثير للعوامل الاقتصادية ولاختلاف الخلفية الثقافية او لكليهما وقد يقود هذا الى خلافات حادة في المجتمع الواحد لاسيما اذا شعر احد الإطراف بان هناك تهديد ما من الطرف الأخر. الحل الوحيد والحقيقي هو ان يسمح لكل طرف بان يبقي ما يشعر بانه أساسي له . واذا لم يحصل مثل هذا الاتفاق وان احد الأطراف استمر باستشعار الخطر فان ذلك سيؤدي الى شقاق في المجتمع وسيكون مجتمع متفرق بكل تأكيد . وقد حدث هذا في الإسلام ، على سبيل المثال ، بين الخوارج والشيعة ومن ثم بين السنة والشيعة . وهكذا فان الفشل في إيجاد صياغة متناغمة تحتوي على العناصر التي يعتبرها كل طرف أساسية ستقود الى انقسام المجتمع ([1]) .

3 - طرق التفسير (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

لقد تم تفسير القرآن عند نزوله بشكل اعتيادي من قبل المسلمين استنادا الى المعنى اللفظي لكلماته ، وعندما بدأت الاختلافات تظهر من قبل الأطراف المختلفة فان كل طرف حاول ان يجد آيات تبرهن على صحة ادعاءه وبدأوا بتفسيره بالطريقة التي تدعم ادعاءاتهم، وقد سيقت كل الذرائع من اجل دعم تفسير هذا الطرف او ذاك ، مع قبولهم بان القرآن هو الحكم في أي اختلاف بينهم . وكان كل طرف يُظهر ان موقف الطرف الأخر متناقض ([2]) وكان هناك اتفاق بسيط على ما هو مسموح بالاختلاف عليه وما هو غير مسموح ([3]) .

1- Watt,Islamic revelation, p75 .

2- قد سبق وات في هذه الفكرة المستشرق المجري جولد تسيهر. ينظر: جولد تسيهر، اجنس ، المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة علي حسن عبدالقادر ، المركز الاكاديمي للابحاث ، بيروت ، 2013 ، ص88 .

3- Ibid, p76 .

حتى عندما يكون تفسير مجموعة من الأطراف فيه مصداقية عالية مع ذلك فان الأطراف الأخرى تراه غير مقبول اما على أساس المبادئ او الشكليات . لقد كان تحديد مستقبل كل مجموعة من الأطراف يعتمد على ما اذا كانت تلك المجموعة ستستقل برأيها وتنفصل عن البقية او انها ستبقى مرتبطة بالمجتمع طلبا للبقاء متناغمين مع بقية الأطراف الأخرى. لقد تبنى المتطرفون من الخوارج مثل الأزارقة بان لكل الأطراف الأخرى وجهات نظر مخالفة للإسلام لذا فانهم ،» الأزارقة» وحدهم المسلمون ، وفي مثل هذه الحالة لا يمكن ان يكون هناك أي مجال للتناغم مع بقية أطراف المسلمين ... ([1]) .

لقد نمى وعي من هذا القبيل يمكن متابعته في تاريخ تفسير القرآن . فقد كان هناك مناقشات حول استخدام الطريقة الاعتيادية أو التشبيه البلاغي في اللغة وفي التفسير الحرفي او التفسير الظاهر او المعنى الباطن للكلمات او المقاطع . سنعالج بعض هذه المسائل في الفصل القادم . ولكني سأركز حاليا على التناقض بين الطريقة العامة للتفسير في المرحلة الاولى من الإسلام وطرق معينة من التفسير التي يفضلونها في العصر الراهن .

يمكن وصف التفسير في المراحل الاولى من الإسلام بالجزئية . فالآية تؤخذ بمعزل عن المحتوى العام من اجل استعمالها لإثبات قضية شرعية او فكرية . هناك علاقة بين التفسير الجزئي والتفسير الكلي ... كلاهما ينطلق من الفرضيات المعيارية بان الشيء هو الأساس بغض النظر عن علاقته بالأشياء الأخرى ، وهذا يقود الى مسائل فلسفية عميقة ليست في نطاق هذه الدراسة ... ان اي كلمة واردة في الآيات القرآنية يجب ان يعرف معناها وفقا لما ورد في الشعر العربي لما قبل الاسلام وبغض النظر عن هذا يمكن استخراج معنى الكلمات في الآيات من معناها في الآية نفسها دون النظر الى معناها في آيات اخرى سواء بالمحتوى او باعتماد تشابه الكلمات ([2]) .

1- Watt,Islamic revelation, p76-77 .

2- Ibid, p77 .

يوصف التفسير الجزئي من هذا النوع بانه يتغاضى عن المعاني المتناقضة . وهذا غير صحيح بالنسبة لجميع العلماء المسلمين الأوائل . اولئك الذين يسمحون باستخدام العقل ، على سبيل المثال ، في التوصل الى استدلالات من الآيات القرآنية يفترضون أنه اذا كان هناك تناقض بين تفسيرين اثنين او تطبيقاتهما فسيكون احد هذين التفسيرين خطأ . من ناحية أخرى فان اغلب العلماء المسلمين المحافظين يترددون في وضع استدلالات في قبول كلا التفسيرين ، بينما يشعر علماء أخرون ان تطبيقات كلا التفسيرين متناقضة . وبهذا يبدو ان العلاقة بين الميل نحو المفهوم الجزئي والقبول بالتناقضات والتي ... هي مظهر من مظاهر العقلية العربية ... ان القبول بالتناقضات يتماشى مع الأسلوب الشعري للتفكير والذي يتناقض بقوة مع الحالة المجردة والتفكير المنطقي الذي يتعامل مع التصنيفات وينظر الى الظواهر المشتركة والمواصفات والعلاقات التي تتعارض مع المفهوم الجزئي في حين التفكير الشعري يتعامل مع الأفراد كأفراد بشكل منفصل نسبيا . ان قبول التناقض هو امر ضروري للتعبير عن ثراء العالم الخارجي وهو امر ليس مقتصرا على العرب بل يبدو انه جزء من النظرة السامية حيث وجدت اثارها في العهد القديم ... ([1]) .

1- Watt,Islamic revelation, p78-79

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الخامس

1 - التفسير الابتدائي للقرآن الكريم

حينما يبحث المستشرق وات في بدايات تفسير القرآن الكريم ، وهل انه كان تفسيراً منسجماً مع ثقافة ذلك العصر والقدرات العقلية التي كان يتمتع بها الافراد انذاك. فأن طريقته في طرح هذا الموضوع احتوت على اثارات هامة تستحق النظر والتأمل بشكل كبير .

اولى الاثارات الهامة التي طرحها وات ، والتي تفتح الآفاق لتصورات بعيدة المدى هذا التسائل المثير :» هل ان العقلية العربية قادت المسلمين الاوائل الى فهم القرآن، الى فهم نص القرآن « ([1]) .

في تقديري ان العقلية العربية التي عاصرت نزول النص القرآني لم تكن بمستوى فهم النص بشكل متكامل ، لان النص القرآني وعلى الرغم مما احتواه من وضوح وبيان، الا انه كان ارفع واعلى من ان تستوعبه عقول عامة المسلمين الاوائل بسهولة، ويجب الانتباه الى اننا لانتحدث عن اصحاب القدرات العالية على مستوى الفهم والمعرفة، المتفوقين على ابناء مجتمعاتهم ، كالامام علي بن ابي طالب (ع) على سبيل المثال. اننا نتكلم عن المستوى العام للعقلية العربية انذاك ، تلك العقلية التي كانت غارقة في الجهل،

1- المستشرق جولد تسيهر يشير في كتابه الى ان اعلى درجات الفهم للنص القرآني تحققت ضمن اطار الجيل الاول بعد رسول الله (ص) : « ان المعرفة الوثيقة لبعض اشياء من القرآن قد ذهبت بعد الجيل القصير التالي للرسول ، وانه توجد في القرآن مواضع تقصر عن فهمها المعرفة الانسانية « . ينظر : جولد تسيهر ، المذاهب الاسلامية ، ص89 .

لم تكن بمستوى فهم مضامين النص القرآني ، ولكن في مقابل كل ذلك برز عاملان مهمان عوضا هذا النقص تمثل ذلك بالدور الكبير الذي لعبه كلاً من النص القرآني من جهة، والنبي والائمة المعصومين سلام الله تعالى عليهم اجمعين من جهةٍ اخرى . من خلال رفع القدرات العقلية للمسلمين ليتمكنوا من محاولة فهمه واستيعابه بصورة صحيحة .

لقد انطوى النص القرآني على معطيات كثيرة لرفع مستوى القدرات المعرفية للمسلمين في عصر النبوة ومابعده ، فقد كان بمثابة الوسيلة العملية لتغذية العقول بالمعرفة وانتشالها من حالة الجهل ، فما ورد في القرآن الكريم من اخبار ومعلومات واحكام وقوانين ، كلها ساهمت في تحويل ابناء المجتمع الى حالة معرفية جديدة ، حينما يفهم الانسان بصورة واضحة من اين جاء وكيف خُلق ، ومن هو الخالق ، حينما يتعلم الانسان الاحكام الصحيحة في التعامل مع الزوجة ، وفي التعامل مع الابناء ، وفي التعامل مع عموم الناس ، في البيع والشراء وفي العمل ، او حينما يتعلم كيف يتعبد الله تبارك وتعالى ، كيف يوحد الله تعالى ، كيف يناجي الله تعالى ، كل هذا واكثر من ذلك ، ساهم النص القرآني فيه فتحول المجتمع بقدراته العقلية البسيطة المتواضعة الى مجتمع تفوق على المجموع البشري المعاصر له على الكرة الارضية انذاك .

المسألة الثانية هي وجود النبي محمد (ﷺ) وتعايشه بين الناس ومعهم مدة ثلاث وعشرون عاماً ، وهو عهد نزول القرآن الكريم ، حيث كان يؤدي خلالها وظيفة بيان النصوص القرآنية وشرح معناها ، فيقف عند كل نص يفسر للمسلمين المراد به من اوامر الله تعالى ونواهيه واحكامه ، فيأخذون من النبي (ﷺ) المعنى والتفسير بشكل مباشر ، وكثيراً ماكانوا يستوضحون منه (ﷺ) ما اشكل عليهم فهمه ([1]) ، وبناءً على ماذكرناه ، نستطيع ان نجيب على تساؤل وات : هل ان العقلية العربية قادت المسلمين الى فهم النص القرآني ؟ نقول : ان العقلية العربية بمستواها الاول لم تقُد المسلمين الى

1- ينظر: السيوطي ، جلال الدين (ت 911هـ) ، الاتقان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973 ، جـ 1 ، ص 62 .

فهم النص القرآني ، وانما الوسائل التي توفرت لهم ساهمت في احداث عملية الفهم هذه . ماهي هذه الوسائل ؟ نذكر مرة اخرى بان اول هذه الوسائل هو القرآن الكريم وما أداه من وظيفة تعليمية كبيرة للناس ، والثاني وجود النبي محمد (ﷺ) بين المسلمين ، في عملية تواصل مستمر يفسر لهم ويعلمهم بشكل مباشر ، فهاتان الوسيلتان ساهمتا كثيراً في فهم النص القرآني والتمكن من تفسيره ، وهذا في حدود عهد رسول الله (ﷺ) .

ان ابرز من فسر القرآن الكريم بعد رسول الله محمد (ﷺ) ، وحسب قول السيوطي في كتابه الاتقان ، هم عشرة من الصحابة ، الخلفاء الاربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبُيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعري ، وعبدالله بن الزبير ، فاما الخلفاء فأكثر من رُويّ عنه هو الامام علي بن ابي طالب (ع) ، والرواية عن الثلاثة الاخرين كانت قليلة جداً ، يعللها البعض بسبب تقدم وفاتهم ([1]) . وان كان التعليل غير مقنع لانهم استمروا لسنوات طويلة على رأس مؤسسة الخلافة ، وبيدهم زمام الامور الدينية فضلاً عن السياسية .

لقد لبى الامام علي بن ابي طالب (ع) حاجة الناس في زمانه الى تفسير القرآن وفهمه ، وتفوق على غيره من الصحابة في هذا الامر ، ولا ريب في ذلك فهو الذي يخاطب المسلمين ويقول لهم : « سَلُوني ، فوَ اللهِ لا تسألوني عن شئ الا اخبرتكم . وسَلُوني عن كتابِ اللهِ ، فوَ اللهِ ما من آيةٍ الا وأنا أعلمُ أبِليلٍ نَزَلت أم بِنهارٍ ؟ أفي سهلٍ أم في جَبَلٍ ؟ « ([2]) . وفي رواية اخرى عنه في ذات السياق : « وَاللهِ مانَزَلَت آيةٌ الَّا وقد علمتُ فِيمَ أُنزِلَت ؟ وأين أنزلت ؟ انَّ رَبّي وَهَبَ لي قلباً عَقُولا، ولساناً سؤولا « ([3]) .

1- ينظر: الزرقاني ، محمد عبدالعظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، المطبعة الفنية ، القاهرة ، لا.ت ، جـ2 ، ص14 .

2- ينظر: المصدر نفسه ، ص 15 .

3- المصدر والصفحة نفسها .

ومن بين المفسرين الاوائل الذين اشتهروا بفهمهم الواسع والكبير للنصوص القرآنية، هو عبدالله بن عباس (ت68هـ) ، الذي وصفه رسول الله (ﷺ) بانه ترجمان القرآن، ودعا له بقوله: « اللهم فقِّههُ في الدين وعَلمهُ التأويل»، وقد اخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قوله: « نِعم تَرجمانُ القرآنِ عبدُاللهِ ابن عباس» ([1]) .

كما ان هنالك مجموعة من المفسرين الاوائل الذين توزعوا جغرافياً على ابرز مراكز الرواية والحديث وباقي العلوم الاسلامية في (مكة، المدينة، البصرة، الكوفة) فممن اخذ عن ابن عباس، مجاهد بن جبر(ت 104هـ)، وعطاء بن ابي رباح(ت 114هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت 105هـ)، وسعيد بن جبير (ت 95هـ) ، ومقاتل بن سليمان الازدي (ت105هـ) وغيرهم، ومن اخذ عن أُبّي بن كعب (ت 30هـ) في المدينة ابو العالية رُفيع بن مهران الرياحي (ت 93هـ) ، ومحمد بن كعب القرظي (ت 108هـ)، وغيرهم . ومن اخذ عن عبدالله بن مسعود (ت 33هـ) في العراق علقمة بن قيس النخعَّي (ت 62هـ)، الحسن البصري(ت 110هـ) وغيرهم.

في الواقع هنالك اشكاليات عدة حول التراث التفسيري المنقول عن المفسرين ولاسيما الاجيال اللاحقة، هذه الاشكاليات مرةً تتعلق بشخوصهم ودرجة الوثاقة بهم ، ومرةً اخرى بما نقل عنهم، فوثاقة بعضهم فيها محل نظر عند العلماء والمفسرين . وقد ثبت تلاعب البعض منهم ولاسيما خلال العصر الاموي . نعم الرواية التفسيرية لم تخلو من حالات التلاعب، شأنها في ذلك شأن الرواية الحديثية، والرواية التاريخية، وذلك بفعل وتدخل السلطة الحاكمة، واصحاب المصالح والاهواء، حيث وظفت بعض الروايات لتخدم المصالح السياسية لبني امية، فوقع هذا التلاعب في التراث التفسيري، وأثر بشكل واضح وكبير على ابناء الامة الاسلامية من حيث العمل والسعي على الاقتداء بما ورد في مضامين هذا التراث والعمل بموجبه، وعلى هذا الاساس وظفت المرويات

1- الزرقاني، مناهل العرفان، ص 15 .

التفسيرية لخدمة السلطة الحاكمة ، هذه النقطة يجب الالتفات اليها والتركيز عليها بعناية حتى نفهم مقدار ماتعرض له التراث التفسيري حتى وصل الينا ، وماهي المراحل الخطيرة التي مر بها ، والظروف الصعبة التي شهدها .

ولكن بالحديث عن مدرسة اهل البيت سلام الله تعالى عليهم ، فان الامر مختلف تماماً في التراث التفسيري ، لان لهذه المدرسة منهج هو اكثر مناهج المسلمين تحقيقاً وتدقيقاً وموضوعية ، لمتابعة المرويات التفسيرية للنصوص القرآنية . نحن نتحدث عن اسس واضحة ومتينة لايمكن التلاعب بها فيما يتعلق بحفظ التراث التفسيري ، نعم هذه الاسس قوية ومتينة لذلك تعتمدها مدرسة اهل البيت سلام الله تعالى عليهم ، واتباعهم من المذهب الامامي الاثنا عشرية في تفسير القرآن الكريم وهي على النحو التالي:

الاساس الاول: الاعتماد على تفسير القرآن الكريم بالقرآن نفسه ، فعندما يراد تفسير آية من القرآن لايؤخذ بتفسيرها بشكل منقطع عن غيرها من الآيات القرآنية الاخرى التي تتكرر فيها نفس اللفظة ، فعلي سبيل المثال يرد قوله تعالى : ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا)) ([1]) ، وهنا كلمة اعمى تعطي معنى لايمكن ادراكه بصورة صحيحة الا بالرجوع الى آيات قرآنية اخرى وردت فيها اللفظة نفسها لنقف على المعنى المراد والحقيقي ، فاذا اخذنا هذه الكلمة بمعناها المتداول: فاقد البصر، فهو عندئذ في الاخرة اضلُ سبيلا ، وهنا تتقاطع هذه النتيجة مع مفهوم العدالة الالهية ، اذ لايمكن ان يُظلم هذا الانسان فاقد البصر فيخسر الدنيا والاخرة !!! ولكن بالنظر الى آيات اخرى نلاحظ انها تشير الى معنى اخر لهذه الكلمة ، ففي قوله تعالى: ((لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) ([2])، اذن المقصود بالعمى ليس فقد البصر، وانما الانسان الضال عن سبيل الله تعالى، الذي سار في طريق المعاصي والضلال، وهذا المعنى يختلف تماماً عن المعنى الاول الذي ذكرناه،

1- الآية (72) سورة الاسراء .

2- جزء من الآية (46) سورة الحج .

وعليه فأن الاساس الاول الذي تعتمد عليه مدرسةُ اهل البيت يقوم على تفسير القرآن بالرجوع الى القرآن نفسه .

اما الاساس الثاني: فهو من خلال الاحاديث الصحيحة التي نُقلت عن رسول الله (ﷺ) والائمة المعصومين عليهم السلام ، وهنا نلحظ فارقاً كبيراً في الاعتماد على التراث الحديثي والتفسيري تحت ظل هذه المدرسة عن غيرها من المدارس ، فقد تحدثنا بوضوح عما تعرض له التراث الحديثي والتفسيري خلال الحكم الاموي بشكل خاص، وحجم التلاعبات التي جرت عليه، ولكن هنا في مدرسة اهل البيت الامر مختلف بوجود الائمة المعصومين سلام الله تعالى عليهم ، وهم كما نعتقد ورثة علم النبي (ﷺ)، وهم اكثر الناس دراية ومعرفة بمضامين الآيات القرآنية بعد رسول الله (ﷺ). لقد توفرت لهذه المدرسة غير التراث الحديثي المنقول عن رسول الله (ﷺ)، احاديث الائمة عليهم السلام التي شكلت اضافة هامة في تفسير القرآن الكريم . وبالتالي فأن ما نقل عن النبي محمد (ﷺ) عبر بوابة الائمة المعصومين عليهم السلام لايوازيه اي تراث في الوثاقة والاهمية والمصداقية ولهذا فأن التراث التفسيري المنقول عن الائمة الاطهار فيه اضافة كبيرة . ومما يرفع من شأن هذا التراث ، ويؤكد مصداقيته ان حياة الائمة عليهم السلام التي استغرقت قرابة القرنين من الزمن بدءً بعهد الامام علي بن ابي طالب (ع) حتى نهاية عصر السفراء الاربعة الذي عَقب غيبة الامام المهدي الحجة بن الامام الحسن العسكري عليهما السلام ، وكأنها سلسلة مترابطة حلقاتها بعضها بالبعض الاخر لا تحتوي على قطع اطلاقاً وبالتالي فأن هذا من دعائم وثاقة هذا التراث وعلو شأنه ، الذي ساهم وبشكل كبير في بيان وتوضيح تفسير القرآن الكريم ، فتميزت مدرسة اهل البيت (ع) بذلك عن غيرها من المدارس الاسلامية.

الاساس الثالث: الاستعانة بالعقل في توجيه بعض ظواهر الآيات القرآنية دون الخروج عن طبيعة النص القرآني ، فالعقل ايضاً له منزلة عظيمة عند مدرسة اهل البيت وهو قادر على استنطاق وفهم النصوص القرآنية بشكل سليم.

هذه مجمل الاسس التي ذكرناها وهي متكاملة تؤدي الى الوصول لفهم دقيق وحقيقي لما ورد في القرآن الكريم ، وهي اسس تمنح التفوق لمدرسة اهل البيت سلام الله تعالى عليهم على غيرها مما عند المذاهب الاخرى في حجم الفهم المتحقق للنص القرآني .

بالعودة الى تساؤل وات الاول الذي قال فيه : « هل ان العقلية العربية فهمت النص القرآني؟ « نقول: العقلية العربية المعاصرة لنزول القرآن الكريم ، واقعاً لم تكن بمستوى فهم النص القرآني ، الا من خلال نماذج مؤهلة ومُعّدة لفهمه كالنبي محمد (ﷺ) والامام علي (ع) الذان عوضا هذا القصور في مستوى الفهم لدى عموم المسلمين ، فكان دورهما التفسير والتوضيح والتعليم . فحصل التمكن من فهم النص القرآني في المرحلة الاولى من نزوله بفضل وجود ادوات فاعلة ومتمكنة على استنطاق النص والوقوف على معناه الدقيق ، الادوات التي ذكرناها ابتداءً بما نقل عن رسول الله (ﷺ) من بيانه وتفسيره لتلك النصوص ، واستمراراً في ذلك عبر الائمة المعصومين سلام الله عليهم ، فضلاً عن ذلك البيان الذي اعتمد على منهج تفسير القرآن من القرآن نفسه واستخدام العقل.

2 ـ منهج التفسير القرآني وتوظيفه

لقد تحدث وات هنا بمعلومات الى حدٍ ما دقيقة وموضوعية ، كما كشف الكثير من الحقائق، وطرح اراء في تقديري هي صائبة بما يتعلق وموضوع هذا المبحث (منهج التفسير وتوظيفه) .

ابتداءً لابد من توضيح عدة مسائل تطرق لها ، فالحديث عن منهج التفسير ، وهل ان هذا المنهج وظف توظيفاً عقائدياً او سياسياً او غير ذلك من التوظيفات التي هي لاتندرج تحت خانة التفسير الموضوعي لما ورد في القرآن الكريم . انا اتفق معه في هذه الاثارة الخاصة بتوظيف التفسير القرآني ، وقد سبق ان تحدثنا وقلنا اول من فسر القرآن الكريم هو رسول الله (ﷺ) ، وبطرق شتى ، فهو اما ان يوضح للناس كل

مايشكل عليهم من نصوص ، ويجيب على تساؤلاتهم ، واما ان يطبق بشكل عملي وعلى نفسه الطاهره بعض الاحكام التي امر الله تعالى بها في كتابه العزيز ، لاجل ان تكون اكثر بياناً ووضوحاً واثراً على الناس . وعليه يمكن القول بان اول من فسر القرآن الكريم هو النبي المصطفى محمد (ﷺ) .

المشكلة ظهرت بعد وفاة النبي (ﷺ) ، لان المسلمين تفرقوا في امر اعتمادهم على مصادر التراث التفسيري ، فكل جماعة راحت تفضل مصادر بعينها ولاسباب عديدة، وقلنا ان افضل تلك المصادر واوثقها التراث المنقول عن ائمة اهل البيت عليهم السلام كونهم ورثة علم النبي محمد (ﷺ) ، اما باقي المجتمع الاسلامي فقد كانت له مصادر اخرى اعتمد عليها ورجع لنصوصها . فقد اعتمدوا على مجموعة من المفسرين ممن تحدثنا عنهم ، وفي مقدمتهم عبدالله بن عباس ، وهؤلاء نقلوا عن رسول الله (ﷺ) ، ولكن في المراحل اللاحقة وبالاضافة الى التدخلات في التراث التفسيري بفضل المصالح ، برزت تطورات كبيرة على مستوى الجانب الفكري ، ابتداءً من القرن الثاني الهجري ، وعلى الرغم من كون هذه التطورات شملت الجانب العقلي والارتقاء به لمستوى اعلى من السابق ، الا انها في الوقت نفسه احدثت خلافات وصراعات فكرية حادة داخل الامة الاسلامية .

من الطبيعي جداً ان لا يرتقي تفاعل واستجابة مجتمع بسيط وحديث النشأه في مستواه الفكري والثقافي كالمجتمع الاسلامي في بداية الدعوة مع القرآن الكريم ومضامينه، الى المستوى نفسه الذي مثله تفاعل مجتمع متمكن فكرياً وعاش مرحلة ازدهار ثقافي ومعرفي . فبيئة المجتمع الاخير تضمنت المناظرات والحوارات والمجالس العلمية ، حلقات الدرس ومناهجها وشيوخها وطلابها [1]، وهي اجواء لم تكن موجوده في بيئة المجتمع الاول، على اثر المتغيرات الضخمة التي تحققت بعد مائة عام من وفاة النبي (ﷺ) ، تبع ذلك متغيرات مماثلة على مستوى منهج تفسير القرآن الكريم او منهج التعامل مع القرآن ،

1- ينظر: حسن ، سهيلة مزبان ، الحركة الفكرية في العراق ، دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ، 2016 .

ولا ننسى الاثار التي ترجمت من كتب اليونانيين والرومان والفرس ، ودور هؤلاء الذين دخلوا الاسلام من اتباع الاديان ذات الاصول السماوية السابقة بما كانوا يمتلكونه من خبرات ومعلومات الذين ساهموا في التطورات الايجابية على مستوى الفكر ، العملية بمجملها كانت حركة تصاعدية ارتقى فيها العقل الاسلامي ، فلما وصلنا الى القرن الثاني الهجري ظهرت فرق كلامية من المتكلمين والفلاسفة ، وبرزت اتجاهات جديدة في التفسير ، كما ظهرت فرق جديدة كالاشاعرة والمعتزلة وهم فرق كلامية كانوا يبحثون في مسائل خطيرة يعتمدون في بعضها على منهج العقل وتبعتهم فرق كلامية اخرى كالجهمية او الحرورية او المرجئة ، فشكل ذلك تطور كبير في منهج التفسير ، اذ لم تعتمد بعض هذه الفرق على ما نقل عن رسول الله (ﷺ) من تراث تفسيري ، كونهم استعانوا بالعقل والمنهج العقلي مستفيدين من الفلسفة وعلم الكلام في تفسير القرآن ، ونتج عن ذلك ان ظهرت لدينا مجموعة من التفاسير التي اختلفت مع بعضها البعض ، من الناحية الفقهية ، وهذا الاختلاف ترك اثراً كبيراً على تفسير الآيات القرآنية ، ولاسيما في الجانب الفقهي .

المستشرق وات تحدث عن ذلك ، ونحن بدورنا نتفق معه في موضوع توظيف التفسير ، كما اشار وات الى الاشكالية الكبيرة التي ألمت بامة المسلمين وهي موضوع خلق القرآن ، التي عَّدها بعض علماء المسلمين من بين اخطر المشاكل الخلافية ، وكيف ان الحكام تدخلوا في هذه الاشكالية واخذوا يطرحون ارائهم فيها ويعملون على فرض ذلك بالتضييق والتهديد لكل من يخالفهم الرآي .

المشكلة بدأت في زمن المأمون سنة 218هـ ، حينما قرب المعتزلة ، وتبنى رأيهم في مسالة خلق القرآن ، وقولهم بانه ليس بكلام الله المنزل ([1]) . ان جملة التساؤلات التي اضحت موضع اثارة وجدال كمسألة : هل ان القرآن مخلوق محدث ، ام قديم ازلي كونه كلام الله غير المخلوق .

1- ينظر: حسن ، الحركة الفكرية ، ص ص387 - 395.

المأمون اقتنع برأي المعتزلة وتبنى رأيهم بأن القرآن لايقول بذلك ، وعلى اثر موقف المأمون هذا تعرض كل من قال خلاف هذا الرأي للاذى والتنكيل كما حصل للامام احمد بن حنبل الذي تعرض للتعذيب والسجن على يد المأمون لانه خالف مقولة المعتزلة وقال بان القرآن كلام الله القديم الازلي غير المحدث غير المخلوق ، ونتيجة لذلك تعرض للاذى والسجن حتى اطلق سراحه في زمن المتوكل العباسي ([1]) .

عرفت هذه المشكلة في كتب التاريخ بالمحنة ، واستمرت قرابة خمسة عشر عاماً بدأت في سنة 218هـ ، المعتزلة قاموا بنفي الصفات الالهية وقالوا بابطال مشاركة القرآن الله جل وعلا في القدم ، ولذلك اعتبروا القرآن مخلوق محدث ، وقام المأمون العباسي باختبار كل العلماء الفقهاء في عصره الذين يخالفونه فيما يتبناه من مقولة المعتزلة وكان ينكل بهم ، قسم كبير من العلماء أظهروا خلاف مايبطنون وسايروا المأمون حتى لا يتعرضوا للتنكيل .

لانريد الحديث كثيراً في موضوع خلق القرآن وكيف تعامل المعتزلة مع هذه المشكلة، الذين قرروا ان وحدة الذات الالهية وصفاتها واحدة وقرروا ان الصفات الزائدة عن الذات لا وجود لها ، وتعاملوا مع النصوص الدينية القرآنية بالمنهج العقلي .

هناك اشارة للمستشرق وات حول مشكلة خلق القرآن وكل ما حدث قال فيها : « السنة لم يتعاملوا معها تعاملاً ايجابياً ، بينما الشيعة كانوا محقين بالتأكيد على وجود قائد ملهم في الميدان السياسي او الفكري ، فالامام هو حاكم مطلق « . بعد ذلك تحدث في موضوع الخلافات بين المذاهب حول تفسير القرآن ومنهج التفسير .

3 ـ طرق التفسير

يستكمل وات الحديث في هذا الفصل حول تفسير القرآن الكريم مركزاً على بدأ التفسير الذي اعقب نزول القرآن وهذا امر بديهي ومعلوم ان يبدأ التفسير في ذلك

1- حسن ، الحركة الفكرية ، ص395-394.

الوقت المبكر لان الآيات القرآنية الاولى كان البعض منها بحاجة الى بيان وتوضيح ، ومن هنا بدأت اولى مراحل التفسير وعن لسان النبي محمد (ﷺ) مصداقاً لقوله تعالى ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) ([1]) . فالنبي (ﷺ) كما سبق وذكرنا هو اول من فسر النصوص القرآنية ، مستعملاً في ذلك طرق عدة من خلال الاقوال والافعال ، فسيرته العطره كانت بيان حي وواقعي لاحكام الله تعالى الواردة في كتابه العزيز .

التفسير بعد ذلك مرَّ بظروف صعبة ، ساهمت هذه الظروف في ان تدخل اضافات كثيرة على روايات التفسير المنقولة عن النبي (ﷺ) ، كما اننا نؤكد على ان خلاف امة المسلمين وَّلد نوعاً من الاختلاف في طرق التفسير ومنشأها كما يقول وات : « ان كل طرف كان يبحث بالآيات القرآنية عما يبرهن على صحة ادعاءه « فظهرت هذه الطرق المتعددة في تفسير القرآن الكريم ، ولكن يجب الانتباه الى ان النبي (ﷺ) لم يترك نص من النصوص القرآنية وهو بحاجة الى بيان وتفسير الا وقام ببيان معناه الى المسلمين، اما ما تبع ذلك من اختلاف فالامر مرتبط اما بمصالح البعض، او بطرق النقل غير المكتوب ، او لاسباب اخرى . وبتفصيل اكثر نقول ان الاختلاف حصل في طريقة تتبع المرويات التفسيرية والتعامل معها ، فبعض المسلمين ومنهم الشيعة الامامية الذين اعتمدوا على التراث التفسيري المنقول عن النبي (ﷺ) والائمة المعصومين سلام الله عليهم ، على اعتبار انهم حلقات متصلة جذورها برسول الله (ﷺ) والوحي ، وبالتالي الوصول الى معاني دقيقة ومضامين وافية لما ورد في الآيات القرآنية لما نعتقد في الائمة المعصومين من علم ودراية ومعرفة ورثوها عن رسول الله (ﷺ) .

فضلاً عن الطرق التي اعتمدوها والتي تحدثنا عنها، من كونهم فسروا القرآن بالقرآن، وكذلك اعتمادهم على التراث المنقول عن الائمة (ع)، اما غيرهم من الفرق الاسلامية

1- جزء من الآية (44) سورة النحل .

منهم من رجع الى التراث التفسيري المنقول عن صحابة رسول الله (ﷺ) وهذا التراث حسب اعتقادي كان قد تعرض لجملة من التلاعبات فاضحى ضعيفاً ولايمكن الوثوق بنسبة عالية مما ورد فيه ولذلك عدة اسباب :

السبب الاول : اننا تحدثنا عن موضوع السلطة الحاكمة ولاسيما في العصر الاموي ومساهمتهم الكبيرة في التلاعب في هذا التراث بما ينسجم ومصالحهم السياسية .

السبب الثاني : يرتبط بالصحابة انفسهم وقدراتهم الفكرية ، اذ لايمكن لنا الاطمئنان تماماً الى قدرات الصحابة المعرفية في فهم واستيعاب ماسمعوه من رسول الله (ﷺ) ، وبالتالي نقلوه الى غيرهم ليصبح فيما بعد هو التراث المعول عليه في تفسير القرآن ، اعتقد ان قسم كبير من الصحابة لم يكن بمقدورهم الفهم المتكامل للاحكام ولا الحفظ الدقيق للاخبار التي وردت حول آيات القرآن وسمعوها من النبي (ﷺ) ، فمعظمهم لايقرأون ولا يكتبون ، وعلى هذا الاساس لا يمكن الاطمئنان والاعتقاد بانهم كانوا على مستوى عالٍ من الفهم والاستيعاب، ومن ثم النقل الموضوعي الحقيقي لكل ما شهدوه وسمعوه من رسول الله (ﷺ)، وبالمقارنة بين قدرات الصحابة هذه وقدرات ائمة اهل البيت سلام الله عليهم، يتضح لنا الفارق الكبير جداً بينهم . ولاجل هذا نحن لا نطمئنُ لكل ما نُقلَ عن الصحابة، الذين يتعامل معهم قسمٌ كبير من المسلمين على انهم درجات عالية جداً في المصداقية، ويعتمدون على كل ما نُقلَ عنهم كحقائق لا يجوز التشكيك والطعن بها.

السبب الثالث : طريقة توثيق هذا المنقول ، بعض الدراسات تشير الى ان التفسير القرآني مر بمراحل عديدة ، ومع انه لا شأن لنا في ان نُفَّصل في هذه المراحل ، سوى ان نشير لها بايجاز فنقول التراث التفسيري شأنه شأن التراث الحديثي او التاريخي ، تمثلت مرحلته الاولى عبر التناقل الشفاهي بين الناس ، اما المرحلة الثانية حينما شرع علماء المسلمين بتدوينه ، ومرحلة تدوينه جاءت متأخرة لاننا نعلم ان المسلمين كانوا غير قادرين على التدوين لعدة اسباب منها ماهو مقنع ومنطقي ومنها ماهو غير مقنع كالاشارة

الى عملية منع الكتابة من قبل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ([1]) ، ولكنني اعتقد ان هناك سببان رئيسيان هما :

اولاً: ان العقلية العربية كانت بحاجة الى وقت حتى تصل الى مرحلة النضج والقدرة على النتاج الفكري من خلال الكتابة ، ويقيناً هذا النضج لم يتحقق الا في حدود العصر الاموي.

ثانياً: ان ادوات الكتابة عند المسلمين كانت متأخرة وغير منسجمه مع تصاعد حالة التطور العقلي للمسلمين ، ولذلك فان الأدوات المتوفرة انذاك لم يكن بمقدورها استيعاب النتاج الفكري ، فقطع الرق التي كان يعتمد عليها لغرض الكتابة لم تكن الا قطع صغيرة لا تستوعب الا عدة عبارات ، في حين ان معرفة العرب المسلمين بالورق واستخدامه في نهايات العصر الاموي وبدايات العصر العباسي ساهمت في ظهور المؤلفات والمصنفات الضخمة وسمحت بازدهار الحركة الفكرية عند المسلمين وانطلاق التدوين الفعلي لكافة العلوم الاسلامية ([2]) .

هذه المصنفات اخذت اشكال متعددة ممكن ان نعبر عنها ، بانها طرق التفسير ، فقد ظهرت لدينا مصنفات التفسير بالمنقول الذي يعتمد بالاساس على المصادر النقلية بمعنى تفسير القرآن بالقرآن او بالسنة النبوية المطهرة او بما نقل عن الصحابة او الائمة الاطهار (ع) ، وهذه المصنفات تعتمد على هذه المصادر النقلية التي يطمئن لوثاقتها وتحدثنا عن كل مذهب والى من يطمئن في مصادره النقلية .

فضلاً عن المنقول عن القرآن والسنة ، هنالك طريقة ثانية في التفسير تعتمد على الرأي والاجتهاد وهذه الطريقة في التفسير ظهرت عند مطلع القرن الثالث الهجري ، ووضعت جملة ضوابط لهذا النوع من التفسير .

1- ينظر: العلي ، دراسات ، ص15 .

2- ينظر : الداقوقي ، حسين علي ، معركة طل ساو الصراع الحضاري بين العرب والصين ، بحث منشور في مجلة دراسات للاجيال ، العدد الثالث ، العراق ، 1987 ، ص ص122 - 124 . كذلك : العلي ، دراسات، ص13 .

ثم تنوعت اتجاهات التفسير بتنوع وتعدد ثقافات ومعارف المفسرين حتى وقتنا الحاضر ، ولكنها تبقى ضمن حدود الاطر العامة لكتب التفسير القديمة وتحتوي بعض المتغيرات المعبره عن روح وثقافة العصور اللاحقة والثقافات الجديدة ومنها اتجاهات اجتماعية وعلمية ، وحتى المذهبية ظهرت كمؤثرات واضحة على طرق التفسير .

وات وهو يتحدث عن طرق التفسير ركز على مسألة مهمة غير ما تحدثنا فيه نحن لقد ركز على التناقض بين الطريقة العامة للتفسير التي ظهرت في الاسلام من جهة ، وبين طرق التفسير الحديثة للنص القرآني فهو يقول: ممكن وصف التفسير في المراحل الاولى من الاسلام بانه تفسير جزئي وليس تفسيراً عاماً لان الآية تؤخذ بمعزل عن المحتوى العام لأثبات قضية شرعية او فكرية ، وهو يشير الى علاقة بعض الآيات القرآنية باحداث تاريخية معينة .

في الواقع بعض الآيات القرآنية كان لها اسباب نزول ، وهذه الاسباب بالامكان ان تلعب دور كبير في توضيح وبيان مضامين ومعاني هذه الآية او تلك ، كوقوع حادثة مهمة خطيرة ، او مذمومة ، او تستدعي الالتفات اليها ، او توجيه اسئلة للنبي محمد (ﷺ) من قبل اصحابه او اليهود او غيرهم ، او التعرض الى ظروف و حالات معينة تقتضي من المسلمين المواجهة بموقف معين ، هذه وغيرها كانت تلعب دوراً كبيراً في كونها اسباب نزول آيات قرآنية تتحدث عن طبيعة هذه الاحداث وحكم الله تعالى بشأنها ، ولذلك معرفة الاحداث التاريخية تقدم مساعدة كبيرة في فهم وتفسير نصوص هذه الآيات القرآنية ولكن هنالك آيات وسور كثيرة دون ان ترتبط بحادثة تاريخية سبقت نزولها ، قد تحتوي على محتوى عام وشامل كتوجيهات اللاهية ووصايا ، او اخبار الانبياء والامم الماضية او اخبار الغيب وتصوير الجنة والنار واهوال يوم القيامة . اخبار كثيرة اراد الله تبارك وتعالى ان يضع الانسان على بينة منها ومعرفة .

في الواقع المستشرقين عموماً ركزوا على الجانب التاريخي ، وسعوا لتوظيف هذا الجانب المعلوم الذي استطيع ان اعبر عنه بانه جانب مادي بحت ، سعوا لتوظيفه اما

لاعادة ترتيب النص القراني، واما للاستفادة منه في بيان و تفسير القرآن الكريم، ان المحتوى التاريخي الذي يرتبط بالنص القرآني واقعاً هو لايساعدنا كثيراً نحو تحقيق هذه الاهداف، وهي الوصول الى المعنى الحقيقي للآيات القرآنية، او حتى المضي في أعادة ترتيب القران الكريم مثلما حاول بعض المستشرقين العمل لاجله ([1]) . لان المناسبات التاريخية التي أشارت لها النصوص القرآنية هي لا تشمل كل القرآن الكريم، وبالتالي تبقى لدينا نسبة كبيرة من الآيات والسور لا نعلم سبب نزولها لخلوها من الأشاره التاريخية، وعليه لايمكن الأعتماد على الجانب التاريخي في اعادة الترتيب.

كما ان النص القرآني لايمكن فهمه على اساس انه استجابة ألهية او ردة فعل من الله تبارك وتعالى، حينما كان النبي (ﷺ) يسئل فيجيب الله تبارك وتعالى، أو حينما كان يتعرض النبي (ﷺ) واصحابه لخطر عظيم، فيبين الله تعالى ويكشف ما يتصل بذلك من حكم او توجيه او بيان او غيرها مما يريد الله تبارك وتعالى ايصاله الى الناس، اذن النصوص القرآنية هي ليست ردود افعال على احداث تاريخية لكي توظف هذه الاحداث التاريخية توظيفاً موضوعياً لبيان وفهم النص القرآني، في الواقع نحن بحاجة الى وسائل اخرى غير الحادثة التاريخية لفهم النص القرآني، ونقف على المعاني والمضامين الحقيقية له، لانه يحتوي على احكام، توجيهات، اخبار قديمة واخبار معاصرة لنزوله ايام الدعوة في عهد النبي (ﷺ) ويحتوي على صورة متكاملة يضعها الله تبارك وتعالى امام عباده ليكونوا على علم ومعرفة بالكون وبالحياة وما يرتبط بالجنة والنار وغيرها، لكي يعلم هذا المخلوق من هو الخالق ومن هو المخلوق ومدى ضعفه وحاجته لرضا الخالق والى اين يفترض ان يسير حتى ينال حاجته هذه .

1- ينظر : الغزالي ، القرآن الكريم ، ص91-90 .

الفصل السادس: "الخط البياني للوحي"

1 - " الابعاد الاسلامية لمشكلة اللغة الدينية "

2 - " الاستعمال البياني للغة "

3 - " اهمية ابراهيم في القرآن "

قراءة نقدية لما ورد في الفصل السادس

1 - الخطاب الديني للقرآن الكريم

2 - اهمية ابراهيم في القرآن

1 ـ الابعاد الاسلامية لمشكلة اللغة الدينية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

كان من غير الممكن على العلماء المسلمين تجنب الاسئلة التي تُثار بشان اللغة الدينية للمفكرين، ولقد أُثير هذا السؤال في محاولات الناس الذين يتحدثون عما هو غير حسّي ولكنهم كانوا اكثر جدية في القضايا الدينية، اذ ان بعض التأكيدات الدينية تتعلق بالحقائق غير الحسّية. ان لغة الانسان تبدأ بالإدراك الحسي للأشياء وعندما يتعلق الأمر بالأشياء غير الحسّية فلا بد ان تكون هنالك مقارنة ضمنية او صريحة لهذه الظواهر. وهذه هي سمة مشتركة للشعر ولم يكن الشعر ما قبل الاسلام غريباً عن هذه الظاهرة. فالشاعر يقارن حصانه او بعيره الحيوان البري بالسحاب او بأشياء أخرى مألوفة لسكان الصحراء. وقد يصف ليلة مملة بحيوان يحاول النهوض ببطء، ان مثل هذه الكلام المجازي كما في هذا المثال يساعدنا في فهم طبيعة حياة المرء وكيف يقضي ليله الطويل وسط الصحراء ... ([1]) .

كيف يمكن للمرء ان يفهم عبارة: " يد الله" ، كيف يمكن بالفعل للمرء ان يفهم كلمة الله (او الاله) في عالم فيه العديد من الالهة (الأصنام) ؟ . للوهله الاولى يبدو انه من الممكن النظر الى الأمر بسذاجة اذا استعمل المرء الكلمات بشكل وافٍ ... في عبارات أخرى فان المرء ليس على علم بالفرق بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي لاستعمالات الكلمات ولكن في الممارسة لا يحصل ارباك من غياب الوعي ([2]) .

تبدأ المشكلات عندما يصبح البعض على علم بهذا الفرق ويبدأ بإثارة اسئلة،

1- Watt,Islamic revelation, p80 .

2- Ibid, p80-81 .

فأولئك الذين ... يتمسكون بالنظرة الساذجة يعتقدون انه مشابه او مجسم لأنهم سيجعلون من الله شبيهاً بالإنسان ويقولون بان لله جسم كجسم الانسان . من ناحية أخرى سيقول الساذج بان انكار ان الله له جسم ربما يؤدي الى انكار وجود الله كحقيقة ... ومن ناحية أخرى فان قضية "الله" اذا قلنا بان ليس له يد حقا وهو ليس بجسم كالإنسان فما الذي بقي ؟ واحدة من المحاولات الاولى للعلماء المسلمين لمعالجة هذه الصعوبة كانت القول بان الكلمات المجسمة في القرآن يجب ان تفهم بدون السؤال حول الكيفية ؟ اي بدون تفسير الحالة حرفيا ... وهذه محاولة للإبقاء على النظرة الساذجة ولكن بطريقة متطورة ([1]) .

يبدو ان معارضي النظرة الساذجة ارادوا التأكيد على الطبيعة الروحية والمعنوية لله وربما ايضا كانوا يريدون تأكيد تجاوز العملية الزمنية ، فجماعة المشبهون الذين يقولون بأن لله جسم كانوا مستائين حول مفهومهم لله باعتباره قوة خارقة ولديه المعرفة وهو حّي الى الأبد وهم يعتقدون ان الانسان محدود القوة والعلم والعمر. لقد اوجد جماعة المشبهين عوائق لا يمكن التغلب عليها لبراهينهم العقلانية حول مسألة وجود الله . ولكن للعلماء الأكثر تطوراً فان النظرة الساذجة تنكر وجود الله ومن ناحية ثانية فانهم يرون بان نظرة العلماء المتطورين ينكرون الحقيقة البسيطة التي جاء بها الوحي(يد الله) . فكل طرف من هاذين الجماعتين شعر بان الاعتقاد الرئيسي يقابل بتحدي من الطرف الاخر وكان النزاع مريراً ([2]) .

وعلى العموم فقد وضع المفكرين المسلمون ثقلهم على التفوق الالهي وبالخصوص اختلافه عن الانسان . وقد بالغ البعض في موضوع التفوق الالهي لدرجة اصبح من الصعب عليهم البرهنة على كيفية حصول الاتصال بين الله والعالم . لقد اصرت المجموعة الرئيسة في الاسلام على أفعال الله المتواصلة في العالم وسيطرته على الاحداث التي

1-Watt,Islamic revelation, p81 .

2- Ibid, p81-82 .

يقررها هو ، وهكذا فان غالبية المسلمين قد تمكنوا من الحفاظ على التوازن بين نقاوة التفوق ونقاوة التلازم ... ([1]) .

وفي الطرف الأخر هنالك الصوفيون كما في الاديان الأخرى يتحدثون عن الالزام الالهي على البشر والالتزام بالعبارة المشهورة (التخلق بأخلاق الله) اي الالتزام بالأشياء الجيدة لله ، لقد كتب المفكر الغزالي مقالة بعنوان : مقاصد الأسنا، والتي سعى فيها لإظهار وبدون تشبيه الله بالإنسان بأن على الانسان ان يتحلى بشخصية الله ، هنا يناضل هذا المفكر في مسألة صعبة للغاية . ان المعرفة الدينية في عصره تصر على ان الله والانسان مختلفان عن بعضهما ، ومع ذلك يبدو انه مقتنع بأن القيم العليا للإنسان لابد ان تكون هي قيم الله .

ان هذا الايجاز يظهر كيف ان العلماء المسلمين كانوا منشغلين بالأسئلة المثارة حول اللغة الدينية ... ([2]) .

2 - الاستعمال البياني للغة (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

استمر انشغال الناس بالمشاكل المتعلقة بموضوع استعمال اللغة الدينية ويبدو انها نوقشت اكثر في نصف القرن اللاحق. ان الخلافات بين اللاهوتيين المسيحيين حول كيفية التعامل مع اعادة ترجمة العقيدة المسيحية للعهد الجديد الى اشكال الفكر الاوروبي والاميركي المعاصر، وهذا يستلزم وجود حقيقة بغض النظر عن اللغة وبالفعل هي الحقيقة التي نقلت جزئياً عن طريق اللغة وهي تشبه المشاكل التي ستواجه الاسلام في المستقبل القريب كلما حصل المسلمون على تعليم غربي للعلوم والتكنولوجيا ([3]) .

1- Watt,Islamic revelation, p82 .

2- Ibid, p82 .

3- Ibid, p83 .

ان الدراسة الحالية ليست لمناقشة شاملة لهذه المسالة وسأقوم بذكر بعض النقاط بايجاز ... يبدو ان اصل المشكلة هو طبيعة التشبيه ، فعندما يكون التشبيه المستعمل في الشعر يُعرف مثلاً بان الليل ليس وحشاً بشعاً . وقد استعمل التشبيه من قبل بعض العلماء بطرق مختلفة تحت اسم « النموذج الارشادي» وهو القيام بتجارب قد يثبت صحتها كما يمكن لبعض هذه التجارب ان تكون لغرض شرح مسألة عويصة لغير العلماء وعلى سبيل المثال القول ان الضوء هو مثل الموجات واحياناً هو مجسم في هذا المثل فان الضوء ليس موجات ولا جسم لكنه شيء يتبع بعض المعادلات والذي قد يشبه الموج او الجسم ، فبالنسبة للشخص المعاصر ان اي تشبيه للأشياء العلمية يعني انها غير حقيقية . بعض الناس في الوقت الحاضر يرون ان كلمة الله لا تعني شيئا ما ... ([1]) .

حتى الذين يؤمنون بالدين يعترفون بأن هناك عنصر غير حقيقي في موضوع تطبيق خصائص اللغة على الله . ان الله ليست لديه يد بلحم وعظام وعضلات . ان المسلم الاعتيادي عندما يسمع تلاوة القرآن ، وكأنهُ يستمع الى كلام الله ولكن من دون ان يسمع هذا الكلام منه مباشرة عن طريق موجات واصوات من الأثير لذا حتى المؤمنين يقبلون بدرجة معينة من الخيال في اللغة القرآنية ... اللغة الدينية تعطي الانسان معرفة ايجابية للواقع غير الحسي . وبالتالي سيكون من المرغوب العثور على طريقة أكثر ملائمة للتعبير عن علاقة اللغة بالواقع والتي ، ستنقل حقائق ايجابية بعيدا عن الخيال .

اريد ان أقترح الان مفهوم الرسم التخطيطي ([2]) . الذي تستخدمُ فيه اشكال والوان للتعبير عن حقيقة معينة . هناك خطوط معينة في جدول الأنساب تعين على معرفة العلاقة الدقيقة لأفراد العائلة قياساً بالأخرين . في بعض البلدان تؤشر السكك الحديدية بخطوط متوازية بينما تؤشر محطاتها بدوائر او علامة (أكس) ، يستعمل مترو

1- Watt,Islamic revelation, p83 .

2- Ibid, p83-84 .

لندن الخطوط المتوازية تعبر فوقها خطوط متوازية أخرى سوية مع خطوط لمناطق تغيير المحطات ، وهذه تمثل المسارات المختلفة للقطارات كل خط له لون معين ، وتُعّلّم المحطات وتُبين الخرائط هذه للمسافرين ، في اي من المحطات بالامكان تبديل القطار من خط الى أخر وتقدم معلومات كثيرة بدقة متناهية وبضمنها توالي المحطات في كل خط مع اسماءها ومع ذلك يفتقر الرسم التخطيطي الى امور واقعية ، فعلى سبيل المثال لا تُظهر الخارطة الانحناءات في مسار الخط كما لا تظهر المسافات بين محطة ومحطة وغيرها . ومع ذلك فان الخريطة تنقل بدقة كاملة جميع المعلومات التي تريد ايصالها للمسافرين ([1]) .

ينطبق هذا الوصف على الخرائط الجغرافية فالأنهار والسواحل وغيرها مبينة بخطوط متماثلة ولكن بنطاق مصغّر فحجم جزيرة قبرص في الخريطة ربما هو الحجم الذي يمكن ان يرى من الجو وعندما تكون الخريطة أكبر فان على معد الخريطة ان يختار مواقع جغرافية أكثر بدقة أكبر . وبصرف النظر عن هذه المواقع التي تظهر على الخريطة بحجم أصغر هناك مواقع عديدة تؤشر بإشارات والوان تقليدية . وبشكل عام فان الخريطة مثل الرسم البياني توضع لنقل معلومات ولكن بحدود معينة .

تؤدي الخارطة الجيدة او الرسم البياني غرضاً محدوداً محسوبة بدقة وقد تكون هناك امور فيها يمكن ان نقول عنها بانها غير وافية ، ولكن المعلومات التي تريد ايصالها ستكون صادقة ([2]) .

اللغة الدينية تشبه الرسم البياني سواء بالتأكيدات أو الأفكار أو المصطلحات بطرق مختلفة وبذلك يمكن ان نسميها خريطة بيانية . هنالك تشابه بالنسبة الى العنصر غير الواقعي او بنقل المعلومات بطريقة ايجابية بالنسبة للجانب الايجابي ، باختصار، فان اللغة الدينية تعطي المتلقي معلومات كافية حول طبيعة العالم من اجل تمكينه من ممارسة حياته بشكل مرضي . من ناحية أخرى فإنها لا تعطيه أجوبة تغطي فضوله

1- Watt,Islamic revelation p84 .

2- Ibid, p84-85 .

العقلي . ويمكن للغة الدينية ان تكون مقبولة عند أولئك الذين يعترفون بمحدودية العقل الإنساني . وبهذا الاعتراف يمكن ان ينظر إلى اللغة الدينية على انها كافية بشكل وافي لغرضها المحدود العملي ([1]) .

وقد يتم الاعتراض على ذلك اذا كان المخطط البياني يتبع الأصول الطبيعية او الاصطناعية التي يتبناها الإنسان بوعي . لا توجد أصول متبناة في حالة اللغة الدينية وبقدر تعلق الأمر فان اللغة الدينية للكتاب المقدس يعتقد بانه جاء من قوة خارقة لان وجهة النظر مختلفة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين . يمكن ان يقال بان تلك القوة الخارقة قد صاغت تلك اللغة لأغراض عملية محدودة ... والهدف من هذه المناقشة الخاصة بالمخطط البياني للقول بان استعمال اللغة هو للتأكيد على ان الكتاب الموحى به كافي لإعطاء الارشادات في قضايا الحياة والدين ولكنها لا تعطي الرضا العقلي الكامل .... ([2]) .

3 ـ أهمية ابراهيم في القرآن (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

ان الاعتبارات التي قدمتها ستساعد في فهم أهمية شخصية إبراهيم في القرآن وهذا امر ضروري جدا لان المؤرخين العلميين في العصر الراهن يميلون الى رفض الكثير مما جاء في القرآن حول ابراهيم على اساس انه خيالي ولا قيمة له . قد يقول ، على سبيل المثال، بان فكرة دين إبراهيم قد اخترعت لتبرير انفصال محمد عن اليهود قبل معركة بدر بقليل عام 624 من اجل مواجهة النقد اليهودي للقرآن . ان تأكيدات القرآن المختلفة حول ابراهيم هي اولا تأكيدات حول احداث عالمية . ومع انها تأكيدات لها مخطط بياني الا انها تبقى مفيدة لأنها تعطي الانسان ارشادات حول نظام حياته نسبةً الى القوى الحسية

1- Watt,Islamic revelation, p85 .

2- Ibid, p85-86 .

ولكنها لا تقدم الكثير حتى يتحقق الرضا العقلي . ما سيأتي هنا يبقى بعيدا عن المناقشة الكاملة حول اهمية شخصية ابراهيم القرآنية بل لتأشير عناصر مهمة اخرى ([1]) .

ان قول القرآن بان الاسلام هو مطابق لدين ابراهيم يستحق مزيداً من الدراسة (على سبيل المثال : الآية 133 من السورة الثانية) ([2]) ان الدين اليهودي والدين المسيحي والدين الاسلامي قيل انها جميعها قد بدأت في التجربة الدينية لإبراهيم . ان مثل هذا القول يعتبر قولاً غريباً لليهود والمسيحيين أي ان أصل هذه الاديان كتجربة كانت قبل اليهودية . وكما جاء في القرآن ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) ([3]) .

يميل الأوروبيون الى الاعتقاد بان العهد القديم هو دين واحد وان عبارة «اله ابراهيم واسحاق ويعقوب» مألوفة لديهم لذا فقد كان امراً صادماً بان ابراهيم ليس يهودياً . يقول البعض ان اليهودية بدأت بعد السبي اليهودي والبعض الاخر يعتقد انه بدأ عندما أُوحي بالشريعة الى موسى . القليلون يرون بانه معروف بدين بني اسرائيل . ومع ذلك حتى في التفسير الأخر فان ابراهيم لم يكن يهودياً لان يعقوب كان حفيده . ومن الطبيعي فان ابراهيم ليس مسيحياً كذلك . اذا اتفقنا على ان الموضوع هو استمرار للعهد القديم فهذا بالضبط اساس ما تحاول المناقشة الحالية عمله ... ([4]) .

على مستوى الرواية التاريخية فان الأدلة في الحد الأدنى . فقد قيل بانه لا يوجد فرد باسم ابراهيم مثلما تم وصفه وربما كان هذا الاسم يمثل قبيلة او مجموعة من الناس . حتى لو كان الأمر كذلك فانه يعد مسالة ثانوية . المهم في الامر ان هناك تجربة لإنسان او مجموعة من الناس استجابت لـ «نداء داخلي» او «وحي» يعتقد انه جاء من

1- p86 . Watt,Islamic revelation,

2- قوله تعالى ((أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) من سورة البقرة .

3- الآية (67) سورة ال عمران .

4- Ibid, p86-87 .

قوة خارقة ... ان كلمة «حنيف» في القرآن تعني الامتثال لمسألة التوحيد ، في حين ان المسلمين في معنى غير فني يعتقدون بأن الله واحد وهو امر مرادف تقريبا . لم يكن هنالك أي اعتراض يهودي او مسيحي على هذه المرادفات طالما تم الاعتراف بالكيان التاريخي لمفهوم دين ابراهيم ([1]) .

ان التصور القرآني لدين ابراهيم كان ذا طبيعة سلبية وهذا يحتاج الى وقفة كما يعتقد الكثير من الغربيين . ان الاشكالية في ذلك هي ان من بين اليهود والمسيحيين المعاصرين لمحمد يرون بان الدين الخالص لإبراهيم قد زوّر . وهنالك آيات في القرآن تشير الى التزوير ... ان من الواضح للعلماء الغربيين بانه لا يوجد تزوير لنص الانجيل بخلاف ما يدعيه بعض المسلمين .

ومع ذلك يمكن فهم الآيات القرآنية بطريقة الخريطة البيانية كأمثلة على امور اساسية . حتى اذا قيل ان الوحي الذي نزل لسلسلة من الانبياء كان نقياً وغير مشوهاً الا انه بعد جيل او جيلين من الزمان زحفت التشوهات اليه وهو امر طبيعي فالمسيحيون اهتموا بالدفاع عن دينهم تجاه اليهود ولكن بعض المسيحيين كان لديهم شعور بالنقص ولمواجهة هذه الحالة كانت الحجة المسيحية مبالغ فيها بشكل غير مبرر . كل الحركات الدينية تبدا نقية ولكنها تتعرض للتحريف بعد جيل او جيلين . من الادلة على ذلك نكران اليهود ليسوع ونكران المسيحيين لمحمد كنبي ووقوف المسلمين للدفاع عن الاسلام ضد اليهودية والمسيحية . لو تمكن اليهود والمسيحيين من الاحتفاظ بنقاء دينهم لكانوا قد اعترفوا بإرادة الله في اختيار محمد مثلما فعل ورقة بن نوفل وبهذا فان التصور الاسلامي للتحريف له ما يبرره ([2]) .

من الميزات الهامة الأخرى التي وردت في القرآن حول صورة ابراهيم هي في رفضه للوثنية و لاتباع ابيه في ذلك . وقد تمت الاشارة اليها في اماكن عديدة من القرآن

1- Watt,Islamic revelation, p87.

2- Ibid, p88 .

(الآية 83 من السورة 37) ([1]) ، رغم ان ذلك لم يرد في الانجيل . ان عبادة الاوثان أو" الدين القديم" هو في الاساس عبادة قوى الطبيعة وبالأخص الخصوبة عند الرجال والنساء ، وفي هذه العبادة اعتراف بان الانسان يعتمد على قوى اكبر منه ومع ذلك فان العهد القديم قد اكّد لبني اسرائيل على عدم امكانية تطور العبادة من الوثنية الى الدين التوحيدي . ولكن في مرحلة من المراحل لابد من وجود وقفة .

لقد رفض انبياء العهد القديم الوثنية بالمرة ، ولكن بعض عادات الوثنيين قد تم الاحتفاظ بها في الدين الجديد مثل ذبح الاضاحي ([2]) والذي اخذ موقعاً مهماً في العهد الجديد . ان هذه الحقيقة العامة ، اي في مرحلة من المراحل لابد من وقفة لها من اجل التقدم الى امام وهي مشار لها في الخارطة البيانية للقرآن ضمن قصة ابراهيم ورفضه للأصنام ([3]) .

هناك ميزة مماثلة لسيرة محمد فقد كان يأمل بان يكون هنالك انتقال سلس من الدين القديم الى دين التوحيد الجديد ، ولكن بعد قضية « الآيات الشيطانية» ادرك بانه امر غير ممكن .

من التفاصيل التي لا يتطابق الانجيل بها مع قصة ابراهيم الواردة في القرآن هي علاقته بمكة وبناء الكعبة (الآيات 124- 129 من السورة 2) ([4]) ، وهنا مرة اخرى

1- قوله تعالى ((وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)) الآيات (86-83) سورة الصافات . وقد اشار وات خطأً الى الآية (83) فقط.

2- لايمكن نسبة هذه الممارسة (ذبح الاضاحي) الى الوثنيين والعادات القديمة ، كونها ترتبط وبشكل واضح بعهد نبي الله ابراهيم (ع) ، حينما امره الله تعالى بافتداء ولده اسماعيل بكبشٍ عظيم ((وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)) ، اما انتقال هذه الممارسة الى الوثنيين الذين حلوا محل الحنفاء الموحدين لله تعالى ، فهذا الامر طبيعي لان الكثير من الشعائر التي اقرها ابراهيم (ع) بعد بناءه لبيت الله الحرام ، قد حرفت وشوهت بفعل الزمن وابتكارات العقل البشري ، حتى جاء الاسلام واصلحها .

3- Watt,Islamic revelation, p88-89 .

4- قوله تعالى ((وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ

، رغم انه لم يقدم ادلة فيها مادة علمية تاريخية حول عصر ابراهيم لكنه وفّر حقائق مهمة وفق الخارطة البيانية للقرآن . قبل كل شيء فانه يؤكد على الدافع الديني الذي نشأ بإعادة العبادة الى الكعبة كما في الماضي السحيق وهو مطابق لاستجابة ابراهيم للوحي وبالاستجابة لهذا النوع من قبل المسلمين . هذا يعني انه كان هنالك تحريف للاديان القديمة لما قبل الاسلام وبالرغم من ذلك بقيت بعض الحقائق حيّة . لقد تم الاحتفاظ ببعض الطقوس القديمة من قبل المسلمين مثل الطواف حول الكعبة والعديد من الشعائر اثناء الحج باعتبارها تطبيق للمبادئ الفكرية ([1]) .

لم يذكر القرآن رغم علاقة ابراهيم بمكة بالتحديد ، وجود اي عربي من سلالة ابراهيم ولكن في مرحلة لاحقة ، قام العلماء المسلمين على ربط الانساب العربية التقليدية بتلك المذكورة في العهد القديم واشاعوا ان العرب الشماليين هم من انساب اسماعيل . ومن المؤكد ان معظم العرب هم من انساب الشعوب السامية الذين توارثوا نفس العقلية والثقافة والدين .

عندما ينظر المرء الى المستقبل فانه لابد ان يأخذ بالاعتبار ضرورة التفاهم المتبادل بين الأديان الثلاثة العظيمة ، وعند تحقيق هذا التفاهم فان تصور وجود ابراهيم سيلعب دوراً مهماً ، ان هذا التصور يضع هذه الاديان الثلاثة على قدم المساواة ويتجنب وضع الاسلام في موقف الضعف ازاء اليهودية والمسيحية ، وهذا يؤشر ايضا كيف ان التجربة الاساسية لنقاوة دين ابراهيم - استجابته للوحي الالهي - هي من العناصر الاساسية لليهود والمسيحيين والمسلمين . سيمكننا هذا التصور للتحدث عن

وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) من سورة البقرة .

1- p89-90 . Watt,Islamic revelation,

الكيان التاريخي لدين ابراهيم ولرؤيته على انه كائن واحد قد انفصل ليصبح ثلاث كيانات واحدة تنبثق عن الأخرى. واخيرا دعني اؤكد بانه لا يوجد شيء خيالي حول استعمال شخصية ابراهيم ولكنها عبرت عن نفسها وفق التخطيط البياني الذي عبّر عن جوانب مهمة للواقع في نهاية المطاف ([1]) .

1- Watt,Islamic revelation,, p90 .

قراءة نقدية لما ورد في الفصل السادس

1 - الخطاب الديني للقرآن الكريم

انبرى وات هنا للبحث في مسألة الخطاب القرآني الموجه للناس، مؤكداً على ان المتابعة البيانية للخطاب الديني الموجود في القرآن الكريم ومستوى فهم هذا الخطاب عند الناس لم يكن يمثل مشكلة كبيرة وواضحة عند المسلمين في بداية الامر، لانه يرى ان مستوى عقلية المسلمين في بداية الدعوة لم يكن ناضجاً ولم يصل الى درجة فحص الألفاظ والمفردات واللغة الدينية والخطاب الديني ومناقشتها مناقشة عقلية.

فالمستوى العقلي للمسلمين في بداية الدعوة ضعيف جداً لذلك تم قبول كل ما ورد في القرآن الكريم من دون الفحص وتحليل اللغة الدينية التي احتواها , هكذا يعتقد وات، الا ان المشكلة وقعت فيما بعد، حينما اخذ البعض من المسلمين بتسلق حبال العلم وتدرجت عقلياتهم لتصل الى مستويات عالية دفعتهم الى طرح مجموعة من الاسئلة والبحث في مضامينها لاسيما فيما يتعلق بمفردات القرآن ونصوصه، ومساره اللغوي. هنا وكما يرى وات وقعت الاشكالية التي جعلت هؤلاء (علماء المسلمين) يقفون امام مفترق الطريق في محاولة فهم تلك المفردات او في محاولة فهم الخطاب الديني الذي احتواه القرآن الكريم، فركز بدرجة كبيرة على قضية التجسيم والتشبيه التي ابتلي بها المسلمون في وقت مبكر من الدعوة، وقد خصَّ هذا الموضوع بحيز كبير مؤكداً على ما احدثهُ من خلاف بين المسلمين، لان الآيات القرآنية التي اشارة الى يد الله او قول الله او كلام الله، فهمها البعض على انها اشارات تبين تجسيم الله، ولكن هنالك من يقول خلاف ذلك . هذه اللغة احدثت فهماً متعدداً ومختلفاً عند علماء المسلمين، ولذلك حصلت هذه المشكلة .

المستشرق وات ناقش هذا الامر مستعيناً بالرسم البياني لتوضيح فكرته حول مسار الخطاب القرآني ، فهو يرى بان الرسم البياني لسكة حديد على سبيل المثال , يُظهر هذا المخطط العلاقات الرئيسية كمحطات الوقوف او المسارات العامة واتجاهاتها ، ولكنه لا يُظهر التفصيلات الجزئية كالتعرجات او مقدار المسافات بدقة عالية , هذه التعرجات والتفصيلات الجزئية التي لا تظهر في الرسم البياني والمخطط لسكة حديد مثلاً تشابه حالة اللغة الدينية او الخطاب الديني الذي احتواه القرآن الكريم والذي هو في الاساس موجه للانسان . هذه باختصار فكرة هذا المستشرق حول مسار الخطاب القرآني .

وفي ختام فكرته هذه يتحدث بصراحة مبيناً هدفهُ من ذكر (المخطط البياني) الذي جعله مثالاً على ما افتقد اليه الخطاب الديني وما غاب عن لغة القرآن الذي ورد في القرآن الكريم : بأن استعمال اللغة هو للتأكيد على ان الكتاب الموحى به كافٍ لاعطاء الارشادات في قضايا الحياة والدين ، بمعنى أن القرآن جاء ليقدم الارشادات في قضايا الحياة الانسانية المعاصرة لنزوله , من عمل وزواج وعباده , , بمعنى ان هذه المسارات الارشادية ستكون محدودة الفائدة ، محصورة فقط بذلك العصر الذي نزل فيه القرآن ، واما التطورات التي ستشهدها حياة الانسان بعد ذلك بما يوازي ارتقاء وتقدم عقله ، وبحثه في المسائل المتقدمة ، فأن القرآن الكريم سيعجز عن اداء ذلك الدور الارشادي الذي اداه سابقاً , وبعبارة اكثر وضوح واثاره ، يريد وات القول : ان القرآن الكريم لم يخصص لمجارات هذا العقل الانساني المتقدم .

واقعاً هذه الاشارة خطيرة جدا حينما يصنف القرآن الكريم على انه جاء فقط ليقدم ارشادات في قضايا الحياة والدين المعاصرة لنزوله , وهو غير قادر على مجاراة تطور العقل البشري وتقدمه , هذا الكلام مليئ بالانتقاص من القرآن الكريم . فمن ابرز الواضحات ان القرآن لم يلبِ حاجات عصر محدد او مجتمع انساني محدد , لان ما احتواه من تشريعات واحكام وحقائق ومعارف واخبار وغيرها جاء لملائمة كل العصور والمجتمعات , بدليل اننا لم

نجد اي تقاطع بين ما ورد في القرآن الكريم ، وبين المجتمعات المختلفة على امتداد العصور , ولم نجد ان هنالك عجز في القرآن الكريم عن تلبية حاجات المجتمع او حل مشاكله . القرآن دائماً يقدم ماهو مناسب وصالح لكل العصور ولكل المجتمعات , وهذا الأمر لا يمثل تراجعاً امام تقدم العقل البشري الذي يسعى للاصلاح وفق مفهوم سليم لمسارات ارتقاء العقل البشري , يجب ان يكون العقل متجهاً نحو صلاح البشرية والسعي لخلق نظام للتعايش السلمي , وكل ما يسعى لابتكاره العقل البشري من نظم وقوانين ونظريات اذا كانت وفق هذا المعنى الاصلاحي الانساني , فانها تلتقي حتماً مع محتوى القرآن الكريم .

القرآن الكريم يدعو في مجموعة من الآيات الى تطور العقل البشري ويدعو الى جعل العقل البشري عقل متحرر وليس جامد، ومن المعلوم لدى الجميع ان منح العقل البشري الحرية يؤدي حتماً الى تطوره وتقدمه . لقد شجع الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز الانسان على استخدام عقله ((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)) ([1])، وهذه دعوة صريحة من الخالق لعبده ان ينظر، بمعنى ان يتأمل ويفكر وان يتحرك لا ان يكون جامداً موجهاً، فان ما انعمه الله تعالى على الانسان من نعمة العقل لابد من ان يقوم هذا الانسان باستخدامه، لا ان يقوم بتعطيل عقله فيصبح اداة يوجهها البعض حيث شاء، بينما اشار وات الى ان القرآن الكريم جاء لاعطاء الارشادات في قضايا الحياة والدين فقط، هنا التعبير يقدم صورة مغلوطة عن طبيعة العلاقة بين النصوص القرآنية من جهة و العقل البشري من جهة اخرى , فالنصوص القرآنية احدى اهم الادوات المساعدة للعقل البشري نحو هدف الاصلاح والانسانية . الله تبارك وتعالى دفع الانسان لكي يستخدم عقله في التفكير والاستنباط .

فالتأكيد على العقل واستخدامه وعدم تعطيله هي دعوة انطلقت في القرآن الكريم، وليس العكس الذي يلمح اليه وات ان القرآن يسلب العقل في الحركة والابتكار. ان

1- الآية (5) سورة الطارق .

دعوة القرآن لاستخدام العقل نحو الفهم والاصلاح والسعادة امرٌ مؤكد لايحتاج الى جدال طويل . ان خاصية الفهم المتعدد للنص القرآني ، والمرونة العالية في بعض احكامه انما هي تقدير عال للعقل البشري ، فالنص واحد ، وبالامكان ان يقرأ بعدّة اوجه نسبةً الى الاختلافات الحاصلة زمنياً وثقافياً بين المجتمعات الخاضعة لاحكامه . فعلى سبيل المثال : النص الذي يعبر عن نظام الزواج الاسلامي في قوله تعالى ((وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)) ([1]) ، هو نصٌ واحدٌ لكل المجتمعات الاسلامية في كل العصور ، وهو صالح لجميع المجتمعات حتى الغير اسلامية. وبالامكان ان تطبقهُ المجتمعات وفقاً لظروفها الاجتماعية والثقافية والمادية ، فيكون التطبيق مختلف من مجتمع الى اخر على الرغم من كونه نصاً واحداً ، وهذا ابلغ دليل على مرونة القرآن وتفاعله مع ظروف المجتمعات الانسانية المختلفة عبر الازمان والثقافات . ونبقى في حدود هذا النص ، فالحرية التي منحها الله تبارك وتعالى للرجل في عدد زيجاته، انما هي مقيدة بشكلٍ غير مباشر وغير واضح في سياق النص القرآني ، مقيدة بقبول المجتمع او رفضه لهذا التعدد ، من خلال درجة تفاعله مع سعي الرجل نحو التعدد ، هذا التفاعل الذي يتوقف على ظروف المجتمع . ومن المعلوم ان المجتمعات تختلف في ظروفها عن بعضها البعض ، فمنها من تعيش بظروف طبيعية ، ومنها من تعيش في ظروف قاهرة بسبب الحروب او غيرها من الاسباب المهلكة للرجال تحديداً ، فتخلق نقصاً في عدد الرجال يقابلها زيادةً في عدد النساء ضمن المجتمع الواحد . وعليه تختلف المجتمعات في تطبيقها لهذا النص القرآني الواحد ، مما يُظهر لنا المرونة الكبيرة التي احتواها القرآن الكريم ، والتقدير العالي الذي خصهُ الباري عز وجل للانسان وعقله وتقديره لشؤون حياته .

1-الآية (3) سورة النساء .

ان هذا الفهم المتعدد للنص القرآني ، يوحي بمرونته العالية وقابليته للانسجام مع مختلف العصور ، فيلبي حاجات كل المجتمعات البشرية على اختلاف ازمنتها , فلا تتجمد دلالات النصوص القرانية ولا تتحول الى قوالب جامدة ، فتتأخر عن تنامي وتطور العقل البشري , بل هي وبشكل دائم تظهر تفاعلها وانسجامها مع اي حالة من حالات تطور العقل البشري , وهذا الامر من مميزات كتاب الله تبارك وتعالى المعجزة الألهية الخالدة .

2 - اهمية ابراهيم في القرآن

تابعنا من قبل المستشرق وات وهو يتحدث في المبحثين السابقين عن اللغة الدينية وكيف انه شبهها بالمخطط البياني لسكة حديد , وكيف ان هذا المخطط لا يُظهر الجزئيات ، وانما فقط العموميات والمحطات الرئيسة . بعد ذلك انتقل بشكل مباشر للحديث عن موضوع اهمية ابراهيم في القرآن .

يبدو ان موضوع اهمية ابراهيم عليه السلام في القرآن من الموضوعات التي دفعت علماء الغرب في العصر الحديث ، ومن قبلهم رجال المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية للتركيز عليه ، واتخاذ موضع الدفاع لمواجهة الحقائق التي طرحها القرآن الكريم في آيات بيّنات فيها من الحقائق الصريحة الواضحة التي لا لبس فيها اطلاقاً . وضعهم الدفاعي هذا جعلهم يبحثون عن مخارج لرفع الشبهات عن اديانهم وتأكيد اصالتها . سبب ذلك المزيد من الثغرات التي وضعت المتتبعين والباحثين عن الحقيقة امام قوة ومتانة الادلة القرآنية لاسيما النصوص التي تعرضت لابراهيم (ع) ، في مقابل ضعف وهشاشة الأدلة المقابلة .

لقد اكد المستشرق وات على ان المؤرخين اصحاب المنهج العلمي في العالم الحديث اليوم ، يميلون الى رفض الكثير مما ورد في القرآن الكريم حول ابراهيم(ع) ، ويعدون ما ورد في هذا الشأن هو من الخيال ومما لا قيمة له . طالما كانوا يؤكدون على ان القرآن موضوع وهو ليس بكلام الله تبارك وتعالى , ويشيرون الى هذه الفكرة المرتبطة بدين

ابراهيم (ع) التي ذكرها القرآن الكريم ، انما هي من اختراعات النبي محمد (ﷺ) لتبرير انفصاله عن اليهود .

هذا الكلام حقيقة لا قيمة له امام الحقائق التي اوردها القرآن الكريم ، بل الحقائق التي اكدتها هفوات واخطاء اليهود والنصارى حينما دخلوا في محاججة طويلة مع بعضهم البعض ، كلٌ منهم يريد ان ينسب ابراهيم (ع) لصفه . اليهود يقولون ان ابراهيم (ع) منهم ، والنصارى يقولون ان ابراهيم (ع) منهم ، والقرآن الكريم يكذب هؤلاء واولئك في نصوص صريحة وواضحة . المفارقة الكبيرة ان اليهود والنصارى لما اختلفوا وتحاجوا في نسبة ابراهيم (ع) اليهم لم يختلفوا في تأكيد او بطلان دين ابراهيم (ع) , هم لم يختلفوا في أمر نبوة ابراهيم (ع) , انما كان اختلافهم حول تأكيد الانتماء والنسب والارتباط بابراهيم (ع) ، كل منهم حاول ان يثبت علاقته وارتباطه بابراهيم (ع) ، ليقول بعدئذ ان دينه هو الدين الصحيح . هم بذلك ومن دون ان يشعروا عبروا صراحةً عن اصالة دين نبي الله ابراهيم (ع) ، وصحة نبوته ونقاء دينه . لقد حمل اختلاف اليهود والنصارى دلالات عالية وكبيرة لتعزيز مصداقية ووثاقة دين ابراهيم (ع) . وجدنا انه من الضروري الاشارة لهذا الامر قبل الخوض في باقي التفاصيل المؤدية الى اثبات علاقة اي من الاديان الثلاثة (اليهودية ، المسيحية ، الاسلام) الى دين ابراهيم الخليل (ع) .

نبدء من محاججة اليهود والنصارى لبعضهم البعض في مسألة نسبة ابراهيم اليهم ، وهي النقطة الاولى الاساسية اذ ان هذه المحاججة انما هي تأكيد على حقيقة ونقاء هذا الدين دون تحريف ، و انه الدين الحق الذي يريدون ان يؤكدوا على اصالة أديانهم من خلال الانتساب اليه ، او من خلال انتسابه هو اليهم مثلما كانوا يعتقدون .

وات لديه عبارات مثيرة جداً في سياق الموضوع , فهو يقول :"ان قول القرآن بأن الاسلام هو مطابق لدين ابراهيم يستحق مزيداً من الدراسة" فعلاً هذا الامر يستحق المزيد من الدراسة والبحث لنصل الى الاطمئنان التام , هل ان الاسلام بالفعل متطابق مع دين ابراهيم (ع) !!! ام ان اليهودية والنصرانية هما الاديان التي تتطابق مع

دين ابراهيم (ع) . اذن وات يدعو للمزيد من البحث والدراسة لما ورد في الآية (133) من سورة البقرة قوله تعالى ((أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) .

كذلك هو يعترض على من يقول ان اديان اليهودية والمسيحية والاسلام ، هي اديان جميعها بدأت ضمن تجربة دين ابراهيم (ع) ، والتجربة الدينية انطلقت من ابراهيم (ع) , وان اليهودية والنصرانية والاسلام هي اديان بدأت مع التجربة الدينية لابراهيم (ع) , هذا القول بالنسبة لليهود والمسيحيين يرى وات بانه قول غريب , كونهم لايعدون اديانهم ضمن نفس التجربة ، كون اليهودية زمنياً قد سبقت في حضورها ووجودها المسيحية والاسلام .

اما نحن فنقول ان اصل الاديان في نشأتها واحد ، وعلى هذا الاساس لا قيمة للقول الذي يتبناه البعض الذي يقوم على الاسبقية الزمنية لدين على دين اخر , لاننا نعتقد انه ما كانت هنالك حاجة لظهور دين لاحق لولا وقوع الانحراف في الدين السابق عن الاصل الذي انزله الله تعالى به , فليس هنالك اي حاجة لدين جديد اذا كان الدين السابق له محافظ على اصالته ونقاؤه , وبالتالي فأن ظهور اديان جديدة دليل على ان الاديان القديمة اصيبت بالانحراف , ولذلك بعث الله تعالى من يصلح هذا الانحراف .

لو طالعنا مجموعة من الآيات القرآنية ، كقوله تعالى ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)) ([1])، هذه الآيات القرآنية تقدم لنا اجابات شافية ووافية لتلك التساؤلات التي طرحها وات : هل ان الاسلام مطابق لدين ابراهيم (ع) ، ام ان اليهودية والمسيحية المطابقان؟ لقد ثبت

1- الآيات (65 - 68) سورة ال عمران .

بطلان ادعاء من قالوا ان ابراهيم (ع) يهودياً أو ان اصله يهودي , كذلك ثبت بطلان ادعاء من قالوا ان اصله مسيحي , فتسمية اليهود باليهودية والنصارى بالنصرانية ، ليس لها اي بُعد تاريخي يتقدم على عهد ابراهيم (ع) ، حتى ننسب ابراهيم عليه السلام لها , فلا يمكن نسب ابراهيم (ع) الى تلك الاديان وهو الذي يتقدم زمنياً عليها جميعاً .

لقد اكد الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ما كانوا يهوداً ولا نصارى ، في قوله تعالى ((أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)) ([1]) ، فكيف اذن نصنف ابراهيم على انه يهودي او نصراني !!!!! ومن الذي ينتسب لمن !!!!

بالنسبة لليهود وسبب تسميتهم بهذا الاسم , سبق وان قلنا ان ذلك لا يمتلك بعداً تاريخياً يتقدم على ابراهيم (ع) , فهنالك روايات تتحدث عن سبب تسميتهم باليهود , منها انهم يرجعون الى يهوذا بن يعقوب الذي ينتمي اليه بنوا اسرائيل ([2]) ، ويقال ان العرب قلبت الذال الى دال فعُرفوا بهذه التسمية , ويهوذا هذا بن يعقوب ، ويعقوب ابن اسحاق وهو حفيد ابراهيم ، فعلى اي اساس ينسب ابراهيم الى اليهود !!! ومن الجدير بالذكر ان تسمية اليهود لم تكون موجودة ومتداولة بين الناس في عهد ابراهيم (ع) .

الرأي الثاني وهو ما نقل عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) لما سُئلَ عن اصل تسمية اليهود بهذا الاسم , فأشار الى ذلك ابن كثير وغيره من اصحاب المصادر، عن جواب الامام (ع) الى ان تسمية اليهود بذلك نسبة الى (الهود) ومعناها التوبة والرجوع الى الله تبارك وتعالى , وهذا الامر تم في عهد موسى عليه السلام حينما قال لربه :» انا هدنا اليك « اي تُبنا ورجعنا , ورجع اليهم حينما ذهب لميقات ربه فصنعوا

1- الآية (140) سورة البقرة .

2- ينظر: احمد،محمد خليفة حسن ، تاريخ الديانة اليهودية ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1998 ، ص196 .

قومه عجلاً وقاموا لعبادته فلما رجع ووجدهم على هذا الحال غضب عليهم غضباً شديداً وأنبهم ثم رجع اكثرهم وتابوا عن فعلتهم تلك فقال موسى هذه الكلمة : «انا هدنا اليك» فسموا هوداً ([1]) ، ثم حولت المفردة الى اليهود .

هذه مجموعة من الاراء التي قيلت في اصل التسمية , ولا نرى فيها ما يدعم قول اليهود من ان ابراهيم (ع) ينتسب اليهم اطلاقاً، ثم ان القرآن الكريم في نصوص عديدة صرح بما يؤكد ذلك ففي قوله تعالى ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)) ([2])، ظهوركم ومجيئكم انما كان من بعد ابراهيم (ع)، فلما تحاجون في ابراهيم وقد نزلت توراتكم واناجيلكم لاحقاً . وفي الآية (66) من سورة البقرة قوله تعالى ((هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)) ([3])، لاحظ هذا الخطاب التأنيبي الذي يكشف عن جهل هؤلاء ومقدار تعنتهم ومقدار زيفهم.

وفي آية اخرى قال تعالى ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) ([4])، وهو جواب صريح وكاشف لمن يحاجج في امر ابراهيم (ع)، يا ايها اليهود يا ايها النصارى : انتم الذين تحاجون في امره , هو لم يكن منكم ولا منهم : ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين «لاحظ هذا الجواب الكاشف والصريح . ان النفي الالهي لادعاء اليهود والنصارى هذا انما يقوم على ركيزتين :

الركيزة الاولى : انه لوصح الارتباط بين ابراهيم واليهودية او بين ابراهيم والمسيحية،

1- للمزيد من التفاصيل حول التسمية ينظر: الشامي ، رشاد ، اليهود واليهودية في العصور القديمة ، القاهرة ، 2001 ، ص ص 87 - 90 .

2- الآية (65) سورة ال عمران .

3- الآية (66)سورة ال عمران .

4- الآية (67)سورة ال عمران .

لوجب علينا القول : ان الاولى بالنسبة تكون بنسبة اليهودية والمسيحية لابراهيم (ع) وشريعته وليس العكس، لان ابراهيم (ع) زمنياً يتقدم على هذه الاديان ، فضلاً عن ان انبياء هذه الاديان هم من ولد ابراهيم (ع) ، وعلى هذا الاساس لا يجوز نسبة الاب للابن، في حين يصح العكس .

الركيزة الثانية : ان دفع الله تعالى لهذه الرابطة بين ابراهيم (ع) واليهودية ، أو بين ابراهيم (ع) والمسيحية والتأكيد على بطلانهما , هو بسبب التحريف الذي طال هذه الاديان، (اليهودية والمسيحية) ، فاخرجهما عن كونهما شرائع سماوية متطابقة مع من سبقها من الشرائع وهي شريعة ابراهيم (ع) , ولو لم يطأها التحريف لكانت مطابقة لشريعة ابراهيم (ع) ، ولا تختلف عنها الا بحدود السعة والشمول التي تحاكي المتغيرات على واقع المجتمع الانساني , اذ وكما هو معلوم فان شأن الشرائع السماوية ان تحاكي المتغيرات على الواقع البشري فتأخذ بالتدرج لتنسجم مع تنامي الزمن ومساراته ، التدرج التشريعي الذي يمثل ارادة الله تعالى ولملائمة وسعة الحياة وتكاثر البشر وتطورات الحياة الاخرى .

اذن الانحراف الذي اصاب اليهودية والمسيحية قد اخرجهما عن جوهرهما الذي لو بقيا كما أُنزلا لقلنا انهما تتطابقان مع شريعة ابراهيم (ع) ، ولكن بوقوع التحريف انقطعت هذه الرابطة بينهما ولذلك قال الله تعالى ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) .

لقد اكد الله تبارك وتعالى على انتهاء تلك العلاقة ، مشيراً الى ادعاء كلا الفريقين اليهود والنصارى في نسبة ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط منهم ، كما جاء في قوله تعالى ((أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)) ([1]) ، اذن هو ادعاء باطل ذلك الذي ينسبون الانبياء فيه الى اليهود او

1- الآية (140)سورة البقرة .

النصارى ، فنبي الله ابراهيم الخليل (ع) وبقية الانبياء الابراهيميين لاينتسبون لليهود ولا للنصارى ، وما ادعائهم هذا الا تضليل وتزوير وكذب .

اعقب ذلك جواب قرآني وافي وصريح ، لكل من يسئل حول ابراهيم وبقية الانبياء الابراهيميين عليهم السلام ، اذا لم يكونوا يهوداً او نصارى ، اذن لمن ينتسبون ؟ ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) ، اذن حنيفاً مسلماً ، فما هو المقصود بالحنيف المسلم ؟ .

ان لفظة الحنف تعني : الميل عن الضلال الى الاستقامة ، والحنيف هو المائل عن الضلل . لذا وصفه العزيز القهار بانه حنيفاً ، بمعنى انه فضلاً عن كونه لا يدين بدين اليهود ، ولا دين النصارى ، فانه مائل عن تلك العقائد الزائفة المنحرفة من عبادة الاصنام والاوثان وغيرها ، الى طريق الاستقامة الذي صرح باسمه الله تبارك وتعالى بقوله مسلماً ((حَنِيفًا مُسْلِمًا)) . مسلماً لله تعالى وحده لا شريك له ، التوحيد ذاته الذي جاء به النبي محمد (ﷺ) ، لذا فان الديانة الاسلامية التي جاء بها نبينا المصطفى تتطابق وتتكامل مع شريعة ابراهيم (ع) .

نعم هي تتطابق وتتكامل معها بما تقدمه من اقسام مماثلة في الشريعة ، واخرى مضافة بحكم انها جاءت متأخرة زمنياً عنها ، ولتستوعب الظروف والمتغيرات على واقع المجتمعات البشرية ومعالجةً لها . ولهذا صحت عبارات الانتساب لابراهيم (ع) والعبارات المؤكدة لهذه الرابطة . والسؤال المهم هنا : هل ان ابراهيم (ع) ينتسب للاسلام ام ان الاسلام ينتسب لابراهيم ؟ في الواقع العلاقة بين شريعة ابراهيم (ع) وشريعة محمد (ﷺ) هي علاقة تكاملية كما عبرنا عنها ، ولكن شريعة محمد (ﷺ) اكثر شمولية وسعة من شريعة ابراهيم (ع) مع وجود حالة التطابق بينهما كونهما لم يتعرضا للتحريف ، ولكن هذه السعة وهذا الشمول جاء ليلائم ظروف ومتغيرات المجتمع البشري ، ومادامت شريعة محمد (ﷺ) متطابقة مع شريعة ابراهيم (ع) من جهة ، واكثر شمولية منها من جهةٍ اخرى ،

لذا وصفه الباري عز وجل بانه حنيفاً مسلماً ، على اننا يجب ان نميز بين المسلم الحقيقي الذي تصدق عليه هذه التسمية ، من المسلم المخالف لشريعة الاسلام الحقة ، ولهذا حصر الله تعالى ذلك في قوله المبارك ((إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)) ([1]) ، لاحظ كيف ان الله تعالى حصر الذين يرتبطون بابراهيم (ع) هم من تنطبق عليهم احدى هذه الصفات الثلاث :

اولاً : المؤمنون به من الناس الذين عاصروه واتبعوه وناصروه وبقوا متبعين لجوهر شريعته دون تحريف ، ودون تزوير ، مثلما جاء في كتاب الله العزيز ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، اي اتبعوا ماجاء به حرفاً ونصاً ومعنى دون تحريف ودون تزوير .

ثانياً: في قول الله تعالى (وهذا النبي) : المقصود بذلك النبي المصطفى محمد بن عبدالله (ص) خاتم الانبياء بمعنى ان ماجاء به هذا النبي انما هو يتناسب ويتطابق مع تمام جوهر شريعة ابراهيم (ع) .

ثالثاً: وهم المؤمنون بخاتم الانبياء ، اي الذين امنوا بما جاء به النبي محمد (ﷺ) صدقاً بالقول والعمل . ولاشك ان معظم الذين امنوا بما جاء به النبي محمد (ﷺ) من المسلمين. على اننا يجب الالتفات الى ان الاسلام لايصدق علينا بالقول ، وانما يصدق علينا بالفعل، بمعنى ان ملايين البشر اليوم يطلقون على انفسهم انهم مسلمون ، ولكن للاسف الشديد افعالهم بعيدة كل البعد عن جوهر الاسلام ، وروحه ، وتشريعاته الحقيقية . في المقابل هنالك من سار على منهج الديانة الاسلامية السليم ، باتباع منهج النبي محمد (ﷺ)، والائمة الاطهار والصحابة الصالحين، مقتفياً اثارهم في الصدق، والمحبة، والتسامح، والسعي للعمل واعمار الارض بالخير .

بالعودة الى التساؤل الاول الذي طرحه وات حين قال :» فقد كان امراً صادماً

1- الآية (68) سورة ال عمران .

بأن ابراهيم ليس يهودياً « . من خلال ما ذكرناه ولاسيما النصوص القرآنية الخاصة بنبي الله ابراهيم (ع) ، تبين ان الاسلام هو المطابق لشريعة ابراهيم (ع) ، وليس اليهودية او المسيحية .

في ختام كلامه ضمن هذا السياق ، اشار وات مُفصحاً عن نواياه واهدافه الى نسب النبي محمد (ﷺ) المتصل بابراهيم عن طريق اسماعيل عليهم السلام ، مُظهراً استغرابه ان القرآن لم يذكر صراحةً ذلك النسب في نصوصه ، بالرغم من علاقة ابراهيم (ع) بمكة، وعليه فهو يشكك في صلة نسب النبي محمد (ﷺ) بابراهيم عن طريق اسماعيل عليهم السلام .

سبق ان تحدثنا عن طبيعة الخطاب القرآني ، وهذا امر معلوم وغير خافي ان القرآن الكريم لا يذكر كامل التفاصيل ، فمنها ماهو غير ضروري وغير مهم ولا توجد حاجة لذكره وفقاً لتقدير الله تعالى ، وعليه فان الحكمة الألهية التي هي فوق قدراتنا الادراكية وفهمنا، تجاوزت هذه التفصيلات كذكر سلسلة نسب النبي محمد (ﷺ) وصولاً الى النبي ابراهيم (ع)، وهذا التجاوز وعدم الذكر لايُضعف هذه الحقيقة، ولايلغيها، ولايُبطل الصلة الواضحة والمعلومة، والتي اكدتها تلك النصوص القرآنية الصريحة بان ما جاء به النبي محمد (ﷺ) يتطابق مع ما جاء به النبي ابراهيم (ع) من قبل .

ثم انهى وات مبحثه هذا معلناً حالة الاستسلام ،كاشفاً لحالة الضعف التي اضحت عليها اليهودية والمسيحية في مقابل قوة ومتانة الديانة الاسلامية من خلال قوله: «عندما ينظر المرء الى المستقبل فانه لابد ان يأخذ في الاعتبار التفاهم المتبادل بين الاديان الثلاث العظيمة وبتحقيق هذا التفاهم فان تصور وجود ابراهيم سيلعب دور مهم في ذلك».

لقد وجد هذا المستشرق ان حجة ايجاد رابطة بين اليهودية ونبي الله ابراهيم (ع) ، او المسيحية ونبي الله ابراهيم (ع)، عملية معقدة ، وشبه مستحيله وهي لا تؤدي الى نتائج طيبة، بسبب التصريحات القرآنية التي كشفت بطلان هذا الادعاء ، وانه لا صلة

بينهما، في حين ان الصلة واضحة جداً مع الديانة الاسلامية . لذا فان المستشرق وات صرح بضرورة ايجاد حالة من التفاهم المتبادل مستقبلاً بين الاديان الثلاث (اليهودية ، المسيحية ، الاسلام) . موظفاً الرابطة والصلة بنبي الله ابراهيم (ع) لخلق اجواء مناسبة للتفاهم . فبدلاً من السعي لاثبات الارتباط والصلة به، يدعو وات الى تفاهم الاديان انطلاقاً من شعور المشاركة في هذا الامر .

المطلب الاستشراقي هذا ، يسعى لوضع الاديان الثلاث على قدم المساواة ، وهو وان كان تطور كبير في التعامل الاستشراقي مع الاسلام !!! الا انه مؤشر حقيقي يعكس حالة الفزع والخوف التي شعر بها المستشرق وات ، على مستقبل الغرب الديني ، فهو بات على يقين تام ان المستقبل سيكون لمصلحة الاسلام ، ولذلك تعامل بجدية كبيرة مع هذه الهواجس ، من خلال اقتراح علاقة جديدة بين الاديان الثلاث .

ان الاسس المتينة التي تستند عليها الديانة الاسلامية في مقابل هشاشة وضعف الديانة المسيحية ، يضع المنظرين والمفكرين في الغرب امام حقيقة مروعة ، امام مستقبل مخيف . لقد ادركوا خطورة الديانة الاسلامية على مستقبل الوجود المسيحي في بلاد الغرب ، كون الديانة المسيحية وكذلك اليهودية تقفان على ارض رخوه بما احتوتا على حالات التحريف والتزوير التي كشفها القرآن الكريم واثبت بطلانها . وبالتالي اصبحتا غير قادرتين على مواجهة الحقائق التي وردت القرآن الكريم . وعلى اثر ذلك بدأنا نقرأ نصوص استشراقية كتبها كبار المستشرقين المُعتمدين في الغرب ، وهم يدعون الى تحقيق حالة وئام بين الاديان الثلاث .

هذه الدعوات في الواقع هي دعوات حديثة العهد لم نشهدها في كتابات المستشرقين السابقين التي كانت تقوم على رفض التعامل مع الاسلام كونه ديانة غير معترف بها ([1]). اما الان وبعد ان اخذت الحقائق تظهر وتتضح امام الناس وسقطت الصورة المزيفة التي

1- ينظر : Southern,R.W,Western views of lslam in the middle ages , Harvared,1962, p14 .

رسموها للاسلام امام شعوبهم ، بدأنا نلحظ هواجس الخوف من التمدد الاسلامي على حساب الوجود المسيحي في الغرب . فظهرت هذه الدعوات التي تدعو الى احداث حالة وئام وسلام وقبول الاخر واحترام الاخر وعدم تسقيط الاخر وهي دعوات حديثة العهد كما قلنا وغير مألوفة في الكتابات السابقة .

تساؤل مشروع : لماذا يرد في القرآن مايؤكد على ان الشريعة الاسلامية هي المرتبطة باصل وحقيقة وجوهر شريعة ابراهيم (ع) ، اما اليهودية والمسيحية فلا تتصلان بذلك اطلاقاً ؟

ان الشرائع السماوية مصدرها واحد ، ويفترض ان يكون جوهرها واحد ، ومضمونها واحد ، مع الاخذ بنظر الاعتبار حجم سعتها وشموليتها نظراً لمتغيرات الزمن والمجتمعات البشرية . ولكن الذي يبُطل هذه الوحده ويحُدث الاختلاف بين هذه الاديان ، هو التحريف الذي تعرضت له الاديان الاولى ، لذا فان الله تعالى فضح تلك الاديان التي تعرضت للتحريف وخرجت من حالة التوافق والتطابق والانتماء لاصل شريعة ابراهيم (ع) ، فاصبحت بعيدة كل البعد عنها لا تمت لها لا بصلة ولا برابطة , وهي لا تمثل شريعة ابراهيم (ع) اطلاقاً .

ان الله تبارك وتعالى حينما كان يبعث بالشريعة السماوية الحقة ، انما كان لاجل تعليم الناس نظم حياتهم في مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها , الله تبارك وتعالى اراد تعليم الناس ما يتصل بحياتهم وشؤونهم , فجاءت الشريعة متدرجة تدرج يتناسب مع ظروف المجتمعات والمتغيرات التي شهدتها حياتهم . كما ان الانبياء كانوا يؤدون دور التوجيه والتعليم والتفسير والتوضيح حتى تتكامل الرسالة .

ان الدين واحد ، قد ارسله الله جل في علاه على شكل رسالات وشرائع ، كل منها ناسبت عصرها ومستوى الوعي المعاصر لها ، وبذلك تكون تلك الرسالات في تعاقبها ممثلة لدين واحد ، تنطوى الرسالة السابقة في اللاحقة وتتحقق فيها ، ولايضاح ذلك نعبر عن الرسالات والشرائع بقيمة الارقام فنقول عندما يكون الرقم (1) ممثلاً لوجوده ومنطواه

، فان الرقم (2) لا يتحقق الا بانطواء الرقم (1) وتحققه في داخله، وهكذا يتعزز هذا المفهوم على جميع الشرائع السماوية وصولا الى اخرها الشريعة الاسلامية، وعليه نستطيع القول ان رسالة آدم انطوت وتحققت داخل رسالة ابراهيم ، ورسالة ابراهيم انطوت وتحققت داخل رسالة موسى ، ورسالة موسى انطوت وتحققت داخل رسالة عيسى ، ورسالة عيسى انطوت وتحققت داخل رسالة محمد عليه وعلى من سبقه من الانبياء والمرسلين الصلاة والسلام . ولان الشريعة الاسلامية خاتمة تلك الشرائع السماوية فقد جاءت بما يتطابق مع اصول ما سبقها من شرائع ، وزادت عليها سعةً وشمول لاجل ان تناسب عصرها ومستوى وعي الانسان المعاصر لها , فعبرت عن دين الله تعالى الواحد الذي ان ساد العالم بما يحمله من معايير التكامل والنضج , سيؤمن للمجتمع البشري السعادة والهناء والحياة المسالمة العادلة . لذلك تكفل الله تعالى بحفظ هذه الشريعة الخاتمة من التحريف والتلاعب .

لو افترضنا ان اليهودية بقيت خالصة نقية من التحريف والمدخلات ، لما كانت هنالك حاجة ليبعث الله تعالى بعيسى (ع) . كذلك هو حال المسيحية ، لو بقيت خالصة ونقية من التحريف والمدخلات ،لما كانت هنالك حاجة ليبعث الله تعالى بمحمد (ص) . ولكنهما قد تعرضا للتحريف وفقدا نقاوتهما ، فوجب التعبير عن دين الله تعالى الخالص النقي من خلال شريعة محمد (ﷺ) .

ان الشريعة الاسلامية مناسبة للمجتمعات البشرية ، وفيها من المرونة والسعة ما يجعلها تستوعب حاجات البشرية في مختلف العصور والامكنة وفي كل مراحل تطوره، ولا يمكن لنا ان نعبر عنها انها محدودة لعصر معين ، او مجتمع معين او مكان معين، ولربما نسئل لماذا تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ وصون شريعة محمد (ﷺ) من التحريف ممثلةً بالقرآن الكريم دون ان يكون ذلك لما سبقها من شرائع الانبياء ، وجعلها خاتم ما يبعثه للبشر ؟

ان الشريعة الاسلامية التي بُعث بها النبي محمد (ﷺ)، هي شريعة متكاملة تلبي

حاجات المجتمع وتوصله الى درجة السعادة والصلاح ان تم تطبيقها كما هي ، لان هذه الشريعة احتوت على كل جوانب الحياة , وقدمت حلولاً لكل مشاكلها ، وفيها من المرونة ما يستوعب حاجات البشرية الجديدة الطارئة والتفاعل معها بشكل ايجابي . ان تعهد الله تعالى بحفظها وابعادها عن اشكال التزييف والتبديل والتحريف ، جعلها موثوقة وغير قابلة للتشكيك في نفوس معتنقيها ، وهذا بحد ذاته خلق اثاراً ايجابية كبيرة على مستوى التفاعل معها .

الفصل السابع : " تأثير الوحي "

1 - " القرآن واسلوب الحياة الاسلامية "
2 - " فشل المسيحية في الشرق الاوسط "
3 - " تشكيل العالم وفق الرؤية الاسلامية "

قراءة نقدية لما ورد في الفصل السابع
1 - القرآن واسلوب الحياة الاسلامية

1 - القران وأسلوب الحياة الإسلامية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

من أجل فهم تأثير الوحي القرآني ينبغي النظر الى الجوانب التاريخية لـ» الكيان التاريخي الاسلامي» بشكل كامل ... لقد حصل بالفعل توسع في دولة الخلافة فقد غطت الدولة الإسلامية ، بعد وفاة محمد بقرن ، من جنوب فرنسا واسبانيا وشمال أفريقيا الى شمال غرب الهند واسيا الوسطى . كان هذا التوسع عسكرياً وسياسياً وليس دينياً . فقد كانت البداية هي ان الجيوش الغازية والمنتصرة فقط هم من المسلمين وحتى انها كانت مقتصرة على المسلمين العرب اساساً ، ولكن الحاجة الى القوى البشرية جعل القادة يلجأون لقبول جنود متحولين الى الدين الاسلامي وبالأخص من البربر من الغرب ومن الفرس من الشرق . وقد اعقب الاحتلال وبشكل بطيء التحول الى الدين الاسلامي من السكان المدنيين لذا فقد كانت هنالك مجموعة متزايدة من الناس في جميع انحاء الامبراطورية قد التزمت بعمق بأسلوب الحياة وفقا لاستجابتهم للقرآن ... ([1]) .

انه لأمر عادي إن الإسلام قد لعب دورا مهما في دعم الأنشطة العسكرية بإعطاء الجنود الشجاعة لمواجهة الموت. فالمسلمون يعتقدون بانهم يقاتلون في سبيل الله او كما يعبر عنها الغربيون الحرب المقدسة ويعتقدون أيضا بان من يسقط في القتال هم من الشهداء وبالتأكيد سيذهب الى الجنّة. وابعد من ذلك فان فكرة الحرب المقدسة توفر الهدف لمجمل العمليات العسكرية. فهدف الحرب هو ليس الحاق الهزيمة بالعدو ولكن بعد هزيمته ينبغي إدخالهم الدين الإسلامي إذا كان عربيا وثنيا. او ان يجعلونهم يقبلون

1- Watt,Islamic revelation, p91 .

وضع (الذمّي) اذا كان ليس عربيا او يدين بديانة كتب سماوية أخرى ... ([1]) .

ان تأثير الاسلام يمكن ان يلاحظ بوضوح في تغلغله وسيطرته في ثقافة الشرق الأوسط. كتب أل أس ثورنتون يقول:

«لقد دخل الدين في نسيج بيئة البشر بطريقة ان نمط واحد من الحياة قد حيك بعناصرها المختلفة من خلال قوة موحدة والتي تعطي خصائصها للدين المعني» ([2]) .

لقد كتبت هذه الفكرة عن اليهودية والمسيحية ولم يكن لها اية صلة بالإسلام . ومع ذلك فإنها تنطبق على الاسلام . هناك عناصر من الثقافة الاسلامية موجودة في جميع المناطق التي احتلها المسلمون . ربما فعل ذلك الذين تحولوا الى الدين الاسلامي والذين جاءت معهم جوانب من ثقافتهم السابقة . او ان العلماء المسلمين قد تعلموا من خلال اتصالاتهم مع اولئك الذين كانوا يدينون بديانات أخرى . كل هذه الوسائل ساهمت بجلب المزيد من الثقافة الاغريقية الى الاسلام . أيا كانت المسارات التي اتبعت فان جوانباً من الثقافات الأجنبية قد قبلت في الاسلام ، وتكيفت مع حياة المجتمع الإسلامي ... وبمرور الزمن تم ادراك بأن الحياة بمجملها تعتمد على الحفاظ على مركزية القرآن ... إن قوة الإسلام في التوحيد والاندماج كانت واضحة في قدرته على استيعاب جوانب من الثقافات الاجنبية ([3]) .

لقد اثمر التوسع العسكري الاسلامي عن حالة ثقافية جديدة ، حيث ان الثقافات المختلفة و اشباهها وجدت نفسها تتصارع مع بعضها البعض في الاطار الذي وفرته الامبراطورية الاسلامية . وربما كان الجانب الأكثر اهمية في هذا الاطار هو اتساع الرقعة الاسلامية بوجود اتصالات سهله ، وقد قاد ذلك الى مزيد من الاختلاط بين الشعوب وثقافاتهم . وبهذا فقد نشأت حالة ثقافية جديدة كنتيجة للتوسع العسكري

1- Watt,Islamic revelation, p91-92 .

2- Ibid, p92 .

3- Ibid, p92-93 .

والسياسي ، واستجابة الاسلام لتحديات هذه الحالة الجديدة بقبول معظم العناصر الدخيلة وادماجها في كيانه . لقد تم الترحيب بكل الاشخاص من بيئات مختلفة الذين دخلوا الاسلام باعتبارهم مسلمين وجلبوا معهم ثقافاتهم وعاداتهم المختلفة في كل حالة تقريبا ، ما كان متوافقاً مع الاسلام ، فقد اضيف الى الخزين الاعتيادي وكانت النتيجة النهائية درجة عالية من التجانس الثقافي في جميع ارجاء الرقعة الاسلامية .

رغم ان التوسع الاسلامي من الناحية السياسية حصل في القرن الذي اعقب وفاة محمد ، فان توسعاً قد حصل ايضاً في القرون اللاحقة لاسيما في الشرق وغرب افريقيا وجنوب شرق اسيا (ماليزيا واندونيسيا) . لقد اصبح العديد من الشعوب في تلك المناطق جزءاً من الكيان الاسلامي التاريخي ... ([1]) .

وفقا لأفكار العرب ما قبل الاسلام فان هذا التطور التدريجي للإسلام ، واستيعاب الثقافات ربما يعتبر تراجعاً قد يؤثر على نقاء وبكرية الدين ، لكن العكس هو الصحيح ، ان التطور هو ادراك ما هو حاضر محتمل . وهذه المسالة قد تعززت باقتباس من الكاتب (ألـ أس ثورنتون) : « الثقافات بدرجة او بأخرى زائلة ليس كاتساق الأشياء في الطبيعة انها تكيفات الإنسان مع الطبيعة ، وهي عرضة لفقدان اهميتها وملائمتها بتأثير الظروف المتغيرة للتطور التاريخي . ولهذا السبب فان الدين الحي تظهر حيويته من خلال استيعابه للثقافات المتعاقبة عبر القرون ، في حين أن الدين الأقل حيوية قد يتحجر وبالأخص في نمط خاص من الثقافة بدلاً من ان يحاول اختراق شكلاً جديد من الثقافة» ([2]) .

1- Watt,Islamic revelation, p93 .

2- Ibid, p93-94 .

2 - فشل المسيحية في الشرق الأوسط (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

واحدة من اهم انجازات الاسلام هي ازاحة المسيحية من ثقافة حياة الشرق الأوسط .كانت هنالك مناطق واسعة اعتبر سكانها من ضمن الجسم الداخلي للمسيحية فاصبحت من الجسم الداخلي للإسلام . ان من الضروري ان نبحث في هذا الموضوع بعناية . لقد قلنا الكثير في هذه الدراسة عن قوة الاسلام . واذا اردنا ان نتبع ما قاله (ارنولد توينبي) ([1]) فان السبب الرئيس في ذلك هو ضعف المسيحية ([2]) .

أن أصل فشل المسيحية هو في الإغريقية وبالتحديد السريانية والقبطية او الأرمنية . ان اللغات تلك والتي يستخدمها اقوام عديدة ... وهي بهذا تختلف عن بعض اللغات في اسيا الصغرى والتي استمرت الأقوام تلك بالتحدث فيها ... يستخدم العديد من « الشرقيين» وبالأخص المفكرين منهم الإغريقية أيضا في الكتابات الجدية ، ولكن تفكيرهم كان اساساً في الفئات والمفاهيم المناسبة لعقليتهم المرتبطة باللغة . لقد ادى الاختلاف بالعقلية الى اختلاف بالصياغة اللاهوتية في المسائل المختلفة ... فقد وصم الشرقيين بالزندقة ، بل واعتبروا خارجيين عن القانون من قبل الامبراطورية البيزنطية ([3]) .

كان من اهم مجموعات «الزنادقة» هم ما يعرفون بالمونوفيستس، والنساطرة على التوالي . فقد كانت عقليتهم تتعارض تماماً في مسائل عديدة رغم ان بعضهم كان يتكلم السريانية ، ربما كانوا يمثلون اختلافاً داخل اللغة . فالأقباط الذين هم من احفاد المصريين القدماء يحسبون على المونوفيستس رغم انهم يختلفون عن المونوفيستس السوريون (او اليعاقبة) ... وعندما طردوا من الكنيسة المسيحية انتجوا عقائد تتجنب البدع الجدية

1- من اشهر مؤرخي القرن العشرين ، ولد في لندن 1889، وتوفي 1975 . بحث في موضوع الحضارات ، ولاسيما في كتابه (دراسة للتاريخ) ، وهو صاحب نظرية التحدي والاستجابة .

2- Watt,Islamic revelation,p94 .

3- Ibid, p94-95 .

التي كانوا يتهمون فيها ... فقد اصبح مبدأ «ارادة التفرق» هي المعيار للطرفين . وبالتالي فان استبعاد المسيحيين الشرقيين من الكنيسة والمجالس المسيحية على أساس الزندقة أدى الى ان تكون لهم منظماتهم المنفصلة المتميزة عن الكنائس الرئيسية ، وهذا ما ادى الى أضعاف الكنيسة الرئيسية والكنيسة الشرقية([1]) .

من أجل الفهم الوافي لإبعاد الشرقيين سيكون من الضروري النظر الى الخلفية في اطارها الأوسع . بعد الانتصارات المذهلة التي حققها الإسكندر الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد حصل توسع في الثقافة الهيلينية ، فوصلت حتى جيحون وشمال الهند . في اغلب الأراضي الشرقية لجيحون اصبح التأثير اضعف ولكن في المنطقة الفارسية او الامبراطورية الساسانية في عهد محمد كانت الثقافة الهيلينية هي السائدة فيها . أما النساطرة الذين كانوا يستخدمون اللغة السريانية فقد تم ابعادهم من الامبراطورية البيزنطية . وأسسوا معاهد للدراسات المتقدمة في العراق وفي بعض المناطق الاخرى من الإمبراطورية الساسانية . ورغم ان اللغة المستخدمة في التدريس هي السريانية لكنها كانت تدرس الفلسفة اليونانية والعلوم بما فيها الدراسات الطبية . ورغم التقدم في دمج الثقافة الاغريقية بشكل أكبر في الثقافة المحلية إذ يبدو انه كان هنالك البعض من الذين اغتاظوا من هذه الثقافة وعلاقتها مع السيطرة البيزنطية ... لم تنسجم المجموعات الثقافية والعرقية بعضها مع البعض الاخر وكان لهذا الأمر تداعيات سياسية . وكما لاحظنا فان العقائد الفكرية اصبحت شعارات سياسية ، فعندما غزا المسلمون سورية اشاد السكان بالمسلمين واعتبروهم محررين من الاغريق المكروهين ([2]) .

لقد لخص (كرستوفر داوسن) هذه المسائل بطريقة ساخرة بكلمات : ان محمد كان جواب الشرق على تحديات الاسكندر . ان محمد كان المنشئ للدولة الاسلامية ولهذا الكيان السياسي الجديد والذي تطور ليصبح إمبراطورية ، وفضّل الثقافات

1- Watt,Islamic revelation, p95 .

2- Ibid, p95-96 .

الأصلية المحلية على الثقافة الهيلينية عموماً .

كانت عقلية العرب متطابقة مع عقلية شعوب العراق والشام ولكنها كانت أقرب لهم من الإغريقية وفي ظل الإسلام فقد قبلوا الكثير منها ... .

وفي النهاية يمكن القول ان المسيحية قد فشلت في الشرق الأوسط لأنها لم تكن قادرة على السيطرة على بيئة المجتمع ... لقد فعلت المسيحية الكثير للمصالحة بين المجموعات التي تتحدث باللغة الاغريقية (وهو مثل العديد من شعوب اسيا الصغرى والذين لم يكن لديها لغة غير الاغريقية) والذين يتكلمون اللغة اللاتينية . وبعد الجهد الذي بذل لتحقيق هذه الغاية لم تبق طاقة كافية للتعامل بشكل كافي مع المسيحيين الشرقيين . وبدلاً من بذل المزيد من الجهد لتقدير وجهة نظرهم وتحقيق المصالحة ، فقد اتخذ القرار الاسهل بان يوصفون بالزنادقة ([1]) .

غادر البعض الإمبراطورية البيزنطية ولجأ الى الساسانيين . وهذا لم يكن كارثة على المسيحيين الشرقيين الذين طردوا من الكنيسة الكبرى ، بل انه ساهم في اضعاف الأخيرة بانفصال العديد من المسيحيين . لقد ادى ذلك الى سوء حالة الكيان المسيحي ... وأكثر من ذلك فقد فشلت المسيحية في تحقيق الانسجام بين التنوع الحضاري .

في مناطق معينة فشلت المسيحية ونجح الاسلام . والمناطق التي كانت المسيحية سائدة فيها اصبحت اسلامية بحتة ، ففي اسيا الصغرى وتركيا الأوروبية يبدو ان المسيحيين الشرقيين قد ازيحوا وحل محلهم آخرون من المسلمين او الذين اصبحوا مسلمين ، وفي مناطق اخرى تحول المسيحيون الى مسلمين وهذا ليس فقط بسبب الضغوط المادية والطائفية لاسيما وان المسيحيين في الدولة الاسلامية يعاملون على انهم مواطنين من الدرجة الثانية ، سيكون بإمكان المسيحي أن يفهم بان المسيحية اصبحت اقل شأناً ، او انها من الناحية الروحية اقل شأناً ، وعلى الاقل ستكون النظرية معقولة

1- Watt,Islamic revelation, p96 .

بان الشرقيين اصبحوا بعيدين عن المسيحية ، بسبب ان المسيحية تم تعريفها اكثر من اللازم بنظرية الاغريق المزدوجة للإنسان، فالروح اساسية عند الانسان والجسد هو كساء الروح او كما يقول بعض المتطرفين بانه قبر الروح . ومن ناحية اخرى فان بعض المسيحيين الشرقيين والشعوب الاخرى في الشرق الاوسط يبدو ان شكلاً من اشكال التصور تشكل على اساس ان الانسان هو المهيمن ([1]) .

ان عقلية النسطوري هي قريبة من العرب المسلمين . ويبدو من المعقول الاعتقاد بان من بين الشعوب المسيحية الشرقية هنالك العديد ممن اصبح مسلماً ، لانهم وجدوا في الاسلام تعبير عن التوحيد أكثر ملائمة لعقليتهم المتميزة من تلك التي تقدمها المسيحية .

يمكن للمرء ان يقول في الوقت الذي فشلت فيه المسيحية ، طبقاً للفئات الاغريقية ، بتوفير ما تحتاجه العقلية الشرقية بينما الاسلام قد قدم بعضا من الفكر الإغريقي طبقا للفئات العربية . انها لحقيقة معروفة بانه بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر تم قبول العديد من الفلسفة والعلوم اليونانية في الوسط الفكري الاسلامي ... ([2]) .

3 ـ تشكيل العالم وفق الرؤية الاسلامية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

كان من الامور المكملة لتلاشي المسيحية بين شعوب الشرق الاوسط ، هو التوضيح الاسلامي لرؤيته للعالم ، مما جعل علماء المسلمين يطلعون على الثقافة الفكرية لكل المنطقة . ومن اجل اكمال صورة تأثير الوحي القرآني سيكون من الضروري البحث على الاقل في المراحل الرئيسة للأسس التي ساهمت في صياغة النظرة الاسلامية للعالم.

1- Watt,Islamic revelation, p97-98 .

2- Ibid, p98 .

لقد كانت الحالة عند ظهور الاسلام باختصار كما يأتي : في المناطق التي مثلت معقل الاسلام كانت هناك وحدة ثقافية معينة . وهذه على وجه الخصوص في مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس . لقد اشتركت هذه المناطق بثقافاتها التي نمت في وادي النيل ووادي دجلة والفرات ، مع الثقافة الهيلينية ([1]) وانصهرت معها ، كما امتزجت معها الافكار اليهودية والمسيحية عموماً . وساهمت الحبشة بهذه الثقافة مع عدم علاقتها بالثقافة الهيلينية . ولما كانت الجزيرة العربية على مشارف هذه المناطق الثقافية العظيمة فإنها تأثرت حتماً بها الى درجة ما ([2]) .

لقد كان الجيران الشماليين للجزيرة العربية هم مصدر التأثير ولكن لم يكن لاحتلال الساسانيين لليمن ولمدة خمسين عاماً في منتصف القرن السادس الميلادي ذا تأثير كبير . من هذه المصادر : الافكار اليهودية والمسيحية والفارسية قد تغلغلت عند العرب ، ولكن لم يتم العثور على اثار الثقافة الهيلينية عندهم . كان لحضور هذه الافكار والتي أصبحت من ضمن الوسط الفكري للوحي القرآني ، قد ساهم في السيطرة على المنطقة ثقافياً لاسيما التي نشأت فيها تلك الافكار ([3]) .

في المنطقة الثقافية التي اصبحت مركزاً للإسلام ، والتي كانت في السابق مرتكزاً للكنيسة المسيحية او بالأحرى الكنيسة الكبرى ... والتي كانت مهتمة بمناطق ابعد واوسع من المركز الاسلامي فحسب . فقد اعطت اهتماماً اكبر ببؤر صغيرة مختلفة كان من بينها الاقباط في مصر واليعاقبة في سوريا والنساطرة في العراق واليهود في العراق وفي غيرها ... لقد كان واحداً من نتائج الفتوحات العربية وتشكيل الامبراطورية الاسلامية ، هو عزل المجموعات المسيحية عن الامبراطورية البيزنطية . وقد تم هذا

1- وهي ثقافة اغريقية متقدمة مثلت اوج عطائها الفكري والعلمي والفلسفي ، خلال الحقبة المتأخرة من الحضارة الاغريقية ، التي امتدت بين بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، وحتى موت الاسكندر المقدوني 323 ق. م .

2- Watt,Islamic revelation,p98 ..

3- Ibid, p98-99 .

العزل بالفعل عشية الفتوحات الاسلامية لاعتبارهم زنادقة من قبل الكنيسة الكبرى وكان لإيجاد حدود سياسية جديدة للإمبراطورية الاسلامية ، قد جعل العزل اكثر فعالية ومع ذلك فقد حافظت بؤر الاقلية المسيحية على قوتها . ان اختراق النساطرة لأسيا الوسطى والصين كان من الانجازات الكبيرة لها , كما ان مدارس الفلاسفة الاغريق واصلت تبشيرها بشكل من الاشكال لقرنين ايضا . ولكن حيوية تلك البؤر كانت اقل من حركة الجانب الفكري الاسلامي ([1]) .

بدأ الاسلام بالرغبة في «ارادة الوحدة» مع اليهود والمسيحيين ، وبعبارة اخرى ان محمد قبلهم كأعضاء في المجتمع او كأعضاء مشاركين فيه ، ولكن هذه الارادة قد تغيرت الى ارادة الانفصال ، بعبارة اخرى فان محمد ادرك بان من الضروري لحركته ان تحافظ على شخصية متميزة لتجنب استيعاب اليهودية والمسيحية .كان الانفصال اولاً مع اولئك اليهود الذين اظهروا كرهاً لمحمد في المدينة ، والذي ادى الى اتمام الانفصال مع اليهود عام (624م) . ومحاربة تجمعات المسيحيين في الطريق الى سوريا عام (630م) والتي استبعدت أي مصالحة بين محمد والمسيحيين . عكست هذه المواقف العملية الرؤية القرآنية لدين ابراهيم ، ذلك الدين الذي احتفظ به المسلمون بإطاره النقي بعد ان حرّفه اليهود والمسيحيين . لذا فان ارادة الانفصال قد تطورت قبل الفتح الاسلامي للمسيحيين في سوريا ومصر والعراق . فقد بدأ الاسلام يعمل على تأكيد استقلاليته عن الديانتين السابقتين وبانه دين أعلى منهما بالفعل ([2]) .

لم يقتصر فخر المسلمين على تفوق دينهم فحسب بل تعداه الى التفوق العسكري والسياسي ، وكانت «ارادة الانفصال» قد وضعت حواجز بين المسلمين والمسيحيين. لان المسلم العادي كان محمياً بفكرة «العقيدة المحرفة للمسيحيين» والتي بموجبها اذا اراد المسيحي ان يجادل المسلم فان عليه أن يفعل ذلك على الاسس الاسلامية فقط ، لان

1- Watt,Islamic revelation, p99 .

2- Ibid, p99-100 .

الانجيل محرّف بشكل او يأخر لذا فهو لا يصلح لان يكون دليلاً في أي جدال ديني . لدى علماء المسلمين حرية في الوصول الى الانجيل لاسيما بعد أن تحول بعض المسيحيين واليهود إلى الإسلام وقبلوا الكثير من التعاليم الموجودة فيه ، ولكنهم كانوا حذرين في اختياراتهم حيث اهملوا كل ما يتعارض مع القرآن فيه ([1]) .

بينما كان دفاع المفكرين مُنصب ضد المسيحية واليهودية تحديداً ، بدأ علماء المسلمين برسم رؤية عالمية على اساس قرآني وعربي . فنشأت الرؤية العالمية الجديدة من مزيج هذا التوجه للاكتفاء الذاتي مع بعض الحاجات العملية . لقد كانت العبادة تستند الى القرآن لذا فان على غير العرب ان يفهموها على هذا الاساس ، كما كانت هنالك ضرورة الى الإرشاد في تسوية المسائل القانونية (بالمعنى الواسع) وفقا لمبادئ الشريعة الاسلامية. ومن اجل فهم القرآن لابد من تعلّم اللغة العربية واستعمال المعاجم .

لقد تم العمل على علوم النحو للغة العربية وبشكل خاص في البصرة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . من اجل توضيح معاني كلمات القرآن غير الاعتيادية فقام علماء المسلمين بجمع شعر ما قبل الاسلام ، الذي كان يتداول بصورة شفهية . فقد كان فهم الشعر يتطلب معرفة بالتقاليد التاريخية للعرب قبل السلام ... لقد اصبح الفقه اساس التعلم في الاسلام ... وبجانب التشريع او الفقه الاسلامي كان هناك ما يسمى ب» اصول الفقه» ثم هناك دراسة للسنة (ممارسات محمد) والتي يمكن الاستدلال منها والقياس عليها ، ثم بدأ البعض من عديمي الضمير باختراع الاحاديث ، فقد تم تطوير ضوابط جديدة ادت الى ايجاد تشكيلة من السيرة الصحيحة ... كل هذه العلوم الاسلامية قد تم توضيحها وشرحها على اساس اللغة العربية ومحتويات القرآن ([2]) .

عندما حصل تقدم في هذه الأمور قام بعض العلماء بالنظر في موضوع ادخال المواد غير العربية من تعاليم اليهودية والمسيحية الغير محرفة في السنة ... لقد لوحظ بان نوع أخر مختلف من المسلمين اجتذبتهم العلوم والفلسفة الاغريقية عبر الاتصالات المختلفة

1- Watt,Islamic revelation, p100 .

2- Ibid, p100-101 .

من خلال ترجمة كتب يونانية كتب على اساسها كتب باللغة العربية، ومن المفكرين المسلمين هؤلاء كان المعتزلة الذين كانوا من الاوائل في استعمال المفاهيم اليونانية ... كما حصل قبول للفلسفة الاغريقية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الغزالي ومنذ ذلك الوقت وما لحقه تم اعطاء اهتمام للمنطق الإغريقي وبعض الأفكار المعينة لما وراء الطبيعة في الفكر الاسلامي . وهكذا اصبح القرآن جوهر كيان الرؤية الاسلامية منذ القرن الحادي عشر ومع تلك الاضافات والشروحات اصبحت الرؤية الاسلامية هي السائدة في المراكز الاسلامية ([1]) .

قد يعترض احد ما على الحاجة الحتمية لقطيعة تامة مع اليهودية والمسيحية او الحاجة الماسة لنشوء « ارادة الانفصال» . للإجابة على هذا التساؤل يمكن القول بأن مثل هذا التفكك قد حصل في التأريخ الانساني . فالدين اليهودي قد انفصل عن طبيعة دين الكنعانية رغم استعداده للتعاطي مع الكثير من افكاره وممارساته ، كما ان الاسلام انفصل عن الوثنية في مكة ... يمكن النظر الى هذه المسألة بطريقة أخرى بالقول ان الكيان التاريخي لثقافة الشرق الأوسط كانت فيه بؤر مختلفة في ذلك الوقت بما فيها النسطوري والاسلامي ، ولكن يبدو ان هنالك حقيقة هي ان في مثل هذا الكيان التاريخي كان هنالك اتجاه نحو التكامل والوحدة . ان « ارادة الانفصال» تجاه المجموعات الاخرى هي لغرض أن يكون التركيز على فكرة واحدة في الكيان التاريخي لأنه في هذه الحالة سيكون قبول إحداها رفض للأخرى ، اذ ان ظهور بؤرة جديدة منافسة بالفعل في الكيان الحي سيكون ظاهرة مؤقتة . لابد ان يكون تركيز الدين القوي المتين على كيانه التاريخي الحي . اذا ابقينا بأذهاننا فكرة ان هنالك علاقة قوية بين مفهوم التركيز ومفهوم التكامل فإننا سنفهم ما قاله (أل أس ثورنتون) الذي كان يفكر بالمسيحية بشكل رئيس بـ «ان ابداع الوحي يتجلى في قدرته على دمج العديد من الثقافات في وحدة تقليدية واحدة» ([2]) .

1- Watt,Islamic revelation,p101 .

2- Ibid, p102 .

قراءة نقدية لما ورد في الفصل السابع

1 - القرآن واسلوب الحياة الاسلامية

يبتدء المستشرق وات بمسألة التوسع الذي شهدته دولة المسلمين بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) بحدود قرن من الزمن ، اذ توسعت شرقاً وغرباً وضمت مساحات كبيرة ، فوصلوا الى جنوب فرنسا وتمكنوا من ضم اسبانيا بالكامل وشمال افريقيا ووصلوا الى شمال غرب الهند واسيا الوسطى ، مناطق واسعة تلك التي اصبحت جزءاً من العالم الاسلامي خلال مدة زمنية قصيرة .

هنا المستشرق وات شأنه شأن كل الباحثين الغربيين لا يخفون اندهاشهم من هذه السرعة في الانتشار وعلى امتداد مساحات واسعة من العالم . ان الكيفية التي ادت لهذا الانتشار اصبحت من الموضوعات الهامة في دراسات المستشرقين ([1]) . لذا فانهم حاولوا في بعض الدراسات الوصول الى تفسير هذه الحركة ، وبطبيعة الحال هذه التفسيرات قد تتسق مع تصوراتنا في بعض جزئياتها ، وقد لا تتسق في جزئيات اخرى .

على اية حال نريد التعليق هنا على رأي وات الذي يقوم على ان هذا التوسع عسكري وسياسي وليس ديني ، وكأنه يتفق مع الرؤية التي نجدها واضحة في كتابات المستشرقين حينما يعللون هذا الانتشار السريع للاسلام ، بانه راجع لاسباب عسكرية بشكل خاص من خلال الغزو والفتوحات واستخدام السيف والقوة لفرض الديانة الاسلامية على سكان تلك المناطق.

1- ينظر : الغزالي ، مشتاق بشير ، انتشار الاسلام في المشرق بين اراء المستشرقين والواقع التاريخي ، بحث منشور في مجلة مركز دراسات الكوفة ، العدد (19) ، النجف ، 2010 ، ص ص57 - 68 .

نحن لا نريد انكار الحالات التي وقعت على يد قادة جيوش المسلمين خلال الفتوحات، فلاشك ان معظم اؤلئك القادة ولاسيما خلال العصر الاموي، الذين لم يلتزموا بتعاليم الدين الاسلامي ومبادئه ، لذلك لا يمكن تزكية افعال اؤلئك القادة ، ولكن بالوقت نفسه لايمكن ان نغفل الدور العظيم الذي كان يقوم به بعض المسلمين اصحاب الايمان الحقيقي الذين خرجوا لنشر دين الله ولايصال تعاليم هذا الدين بافضل صورة، الذين بذلوا جهدهم واقصى سعيهم لاظهار الصورة الجميلة الحقيقية للاسلام امام شعوب تلك المناطق البعيدة . هذه الصورة التي لم تكن لتعبر عنها افعال القادة وعنفهم ، في المقابل كانت صورة مميزه لافعال بعض المسلمين الذين امنوا حقاً بالله وطلبوا صدقاً الجهاد في سبيل اعلاء كلمة لا اله الا الله، ولذلك عبروا عن صورة صادقة وناصعة عن الاسلام فاثروا في تلك الشعوب.

اذن لايمكن ان نحصر العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام بعاملٍ واحد فقط، ونغفل الباقي، كما لايمكن ان نتصور ان المسلمين كانوا جميعاً يمارسون افعال خاطئة وبعيدة عن روح الاسلام، هنالك قسم منهم كانوا يمارسون الافعال الصالحة حتى وان لم تتحدث الروايات التاريخية عن ذلك كونها نقلت اخبار القادة والحكام تحديداً وعلى نحوٍ واسع ، ولكن هذا لا يعطل قدرتنا على تصور الحقيقة والوقوف على العوامل الحقيقية التي ساهمت في نشر الاسلام.

بالعودة الى وات الذي يستبعد العامل الديني واثره في انتشار الاسلام ، على الرغم من ان العامل الديني هو اهم العوامل وعليه تستند العوامل الاخرى . وتكمن فاعلية ومساهمة العامل الديني بنشر الاسلام في هذه المناطق على العوامل الاتية:

الاول: ان هذه المناطق سواء ءاكانت في مشرق الدولة الاسلامية او مغربها ، في كلتا الناحيتين كان هنالك ضعف واضح وكبير بالاديان المتواجدة ، في مقابل هذا الضعف كانت الكفة ترجح الديانة الاسلامية على غيرها من حيث تعاليمها ومبادئها وتشريعاتها المنصفة للانسان . لذلك شكلت حضوراً قوياً وتفوقاً واضحاً مقارنةً بذلك الضعف الديني

الذي كان قائماً في شمال افريقيا من جهة ، فسكان هذه المناطق ولاسيما البربر الذين لم تحتويهم ديانة رصينة قادرة على مواجهة قوة ورصانة الاسلام ، لذلك كان تحولهم للاسلام سريعاً . كذلك الحال عندما نتحدث عن سكان المشرق من جهةٍ اخرى ، وتحديداً خراسان وماوراء النهر ومايحيط بهذه المناطق وما يجاورها ، لم تكن هنالك اديان منصفة للانسان ترتقي به وتشعره بقيمته كما نجد ذلك بارزاً في الديانة الاسلامية، لذلك لم تتمكن اديان هذه المناطق من الصمود امام المد الاسلامي .

قد جرت العادة ان الاديان القوية الراسخة في قلوب وعقول الناس لايمكن ازالتها وابدالها باديان اخرى بسهولة ، ولكننا نؤمن بان الاديان الموجودة انذاك كانت ضعيفة وغير مستحوذة على قلوب وعقول الناس ، ولم يكونوا متمسكين بها ، لذلك كان تحول سكان هذه المناطق في مشرق الدولة الاسلامية ومغربها الى اعتناق الديانة الاسلامية سهلاً وسريعاً جداً .

في الواقع كانوا يعيشون اما فراغ ديني او ضعف ديني في تلك المناطق ، وقد صب ذلك في مصلحة الاسلام لاجل ان ينتشر بسهولة في مساحات واسعة . نحن نعتقد بان الوقت الذي بدأت الديانة الاسلامية فيه تتجه نحو الانتشار كان وقتاً مثالياً ومناسباً جداً ، وساعد على سرعة الانتشار انذاك ، فالاسلام لم يجد منافساً كفأً له من الناحية الدينية عقيدياً وتشريعياً ، لقد وجد القلوب فارغة ومستعدة لاستقباله لذلك تغلغل فيها بسرعة .

من الملاحظ ايضاً ، ان التحول السريع لشعوب هذه المناطق رافقه اندماج سريع ضمن المنظومة الاسلامية ، حتى اصبح المتحولون الجدد للاسلام في غضون زمن قصير ادوات مؤثرة ومساعدة لنشر الاسلام في المناطق المجاورة لهم ، وهذه مفارقة مهمة ، على الرغم من حداثة عهدهم بالاسلام، اصبحت لهم مساهمة فاعلة في ان ينتشر في مساحات اخرى ، وهذا اكبر دليل على انهم لم يجبروا على اعتناق الاسلام كما تحدثت معظم دراسات المستشرقين ، بدليل اندفاعهم الكبير لنشره في مناطق اخرى .

الثاني : الامر الاخر والاكثر اهمية وتأثير ، هي ارادة الله تعالى في ان ينتشر الاسلام في هذه المناطق ، الارادة الالهية التي تتخطاها معظم التفسيرات التاريخية لتؤكد فقط على العوامل المادية ، فالمشيئة الالهية المتحكمة في المسارات العامة للبشرية ، لو انها لم تتوافق مع هذا المد والتوسع الاسلامي ، لما نجحت جهود المسلمين في الفتوحات اطلاقاً. بدليل اننا حينما نقرأ التاريخ نجد حالات عديدة للزحف العسكري على الشرق او على الغرب، من قوى مسلحة وكبيرة جداً ، ولكن لم يستمر تأثيرها الا ضمن حدود السنوات المعدودة ، كما هو حال الاسكندر المقدوني واكتساحه لارجاء واسعة من الارض، او للزحف المغولي وغيرهم من القبائل الشرسة التي ذابت وتحولت الى ان تكون جزءاً من الثقافة الاسلامية في وقت لاحق . نعم المشيئة الالهية توافقت مع الفعل البشري المتمثل بالفتوحات، فحصل هذا الانتشار السريع للاسلام مع مساهمة العوامل الاخرى في تعزيز وترسيخ هذا الدين في قلوب الناس.

ان القوة العسكرية لايمكن ان تجبر الناس على تغيير معتقداتهم ان كانت راسخة وثابتة في قلوبهم ، فبامكانهم اخفاء معتقداتهم الحقيقية وعدم اظهارها للعلن، وبتلك الطريقة يحافظون عليها دون التحول للديانة الاسلامية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لانها لم تكن راسخة ولم تكن مقبولة لديهم ، على عكس الديانة الاسلامية التي احتوت على مقومات النجاح والتفوق والقبول لانها حاكت حاجات الناس واحتوت على تطلعاتهم في الانصاف ، وبالتالي تغلغلت في قلوبهم .

ونحن نتحدث عن الثقافة العربية وطروحات وات بشأنها حينما جعل منها صاحبة التأثير الاكبر على شعوب هذه المناطق التي انتشر فيها الاسلام في المشرق والمغرب، لا نتحدث عن ثقافة عربية اصيلة ولها جذور تاريخية ممتدة اثرت في تلك الشعوب . الثقافة العربية واقعاً انطلقت بقوة من الاسلام ، وكل ماسبق عصر ظهور الاسلام لايمكن الاعتماد على انه ثقافة مؤثرة في تلك الشعوب ، انما حالة الارتقاء في الثقافة العربية كانت بعد ان تحولت الى ان تكون حاضنة للاسلام ومركز انطلاقه لشعوب الارض، فظهرت

بصورة مختلفة تماماً عما كانت عليه، صورة تعكس الشكل الجميل للثقافة الاسلامية المنبثقة من سماحة وعدالة الدين الاسلامي الحنيف، اذن الثقافة العربية الاسلامية هي وليدة الاسلام ، ولايمكن عدها تراث عربي خالص، ولان الاسلام منظومة متكاملة عالج كل المفاصل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاعتقادية وبالتالي الثقافة العربية ولدت من رحم خصب، وامتلكت حالة التأثير في تلك الشعوب بفضل الاسلام اولاُ واخيراً .

الفصل الثامن : " الاسلام في مستقبل العالم "

1 - " علاقة الاسلام الحالية بالمسيحية "
2 - " مهمة وحوار "
3 - " قبول التكامل "

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثامن
1 - الاسلام في مستقبل العالم
2 - الاسلام يسود وينتصر

1 - علاقة الاسلام الحالية بالمسيحية (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

كانت هنالك وحدة ثقافية معينة في ظل الإمبراطورية الرومانية تمتد من بريطانيا إلى سوريا، مع أن هذه الثقافة تتضمن ثقافات فرعية تختلف بعضها عن البعض الأخر. وتتداخل هذه الثقافات الفرعية في تلك المناطق الى حد ما . ولأغراض هذه الدراسة نقول: انه من المميز ان اجتمعت الثقافة اللاتينية والثقافة الإغريقية والثقافة الشرقية، فالأولى تمثل أوروبا الغربية ، والثانية تمثل شرق البحر الأبيض المتوسط والثالثة مرتبطة بشكل وثيق مع الكنائس المسيحية التي تعمل في المناطق الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وهي اقرب إلى ثقافات وادي دجلة والفرات . وبمرور الوقت توقفت الثقافات عن التداخل فيما بينها ، واصبح لكل منطقة ثقافتها المميزة عن الثقافات الاخرى. في حين تم استيعاب المسيحيين الشرقيين، بعد ان وسموا بالزنادقة ، في الكيان التاريخي للإسلام ([1]) .

الان انتهى هذا الانفصال ، فخلال قرن او اثنين أصبح العالم متوحداً ثقافياً على المستوى المادي من خلال العلوم والتكنولوجيا الحديثة . ولكن ما يزال العالم متعدد على اساس الثقافات الدينية القديمة وما يقابلها من مناطق، اذ انها لم تتأثر كثيراً بالتوحد المادي للعالم ، بل على العكس فقد حصل ما يسمى تجدد ديانات العالم على الرغم من انه يمكن القول في ضوء تطور العقلية العلمية، فان الاديان قد توقفت عن سيطرتها

1- Watt,Islamic revelation, p114 .

على الثقافات المصاحبة لها ([1]) . وفي بعض النواحي فان العالم بأجمعه يواجه المشاكل نفسها ، ولكن المناطق الثقافية المصاحبة للمسيحية وللاسلام ، هي مناطق ليس لديها ثقافة مادية حديثة ... ان العنصر اليهودي في الثقافة المسيحية هو اقرب الى الثقافة الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، بينما الثقافة الإسلامية اقترضت الكثير من المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم من الإغريق . وبمرور القرون أصبحت الثقافة المسيحية والثقافة الإسلامية متجانسة تقريباً ولكنها متباينة . ان هذا التقارب يثير مشاكل خاصة فانه من ناحية يسهل عملية التفاهم ، ولكن من ناحية أخرى ، فان الاتصالات بين الديانتين خلال الفترة المبكرة قد أعطتهما دفاعات قوية ضد بعضهم البعض . هذا المزيج من التقارب والعداء قد يعجل بالحوار بين المسيحية والإسلام ([2]) .

ان مصاحبة الدين للثقافة في الإقليم الثقافي جعل من الصعوبة بمكان مقارنة موضوعية للأديان قياساً بالحقيقة . لقد كان لدى كل منطقة ثقافية طريقة تفكير خاصة بها فضلاً عن وعيها التاريخي ونظرتها الخاصة الى العالم ، وقد اتخذت شكلها النهائي تدريجياً عبر القرون تحت ضغط التكامل مع الدين ، فالعقلية الإسلامية في الحواضر الإسلامية استندت على العقلية العربية للقرن السابع الميلادي ، مع انها ادخلت بعضاً من النظرة العقلية للإغريق والوعي المسيحي الشرقي التاريخي المعتمد على العهد القديم . فأصبحت في ذلك الوقت أصناف من الأقليات الموجودة اصلاً مستوعبة للعقلية السائدة ، وبالتالي حصل هناك تكافل بين الثقافة والدين الإسلاميان ، فالشخص الذي عاش كل حياته في الاسلام وخصوصاً في حواضرهم ، فان الاسلام بالنسبة له حقيقة نهائية وكل الاديان الأخرى غير حقيقية وكاذبة جزئياً او كلياً . لكن هذه الحالة قد تغيرت قليلاً عند دخول النظرة العلمية ... ولكن الامر بقي كما هو أي ان الشخص الذي تربى في

1- هذا الامر لم يتحقق وفق المعنى المذكور في كلام المستشرق وات ، الا في حدود البيئة الغربية التي بلغت درجات عالية جداً في مسار الخلاص من سلطة وسيطرة المؤسسة الدينية على ثقافة المجتمع .

2-Watt,Islamic revelation, p114-115 .

وسط مسيحي يعتبر نفسه الاقرب للحقيقة من أي دين اخر ونفس الاعتقاد يراه كل في ديانته ومنطقته الثقافية ([1]) .

من غير الممكن الاحتفاظ بمعيار واحد للحقيقة فعلى سبيل المثال المسيحية تعتبر نفسها متفوقة على الاسلام ... ان المسيحيين يبالغون في الأهمية التاريخية ويشيرون بهذا الصدد الى البعد غير التاريخي للقصة التي اوردها القرآن عن زيارة ابراهيم الى مكة ان هذا التركيز على البعد التاريخي قد أكمله إهمال حقيقة الرموز وفي نهاية المطاف قد تكون الحقيقة الرمزية اكثر اهمية من الحقيقة التاريخية ، لذا فان الانتقادات المسيحية للإسلام والانتقادات الإسلامية للمسيحية وعلى الرغم من ان الطرفين قد قبلا بها الا انها لا تبدو مقبولة للمراقب المحايد لان تلك الانتقادات لا تبدو موضوعية . وبعبارة أخرى لا يوجد في هذه الحالة اية موضوعية في مقارنة دين بالدين الأخر . من السهل نسبياً إعطاء أتباع احد الدينين أسباب موضوعية لبرهنة تفوق دينه على الدين الاخر ، ولكن هذه الأسباب ستكون ضعيفة ومتحيزة من وجهة نظر أتباع الدين الأخر لانهم ليسو من نفس البيئة الثقافية الدينية للطرف الأول ... .ولن يكون هنالك مفر من هذا المأزق لذا فان علينا بكل تواضع ان نعيش معاً ([2]) .

هناك طريقة ، على أية حال ، للمضي قدما ، ان عملية التعايش بين الدين والإقليم الثقافي في سياق اكتساب الإقليم الثقافي مبادئ التجانس الأساسية والتي من المحتمل ان تتطابق على نطاق العالم . ان توسع النظرة العلمية عالمياً هي نقطة البداية في هذه العملية ، فكما ان الثقافة والدين تتلاقيان مع النظرة العلمية فانهما كأمر واقع سيكونان قريبين من الإقليم الثقافي للدين الاخر وبهذه الطريقة ستكون هنالك حركة بطيئة نحو ثقافة متجانسة لأنحاء العالم ، وفي مثل هكذا وضع ، فان مقارنة موضوعية للأديان سيكون امر ممكناً . وفي سياق التوصل الى الثقافة المتجانسة فان القضايا

1- Watt,Islamic revelation,p115 .

2- Ibid, p116 .

الدينية العالقة ستجد حلاً لها بنفسها . بمعنى انه سيكون بالإمكان مقارنة الاديان ... ولكن من هو الشخص الذي يقارن الدين ، خلال العقود القليلة القادمة سوف تتحقق اشياء مهمة ، مثل القدرة على الموائمة بين الأشكال التقليدية ومنتجات الظروف المعاصرة، والقدرة على ادماج قيم معترف بها في الاديان الأخرى ([1]) .

يمكن تلخيص هذه المجادلة بالقول : بانه في الوقت الحاضر وفي المستقبل المنظور سيكون ضرورياً الاعتراف بـ»تكامل» معين بين الاديان الكبرى . كل دين هو صالح في منطقة ثقافية معينة ولكن لا يتعدى اكثر من ذلك . لم يظهر أي من الاديان قدرته على ان يكون صالحاً لكل المناطق الثقافية رغم حركة البعثات المسيحية والإسلامية ، وطالما ان كل دين صالح في منطقة ثقافية معينة ، فان الاديان تكمل بعضها البعض الاخر في اقليم معين ، والتي ستساعد الانسان على ان يعيش حياة سعيدة ([2]) .

2 ـ مهمة وحوار (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

في ضوء التحليل الوارد أعلاه عن الوضع المعاصر يبدو ان العمل التبشيري، في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما يفهمه المسيحيون الأوربيون والأمريكان لم يعد ممكناً الا في حالات منعزلة، ومن اجل فهم أسباب ذلك سيكون من المفيد النظر في بعض الحالات من العمل التبشيري الناجحة إلتي جرت في الماضي، ومحاولة معرفة أسباب النجاحات . كان اول عمل تبشيري واسع في الإمبراطورية الرومانية إبان العهد الجديد قاده بولس وغيره من الرسل وبشكل عام فقد كان هذا التوسع في منطقة ذات ثقافة متشابهة، وكانت ابرز نجاحات بول بين سكان المناطق الحضرية حيث كان هنالك بالفعل بعض التداخل بين الإغريقية والثقافة الشرقية ، وكان من بين اكثر المتحولين ورعاً

1- Watt,Islamic revelation, p116-117 .

2- Ibid, p117 .

من صفوف « أولئك الذين يخافون الله» هم من الوثنيين الذين جذبتهم التعاليم والعبادة اليهودية المعزولة . وهكذا كان انتشار المسيحية في أسيا الصغرى وأوروبا ... ([1]) .

ينبغي النظر الى التوسع المسيحي في أوروبا الغربية بمدى علاقته مع الإمبراطورية الرومانية فقد كان هنالك توسع في الإمبراطورية نفسها ، تبعه قبول المسيحية من قبل العديد من الأشخاص في العاصمة روما ، ولقد كان لانحسار الإمبراطورية وتفككها تحت تأثير الغزو البربري ، والذي قاد الى ركود المسيحية ، لكن بعد القليل من الوقت وجدت المسيحية نفسها مطلوبة لتلبية احتياجات الناس الذين كانوا سابقاً جزءاً من الإمبراطورية ، او أولئك الذين لم يكونوا من جزءاً منها لكنهم تأثروا بالثقافة الرومانية ، وبغض النظر عن المسيحية فلم يكن للغزاة البربر أو أتباعهم أي دين ... حيث انتشرت المسيحية في أوروبا الغربية ثم اعتبرت الثقافات المختلفة والمتنوعة وكأنها من نمط واحد .

كان التوسع المسيحي من خلال الجهود التبشيرية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مشابهاً في نقاط معينة مع التوسع الذي جرى في زمن سابق ، مع وجود الاختلاف في بعض النقاط ، فارتباط التوسع السابق مع انتشار الثقافة الرومانية كان موازياً مع علاقته بانتشار الثقافة الأوروبية في القرن التاسع عشر . وكان من أهم نجاحات الحركة التبشيرية هو بين الناس من ذوي الثقافة البسيطة ، خصوصاً في الأماكن التي لم يكن فيها دين منظم ليدعمها . في أجزاء كثيرة من أفريقيا على سبيل المثال حيث كانت الثقافة المحلية تضمحل فان الأفارقة قبلوا بتكنولوجيا وثقافة الرجل الأبيض ، كما قبلوا بدينه كذلك ([2]) .

الأهم من ذلك ... هو الاختلافات بين التوسع الحالي والتوسع القديم في أوروبا الغربية . لقد كانت الحركة التبشيرية الأخيرة تحاول اختراق الأقاليم الثقافية في العالم التي تسيطر عليها من اديان اخرى ، فلقد أراد سكان هذه المناطق الحصول على

1- Watt,Islamic revelation, p117

2- Ibid, p118 .

التكنولوجيا الغربية وثقافتها المادية، إلا أنهم في نفس الوقت استمروا بولائهم لدينهم الذي كانوا يعتقدون بأنه متفوق على دين الأوربيين ، وهكذا فان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية كان محدوداً للغاية في هذه الأقاليم ، وجاء معظم المتحولين دينياً من أشخاص كانوا على هامش تلك الثقافات، او من الذين لم يكونوا راضين عن وضعهم الاجتماعي. ان القادة الفكريين والروحيين لتلك الأديان العظيمة لم يمسهم احد ولكن كل الذي حصل أنهم أصبحوا على علم بالمسيحية باعتبارها تحدياً لنظامهم الديني وقد اتخذت خطوات لمواجهة هذا التحدي، وفي الأقاليم ذات الثقافات الغريبة كان من الصعب بمكان ان تجد المسيحية موطئ قدم فيها . وينطبق ذلك بشكل خاص على المناطق الثقافية الإسلامية([1]) .

إن هذا لا يعني أن الأديان العالمية تبقى جامدة ، على العكس من ذلك ، فبغض النظر عن الحركة التبشيرية المسيحية فان كل المناطق الثقافية الكبيرة كان عليها ان تواجه تحديات اطلق عليها « التأثير الغربي» والعنصر الأساسي في هذا التأثير هو التكنولوجيا الأوروبية ، وليس اقل من ذلك التطور في وسائل الاتصال وهذه قادت الى المشاركة في بعض فروع الاقتصاد العالمي ومن ثم الى المشاركة السياسية ، وكان لابد ان يتدرب الأشخاص على كيفية استخدام الاختراعات ألأوروبية ، وهذا يجعلهم على تماس مع النظرة العلمية ، وهكذا فان عودة ظهور الأديان العالمية ، انما هي حالة دفاع ضد الهجوم الذي تعرضت له مواقعها من الحركة التبشيرية المسيحية ، واستجابة للتحدي الأوسع الذي قدمته المجموعة الكاملة من التجارب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية ([2]) .

بينما كان يحدث هذا للاديان في العالم ، في الوقت نفسه كانت هنالك عملية تشويه لدوافع الحركة التبشيرية بين المسيحيين . ربما كان هذا التشويه موجود طوال القرن

1- Watt,Islamic revelation, p118-119 .

2- Ibid, p119.

التاسع عشر مع درجة من الإرتباك بين انجازات المسيحية وبين الحضارة الغربية. بعد الحرب العالمية الأولى كانت هنالك مبالغة ، بين مؤيدي البعثات التبشيرية المسيحية ... لقد دخلت روح الاستقطاب عندما لم يعد تركيز الاهتمام على توفير احتياجات الرجال والنساء الروحية ، بل على الرخاء بالمعنى المادي للمجتمع المسيحي وللكنيسة ، ويمكن توثيق ذلك بطرق مختلفة ، فكانت هنالك عبارات مثل « غزو العالم من اجل المسيح» فضلاً عن الاهتمام بإحصائيات التبشير وبالخصوص أعداد المتحولين والتوسع في العضوية في الكنائس المحلية ، وبخصوص هذه النقطة بالذات كان هنالك تناقض صارخ مع الإسلام ... لان المجتمع الإسلامي يجعل من هؤلاء الأشخاص المتحولين أخوة لهم عند إعلان تحولهم . وان مثل هذا الموقف ينطلق من ثقة عميقة في حقيقة دين المرء، ثقة لا تتطلب دعمها بالإحصائيات ، من ناحية أخرى فان المسيحيين الشرقيين كانوا يعانون من أزمة ثقة بالنفس ، فلقد لاحظوا تفكك تلك الحالة المادية والسياسية والهيمنة الاوروبية التي كانوا يفخرون بها ... ([1]) .

اذن لم يكن ممكنا ، في الحالة المعاصرة ، فهم الحملات التبشيرية كما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر عدا بعض الحالات الاستثنائية . ولم تعد البعثات التبشيرية مطلوبة في بعض المناطق كما كان عليه الحال ، طالما ان هنالك كنائس محلية أخذت على عاتقها تحمل المسؤوليات بما في ذلك تبشير زملائهم ، وفي الواقع حتى أولئك الذين يُرسلون من أوروبا وأميركا ينظر لهم على أنهم يخدمون الكنيسة الأصلية ، وهكذا تم استبعاد الوسائل التقليدية وخصوصاً مبدأ إرسال الوكلاء المأجورين إلى بلدان ذات ثقافات غريبة لتحقيق هدف أساسي هو نشر رسالة دينية ، ومن اجل البحث عن أتباع جدد لدينهم ... ([2]) .

كما تم تطبيق مفهوم جديد للعلاقة بين الأديان أيضا وهو « الحوار» وهذا

1- Watt,Islamic revelation, p119-120 .

2- Ibid, p120 .

قد تم فهمه بطرق مختلفة، فالبعض يتصور وكأنها مجرد مؤتمرات عالية المستوى قد تنتهي ببيانات متفق عليها، وآخرون تبدو لهم ان الفكرة نوعاً ما مرتبطة بعدد من المفكرين المسيحيين والمسلمين يعقدون عدداً من الاجتماعات ينظرون فيها بصياغات متنافسة لمبادئ العقيدة، وبمرور الوقت سيتوصلون إلى استنتاج ان بعض هذه الفرضيات صحيحة والأخرى غير صحيحة. كما ان البعض الأخر يتحدث عن الحوار كعنصر للتبادلية في الحد الادنى، مثل الكاتب السويسري الذي انهى كتابه «الحوار مع الاسلام» بالنداء الأتي الى المسلمين: «نحن نطلب منكم بشكل خاص جداً ، انتم الذين أكدتم القرابة بين ديننا ان تدرسوا فكرة ان الغرب لديه شيء يقدمه أكثر وأحسن من حضارته ، والتي هي رأسماله واختراعاته : انها كلمة الحياة ، الرؤية لمملكة الله، وأمل نهائي تعبر عنه هذه الكلمة ، اسم واحد ، هو يسوع المسيح» ([1]) .

لا يمكن اعتبار ان هذا حوار ذا معنى مهم . ان هذه العبارات لا يمكن ان توصل أي شيء حتى للمسلم المثقف تثقيفاً عالياً . واذا كان سيرد على هذه المقولة فانه سيقول بان الكلمة العليا هي القرآن ... .

اذا ابقينا هذه النقطة في الاعتبار ، وهي ان الحوار ذي الصلة هنا هو بين اشخاص من اقاليم ثقافية مختلفة فانه سينظر اليه بانه حوار يتوقع منه درجة عالية من الانفتاح لما يقوله الشخص الأخر، لن يكون هنالك حوار من أي نوع الى أن يستمع كل طرف الى الطرف الاخر الى حد الفهم لما يقال، وذلك امر صعب خصوصاً بين ثقافات اجنبية ... اذا كان المسيحي والمسلم يبحثون فقط عن مجادلة الطرف الاخر فسوف يجدون العديد من الحجج ولكن هذا لن يقود الى حوار . فالحوار يتطلب أولاً الإرادة للتعلم ، ومع اختلاف الحضارات هذا يتطلب مزيداً من الصبر كي تصبح العناصر العقلية الغريبة مألوفة لكل طرف، بعد عملية طويلة من هذا النوع سيكون بإمكان الشخص الاستماع بتقدير مناسب عندما يتحدث الأخر، ولاجل ان يصبح ما يقوله

1- Watt,Islamic revelation, p120-121 .

احد الاطراف مألوفاً لدى عقلية الطرف الاخر يتوجب على الطرف الاخر ان يكون اكثر انفتاحاً ، حيث سيكون بإمكانه تقدير قيمة الدين الاخر وعندها سيبدأ بالتساؤل هل توجد طريقة يمكن بها ادماج هذه القيم في دينه . ان المقطع الذي اقتبسناه للكاتب المسيحي في اعلاه يحاول بأدب ان يشجع المسلمين على ان ينظروا في امكانية اضافة شيء لدينهم ، من دون التخلي عن اساسيات الدين ، لكنه فشل كمسيحي ان يسأل ان كان لدى الاسلام شيء يقدمه كي يحاول اضافته الى مسيحيته ([1]) .

يبدو من الضروري ان يتواصل الحوار الحقيقي الذي يعطي الحق لكل محاور للتمييز بين الرسالة الايجابية لديانته ودفاعها ، وبالدفاع يقصد التأكيدات والحجج التي تمنع إتباعه من الإرتباك جراء الانتقادات والتأكيدات المعاكسة من إتباع الدين الاخر ... ([2]) .

ان الدفاعات الدينية دائماً ما تكون محرّفة ومبالغ فيها خصوصاً ازاء الأديان الاخرى التي لها انصال معها ، ففي فترة تكوّن المسيحية كان عليها ان تدافع عن نفسها ضد اليهودية بادعائهم ان المسيحية لديها تفسير متفوق للعهد القديم ، وفي فترة لاحقة برزت وجهة نظر تقول بان اليهود هم المسؤولون عن موت المسيح وقد اعترف مجلس الفاتيكان الثاني مؤخراً بان هذا تحريف وحاول تصحيحه . ومن دفاعات المسيحية ضد الاسلام انها تضمنت الاعتقاد بان محمد كان دجالاً واعياً لان الاسلام يحابي الشهوة الجنسية عند الرجل . وان الدين الاسلامي انتشر بقوة السلاح ، اما دفاعات الاسلام ضد اليهودية والمسيحية فكانت بتأكيد تحريف كتبهما المقدسة . لن يكون من المغالاة القول بانه حيثما يقارن دين نفسه مع الدين الاخر هناك تحريف ومقدار من الباطل فيما يقوله عن نفسه وعن الأديان الاخرى ، وهذه هي الاشكالية حينما ننبري في الأخير للدفاع فنقول: « ان ديني هو الدين الأخير وهو اعلى من بقية الأديان ويتضمن حقائق عن

1- Watt,Islamic revelation,p121 .

2- Ibid, p122 .

العالم وحياة الإنسان» ([1]) .

اذا كانت هنالك بداية لحوار حقيقي يجب ان يتخلى كل طرف عن دفاعاته، ففي الحوار مع الإسلام يجب على المسيحيين التخلي عن القول بان محمد دجال وغيرها من الآراء المماثلة ، ومن المؤكد ان من يقول» لا استطيع التخلي عن ديني لأنه هو الدين الاعلى وانا ملتزم بهذا الاعتقاد ...» ان مثل هذا القول ينطوي على سوء فهم كبير . ان الرجال لا يغيرون دينهم الى دين اخر بعد تقييمه من قبل اديان اخرى ، ثم ان هنالك قناعة وهو ما تبنى هذا الكتاب مناقشته ، وهي انه في الوقت الحاضر من المستحيل ان تقارن الأديان بحيادية مطلقة لأنه لا احد يعرف الإسلام والمسيحية من الداخل بشكل كافي . ومن غير الممكن ان يقوم الشخص المتحول بهذه المقارنة أيضا ، لأنه سيكون متحيزاً ايضا ولسبب مشابه لا احد يستطيع ان يجري مقارنة موضوعية لثمرة كل من الدينين... باختصار لا يمكن تبرير القول « ان ديني احسن من دينك» ما قد يستطيع قوله هو « هذه الرسالة الإيجابية لديني واعتقد انها صحيحة» ([2]) .

طالما لا يمكن اجراء مقارنة بين الأديان أي لا يوجد تقييم لها من حيث التفوق او الدونية ، يمكن أن تكون صالحة كما ان روح الحوار تتطلب وجوبية تجنب مثل هذه المقارنة ... ان الرغبة في تجنب المقارنات قد تعززت بتعاليم علم النفس الحديث والذي ترى بأن التأكيد على التفوق هي علامة من علامات الضعف . اذا كان المرء مقتنع فعلاً بحقيقة معتقداته فان الامر لا يحتاج لدعمه بالتأكيد على تفوقه على الاخرين ، قد تشعر الجماعة الدينية بحاجة بعض أتباعها ضعيفي الإيمان الى ضرورة في التأكيد على تفوق دينها كما انه اعتراف على وجود ضعاف الايمان لديها . اذا كنا نريد حقا الحوار مع الأديان الأخرى واذا كنا نريد ان نعيش بالمشاركة في هذا العالم فان علينا ان نبتعد عن القول

1- Watt,Islamic revelation, p122-123 .

2- Ibid, p123 .

بان ديننا هو أعلى من الأديان الأخرى ([1]) .

عودة إلى الشكل القديم للبعثات المسيحية . لم يكن بولس الرسول الأعظم، موظفاً مأجوراً لأنه كان يفضل الحصول على أجره الذي يعيش به من تجارة صناعة الخيام ... بهذه الطريقة شارك بولس حياة الناس قبل ان يتحدث معهم عن قضايا الدين، لمثل هذا المفهوم يعود المسيحيون المعاصرون وغيرهم . ان البعثة هي نشاط الانسان الذي ينجز عملاً مفيداً في هذا العالم بعيداً عن ادعاءات حقائق الدين . ان اخوة المسيح الصغار اشتغلوا بأعمال يدوية متواضعة بين الناس الفقراء في البلدان غير المسيحية. واخرون طوروا بلدان من خلال مهاراتهم الثقافية والصناعية والزراعية . وأثناء قيامهم بذلك فهم يشاركون أتباع الأديان والثقافات الغريبة . كانت حياتهم مفتوحة للناس، والجميع بمقدورهم ملاحظة كيف ان دينهم يمكنهم من التعامل مع المشاكل المألوفة لديهم. انها شهادة حياة ممكن ان تفسح المجال للجميع ليروا « ناتج» دين الرجل في حياته وهي ليست حياة خاصة وانما حياة مشتركة ([2]) .

ان الشخص الذي يشارك حياة ثقافة غريبة قد يندمج مع مختلف الافكار لذلك الدين ولتلك الثقافة . فهو اذن سيكون في وضع أفضل لمعرفة حقائق دينه بالطريقة التي تحضى بتقدير الآخرين . وبلا شك فانه سيكون قادراً على الاستجابة دينياً لبعض ممارسات و معتقدات الدين الأخر . يبدو ان هذا هو شكل الحوار والدين الذي سيكون في المستقبل القريب ... ([3]) .

3 ـ قبول التكامل (مقاطع من كلام المستشرق مونتجمري وات)

لقد حان الوقت لتلخيص النقاط التي طرحت في محاولة للوصول الى استنتاج. ان العالم متوحد مادياً في الوقت الحاضر على اساس العلوم والتكنولوجيا الغربية،

1- Watt,Islamic revelation, p123-124 .

2- Ibid, p124-125 .

3- Ibid, p125-126 .

ولكنه بعيد جداً عن التوحد في عناصر اخرى كثيرة. فالمجتمعات الدينية الكبرى مازالت محتفظة بحيويتها مثلما هو واضح في عودة الأديان في الآونة الاخيرة . الكل يشترك بالحوار مع النظرة العلمية. وقد يتضادوا معها حيث ان النظرة العلمية لا تفي بكافة حاجات الانسان... في الوقت نفسه تحاول الأديان الكبرى ان تتكيف مع الحالة المعاصرة التي أوجدتها التطورات التكنولوجية ، وهكذا فان جميع الأديان في الوقت الحاضر لديها اشياء مشتركة سواء اكانت في الحوار ام العلم ، والحاجة للتكيف مع الثقافة والتكنولوجية وعلى هذا فان انجازات دين ما ستكون اكثر من الأديان الأخرى . ومع ذلك فان الأديان رغم هذه المشاركة في الحياة ستجد ان الاتصالات ماتزال صعبة وان التقدم بالحوار سيكون بطيئاً ، ولعقود قادمة عديدة ستسير الأديان الكبرى جنباً الى جنب مع كل من يحقق نجاحاً في بيئته ، لذا فان عليهم ان يتعلموا قبول البعض للبعض الاخر كنوع من التكامل في المرحلة الراهنة على الاقل ([1]) .

اذا سمح للعالم النظر في موضوع التكامل ، فلا بد ان ينظر فيه من وجهة النظر الدينية ، المسيحيون يحبون استعمال هذه العبارات « الهدف من الخلق» و « نظام الحياة الحقيقي « ولنفترض ان هذه العبارات نقلها الانجيل للبشر استناداً الى ما ذكرناه سابقاً ، فان مثل هذه الحجج يجب التخلي عنها على الاقل في الاستدلال بان هذه الامور تتم بشكل كامل ومعروفة من قبل الأديان الأخرى ... لقد انتجت الأديان الكبرى في المناطق الواسعة نوعاً من التجانس على المستويات الفكرية والروحية والتي اطلقنا عليها المجتمع الديني الثقافي ، وارتباط كل دين في الثقافة التي نشأ فيها ، لذا فلن يكون من الانصاف مقارنة دين بالدين الاخر . وبالنتيجة طالما بقيت الثقافة المصاحبة للدين كما هي فان الأديان ستستمر لتكمل بعضها البعض لان كل دين يتناسب مع عقلية الثقافة المصاحبة له بقدر تعلق الامر بالحقائق حول طبيعة الكون وحياة الإنسان ([2]).

1- Watt,Islamic revelation, p126 .

2- Ibid, p126-127 .

بطبيعة الحال، وعلى المدى الطويل، يتوقع ان يكون هناك دين واحد لجميع أنحاء العالم رغم انه سيحتوي على اختلافات مسموح بها ومشابهة للمذاهب الأربعة في الاسلام السني. ويبدو ان أي توحيد للدين لابد ان يصاحبه توحيد في الثقافة ، ان مثل هذه الحركة قد بدأت وهنالك ضغط علماني يحث على هذا الاتجاه . ولكن ليس من المرجح ان تمضي الوحدة الدينية بعيداً ما لم ترافقها حركة نحو الوحدة الثقافية ، وقد تكون مثل هذه الحركة قد بدأت بالفعل مع الضغوط العلمانية . ان هذا الضغط لوحده لا يكفي لتحقيق الوحدة لأنها ستتوقف عندما يتم تحقيق الوحدة اصطناعياً . ان الوحدة الحقيقة ستحصل كناتج عرضي نتيجة القلق من كثرة التحديات ... ان التحديات الاكثر الحاحاً هي التكيف للظروف المعاصرة . ما تريده البشرية وتحتاجه بصفة اكبر من الدين في الوقت الراهن ، هو الارشاد والقوة للعيش في عالم فيه انتاج كبير للتكنولوجيا والصناعة والاتصالات السريعة ، والاتحاد المادي وكل التوتر الناجم عنها . كما انها تحتاج الى التعامل عقلياً مع تحدي النظرة العلمية . هذا التكيف سيحصل بلا شك بطرق مختلفة ولكنه سيحصل بالتأكيد . سيجعل من السهل على البشر التعامل مع مشاكل الحياة اليومية وعلى هذا الاساس سيتم الحكم على الأديان ([1]) .

حيث في عالم المستقبل فان العديد من الناس سيجرون اتصالات مع أشخاص من الديانات والثقافات الغريبة ، و سيميلون الى التكيف في محاولة ادماج هذا التقدم في الأديان الأخرى ، وفي هذه المحاولة ستكون بعض الأديان اكثر نجاحاً من الأديان الاخرى . الدين الاكثر نجاحاً هو من سيعمل على ادماج قَيّمهُ في الأديان الأخرى ، هو الذي سيكسب متحولين اليه من الأديان الاخرى . الناس الاخرون سيقدرون نتائج التكيف الناجح في حياة اتباع ذلك الدين . وسيعملون على انجاز شيئاً مماثلاً لدينهم ولكن اذا كانت النتائج غير مرضية سيحولون ولاءهم الى الدين الاخر ، وفي مثل هذه

1- Watt,Islamic revelation, p127-128 .

الحالة ستكون المقارنة الموضوعية بين الأديان ممكنة ([1]) .

يرى الكثير من المسيحيين بان الدين الذي سيتبناه العالم هو الدين المسيحي، ولكن هذا شيء بعيد وهو امر غير مؤكد . ونذكر هنا مسالة واحدة ان البعض من الشعوب المسيحية البارزة قد ادينت بالعنصرية ، فاذا كان هنالك دين غير قادر على حل موضوع العنصرية بين اتباعه ، فمن غير الممكن ان يكون قادراً على تقديم حلول لمشاكل العالم الاخرى . كل دين فيه مزايا وعيوب . من بين مزايا الاسلام انجازاته في تحقيق الاخوة والقناعة العميقة بها . ولكن من عيوبه انه يحجب مزايا الاخرين ، فالاسلام يجد صعوبة في ادماج قيم الأديان الاخرى . ان الاسلام بالتأكيد منافس قوي في توفير اطار الدين الواحد في المستقبل ([2]) .

ليس من الضروري في الوقت الحاضر توقع ... المستقبل فما سيحدث بالضبط لن يكون نتاجاً لتخطيط البشر بل هو من عمل قوى اللاوعي ... سيكون من الهيمنة الالهية على خطط الانسان ... ([3]) .

1- Watt,Islamic revelation , p128 .

2- Ibid, p128-129 .

3- Ibid, p129 .

قراءة نقدية لما ورد في الفصل الثامن

1 - الاسلام في مستقبل العالم

لم يخفي المستشرق وات هواجس الخوف من الديانة الاسلامية ومستقبلها بتصريحه ان المستقبل سيكون لمصلحة الاسلام، ونصوصه خلال هذا الفصل كانت واضحة وصريحة، ففي وقت مبكر جداً نبه الى هذا الخطر، ووضع حلول لمواجهته من خلال ما طرحه لمعالجة العلاقة بين المسيحية والاسلام، عن طريق تأسيس علاقة جديدة بينهما تؤدي في نهاية المطاف الى ايقاف الخطر الاسلامي على الوجودي المسيحي . لقد بدا واضحاً انه مندفع باتجاه صياغة علاقة جديدة بين الديانتين، وفي تقديري انه أراد من خلال طرح هذا النوع من العلاقة، للابقاء على اقل تقدير على حال الكيان المسيحي كما هو، لان المسيحية ستزداد بمرور الوقت ضعفاً واضمحلالاً ، وسيقل وجودها كلما تقدمنا باتجاه المستقبل ان لم تكن هنالك حلول ومعالجات .

ان المنافسة التي بدأت بين المسيحية والاسلام منذ قرون طويلة لم تسجل انتصاراً دينياً واحداً للمسيحية على الاسلام من حيث التمدد والتوسع ، ولا من حيث الادلة والبراهين على اصالة ومتانة العقيدة الدينية التي يعبر عنها وات بانها دفاعات دينية يهاجم بها كل دين الدين الاخر. المسيحية لم تظهر بمظهر المنتصر على الديانة الاسلامية على امتداد كل العصور السابقة، ويمكن ان نقول ان الحضارة الغربية كحضارة مادية ظهرت بمظهر المنتصر والمسيطر وصاحب القوة في مقابل الحضارة العربية او الحضارة الاسلامية المتراجعة، ولكننا حينما نتحدث عن الجانب الديني وليس المادي، فان الامر

مختلف تماماً لاننا حينما نتحدث عن الديانة المسيحية كممثل للبيئة الغربية لا نجد انها قدمت نفسها بشكل واضح ومقبول ومؤثر . فالمسيحية لم تحتوي على حلول لكل المشاكل البشرية ، لانها عجزت عن سد الثغرة الكبيرة التي طالت اصل العقيدة المسيحية ، كما ان التشريعات التطبيقات العملية للانسان الموجهه لسلوكه المنبثقة من قلب الديانة المسيحية ، لم تنجح في حل مشاكله اطلاقاً . في المقابل نجد ان الديانة الاسلامية تعبر عن نفسها بابرز التعابير على كل المستويات ولاسيما العقيديةُ منها والتشريعية . ولذلك لم يسجل التاريخ ان المسيحية تفوقت دينياً على الاسلام ، ولن يتحقق هذا التفوق الا اذا تحول الغرب جميعا لاعتناق الاسلام وتبني نشره من جديد وفق رؤية جديدة بعيدة عن العصبية والتطرف . وهذا ما اتوقع حصولهُ في غضون نهاية القرن الحادي والعشرين .

اذا رجع بنا الزمن الى العصور الوسطى نجد ان الخطاب الديني المسيحي خطاب متشنج ، خطاب يهدف للتسقيط والنيل من الرموز المقدسة للديانة الاسلامية ، فلم يعترفوا بنبوة النبي محمد (ﷺ) ، كما انهم وصفوه بابشع الاوصاف ، في حين ان الخطاب الاسلامي هو خطاب مهذب ومعتدل ، يتحدث عن المسيحية وعيسى (ع) ، بمنتهى الاحترام ، ولاتظهر علامات التشويه والانتقاص التي نجدها واضحة وبارزه في الخطاب المقابل . هذا الامر من بين اهم الادلة على ان المسيحية كانت على الدوام منهزمه امام الاسلام . هذا التهذيب والاعتدال في الخطاب الاسلامي منشأه الالتزام بحدود الخطاب القرآني ، والاخير معروف بانه خطاب معتدل ، لذا بقي الخطاب الاسلامي ملتزماً بحدود ما جاء بالقرآن وضمن اطاره العام .

نعم الخطاب الاسلامي يُقاد ويُوجه من خلال الخطاب القرآني ، وقد بقي منضبطاً ضمن هذه الحدود ، لان الخروج عنها هو خروج عن الديانة الاسلامية برمتها . وعلى هذا الاساس لاحظنا الهدوء والانضباط في الخطاب الاسلامي ، في مقابل التشنج والانفعال في الخطاب الديني المسيحي .

الدليل الاخر على التفوق الاسلامي يظهر لنا عبر استمرار الوجود الاسلامي في بيئته ، واتساعه ليشمل بيئات اخرى ، بالرغم من كل المحاولات التي بذلتها الفرق التبشيرية في حقبة الاستعمار لاقتلاع الاسلام واحلال المسيحية محله ([1]) ، ولكنها فشلت في ذلك ، وعجزت عن ان تكون نداً للاسلام على مستوى التمدد والانتشار ، فطالما ضعف وجودها وقل في مقابل توسع المسلمين وتمددهم ، لتتحول بعض الشعوب المحسوبة على العالم المسيحي الى الديانة الاسلامية .

الان ومن خلال الاحصائيات نلحظ التمدد الاسلامي مستمر حتى ضمن البيئة المسيحية، ويزداد اليوم بعد الاخر، وهذه الحقائق هي التي تدفع باتجاه صدور اطروحات مماثلة لما ذكره وات، هم وجدوا ان مسار المنافسة بين المسيحية والاسلام غير مجدي لان المسيحية خسرت الكثير، ولذلك اخذوا يطرحون مسار اخر يؤسس لعلاقة جديدة بين الديانتين من خلال ذلك تحترم احداهما الاخرى ، عبر بوابة الحوار، واملهم في ذلك هو الخلاص من الخسائر الكبيرة التي مازالت المسيحية تتكبدها في البيئات الممثلة لوجودها على الارض .

في البدء هو يتحدث عن البيئات الثقافية التي كانت ممثلة للمسيحية او ممثلة للاسلام، ويتحدث عن البيئة الثقافية الممثلة للاسلام ، وقد ورد في حديثه معلومات غير دقيقة وخاطئة حينما قال : ان العقلية الاسلامية في مراكز الاسلام استندت على العقلية العربية في القرن السابع الميلادي ، مع انها ادخلت بعض من النتاج الاغريقي او نتاج المسيحيين الشرقيين . وهذا الكلام واقعاً غير دقيق ومضحك ! اذ كيف تستند العقلية الاسلامية على نتاج العقلية العربية !!! وايهما نتاج الاخر ؟ وايهما اكثر رُقي من الاخر ؟ هل ان العقلية الاسلامية اقل من العقلية العربية !!! و هل ان العقلية العربية بامكانها ان تنتج هذا الابداع الذي تفوق على مستوى العالم في مراحل زمنية سابقة !!! هذا الكلام غير صحيح لان العقلية الاسلامية لم تولد من رحم المجتمع العربي او مخرجات

1- ينظر كتاب : الدالي ، الهادي ، وعمار هلال ، دراسة في حركات التبشير والتنصير ، الدار المصرية اللبنانية .

العقل العربي ، وانما ولدت مما احتواه الاسلام بكل ما جاء به من مخرجات تشريعية واخلاقية وتاريخية . الاسلام منظومة متكاملة افصحت عن نفسها فتمخض عنها العقل الاسلامي المتقدم ، ولايمكن باي حال من الاحوال ان ننسب ذلك النتاج الثمين الى العقلية العربية تحديداً .

اذن العقلية الاسلامية هي نتاج الاسلام لان الاسلام منظومة متكاملة تجاوزت كل ما كان سائداً في المجتمع الجاهلي الذي انتقص من كرامة الانسان وقيمته العليا ، ولم يكن صعباً ملاحظة ذلك الفارق الكبير بين الواقع الجاهلي قبل الاسلام وبين الواقع الجديد المتحقق في ظل الديانة الاسلامية الذي بلغ مبالغ الرقي بفضل الاسلام . بالامكان القول ان العقلية الاسلامية شطبت مجمل ما أنتجته العقلية العربية في الجاهلية ، وأحلت محله نتاج جديد . اما بالنسبة للمدخلات الاغريقية او المسيحية الشرقية ، نقول ان طبيعة المنظومة الاسلامية وبالرغم من اكتفائها بنفسها وعدم الحاجة الى أي نتاج عقلي اخر ، الا انها كانت تسمح للنتاجات العقلية المفيدة التي لا تتقاطع مع توجه الديانة الاسلامية بالحضور ، وان تكون جزءاً من العقلية الاسلامية ، ولذلك نقول انه سُمِح لنتاجات العقلية الاغريقية والمسيحية الشرقية وهذا السماح ليس لقصور وحاجة العقلية الاسلامية لتلك النتاجات ، ولكن لسماحة هذه الديانة واستيعابها لكل شئ مفيد ، ولكون هذه المدخلات لا تتقاطع مع تعاليم الاسلام ، كما ان تلك النتاجات كانت بسيطة التأثير ، ولم يكن لها تلك الاضافة الكبيرة للعقلية الاسلامية . لان العقلية الاسلامية كانت متقدمة ومكتفية بما وصلت اليه بفضل الاسلام .

النقطة الاخرى التي اشار لها المستشرق وات وهي مسألة ان المسيحية لم تحقق حضورها في البيئات الثقافية المختلفة عنها ، فاشار الى جملة من الاسباب في ذلك ، ثم طرح فكرة انه لم يُظهر اي من الاديان قدرته على ان يكون صالحاً لكل المناطق الثقافية !!! وهذا كلام خاطئ جملةً وتفصيلاً ، لان ما دعاه لهذا القول انه وجد الاسلام يحقق حضوراً متميزاً داخل البيئة المسيحية ، في مقابل الفشل والتراجع الواضح للديانة المقابلة

، هذا الحضور والتمدد ازداد يوم بعد اخر ، فمن الانصاف اذن ان ننظر الى هذا التمدد والانتشار الاسلامي على انه نجاح وقبول في كل البيئات المختلفة ، وان اختلفت ثقافياً عن البيئة الاسلامية . ولهذا نقول ان كلام وات خاطئ بشأن فشل الاديان في ان تتوسع في البيئات المختلفة . حينما قال : ليس هنالك من دين قادر على ان يكون صالحاً لكل البيئات الثقافية المختلفة !!! نقول له توقف هنا عند حدود المسيحية ، فالمسيحيةُ بالفعل ليست صالحة لكل البيئات الثقافية المختلفة للاسباب التي تحدثنا عنها سابقاً ، نعم هي ديانة ضعيفة من الناحية العقيدية ، وضعيفة من الناحية التشريعية ، وهي لم تحافظ على اصالتها كما نزلت ، وانما مجمل ما احتوته هذه الديانة هي مدخلات بشرية غير اصيلة وغير صالحة لكل البيئات الثقافية ، لانها صيغت صياغات بشرية لتكون ملائمة لبيئة واحدة ، لقالب واحد هو المجتمع الغربي . ولكن الاسلام مختلف عنها لانه صالح لمجمل البيئات الثقافية المختلفة كونه لم يُصَاغَ في عقيدته ومنظومته التشريعية وفي مفاهيمه لرقعة او بيئة جغرافية محددة ، وانما فيه الكثير من المرونة التي بالامكان ان تستوعب مختلف الثقافات ومختلف المجتمعات وهذا احد اهم عوامل نجاح الاسلام . فلو اخذنا احدى الحالات المعبرة عن استيعاب التشريعات الاسلامية لظروف واحوال المجتمعات الانسانية المختلفة ، لنرى كيف تكون صالحة وملائمة .

عند الحديث عن نظام الزواج الاسلامي التعددي على سبيل المثال وهو مختلف عن نظام الزواج في المسيحية الذي يقوم على الأحادية ، فانه وفقاً للتشريع الاسلامي يسمح للرجل في الزواج باكثر من امرأة واحدة على ان لا يتجاوز الاربع .هذا التشريع جاء لمراعاة الظروف والحاجات والثقافات التي من دون شك هي متباينة ومختلفة من مجتمع الى اخر ، ولذلك طبيعة التفاعل مع هذا التشريع ستكون مختلفة من مجتمع الى اخر ومن عصر الى اخر ، وفقا لظروف كل مجتمع ، ومع وجود هذا الاختلاف في درجة التفاعل بين المجتمعات البشرية الا انهم جميعاً لا يخرجون خارج نطاق وحدود هذا التشريع ، بمعنى ان التشريع الاسلامي استوعب ظروف المجتمعات بالسماح للرجل

الزواج من واحدة او اثنتين او ثلاث او اربع ، فتحققت المرونة في هذا التشريع لتتناسب مع الظروف المختلفة للمجتمعات ، التي قد تعيش ظروف سيئة جدا مع نقص كبير في اعداد الرجال ، فيلبي هذا التشريع الحاجة ، ويقدم الحلول المناسبة لهذه المشكلة . في المقابل قد تعيش مجتمعات اخرى ظروف مثالية وطبيعية ولا تعاني من مشاكل في وتفاوت في اعداد الرجال والنساء ، وبامكانها ان تطبق التشريع الاسلامي نفسه ، اذن هو تشريع مناسب لكل المجتمعات الانسانية مهما اختلفت ظروفها وتعددت مشاكلها . في حين ان المجتمع المسيحي صاغ تشريعه في الزواج الآحادي ، ليناسب مرحلة محددة او بيئة محددة، من دون النظر الى الظروف المختلفة للمجتمعات ، وبالتالي حينما تغيرت الاحوال وتبدلت ظروف المجتمع المسيحي، وجدنا ان تشريعهم الآحادي لم يلبي الحاجات ولم يعالج المشاكل الاجتماعية ، فاعلن عن عجزه في تقديم الحلول المناسبة لواقع المجتمع وظروفه المختلفة ، وخير مثال على ذلك ، ما شهدته اوربا ومجتمعاتها عقب الحرب العالمية الاولى، وكذلك عقب الحرب العالمية الثانية ، من نقصٍ كبير في اعداد الرجال مقابل اعداد النساء، فلما لم يلبي التشريع المسيحي في نظام الزواج حاجات المجتمع ولم يعالج هذه المشكلة ، نزلت هذه الاعداد الفائضة من النساء الى الشارع ، فنُخرت بنية المجتمع الاوربي وتهدمت اركانه ، وشاع الفساد فيه بدرجة عالية .

اذن هذا هو الفرق بين الديانة الاسلامية والديانة المسيحية ، هو ان هنالك مرونة كبيرة احتواها التشريع الاسلامي كون هذه الديانة هي نتاج الهي ، في حين ان المسيحية وبعد ان تخلت عن نسختها الاصلية اصبحت نتاج بشري ، والنتاج البشري اطلاقاً لا يرقى الى ان يعالج المشاكل البشرية ويقدم حلولاً مناسبة لها .

2 - الاسلام يسود وينتصر

وهذا المبحث يتصل بالفكرة العامة وهو يتحدث عن الحركة التبشيرية التي اعتمدت عليها الكنيسة لنشر المسيحية ، او لاعادة الهيبة للمسيحية بعد ان فقدت

من المساحات الكثير من البيئات التي كانت تنتمي اليها ، وكان ذلك من خلال مرافقة هذه الفرق التبشيرية لحركة الاستعمار التي بدأت في العصر الحديث ، وبعد ان تمكنت الدول الاوربية من الوصول الى مناطق واسعة من الكرة الارضية في افريقيا واسيا والامريكيتين ، وبسبب القوة التي امتلكتها اوربا تمكنت الفرق التبشيرية من الوصول الى مناطق بعيدة واستغرقت سنوات طويلة تعمل على نشر المسيحية هناك ، ولكن السؤال هنا هل حققت النجاح المنشود ؟ هل نشرت المسيحية ؟ نقول ان تلك الجهود الكبيرة وعلى امتداد قرون لم تتمكن من النجاح او تحقيق الاهداف المرسومة ولاسيما في البيئات الاسيوية ، وشرق افريقيا ، لتماسك الاديان المنتشرة فيها وفي مقدمتها الديانة الاسلامية ، وعجز المسيحية عن المنافسة . ولقد اعترف وات نفسه بذلك الفشل حينما قال : ان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية كان محدوداً في تلك الاقاليم . معنى ذلك انها فشلت في تحقيق اهدافها في الانتشار والتوسع في البيئات المختلفة .

في الواقع ، ان ما حصل في الفتوحات الاسلامية ابتداءاً من القرن السابع الميلادي، والذي ادى الى انتشار الاسلام ، هي تجربة عمد الاوربيون الى تكرارها بشكل واضح في العصر الحديث ، فاعتقادهم ان الاسلام انتشر بقوة السيف خلال الفتوحات الاسلامية دفعهم الى محاولة نشر المسيحية بالطريقة ذاتها ، من خلال مرافقة الفرق التبشيرية المسيحية للجيوش الاوربية المستعمرة . نعم الامر مشابه الى درجة كبيرة لما حصل في الفتوحات ، جيوش عسكرية تخرج من قلب اوربا وتتجه للسيطرة على مناطق واسعة في افريقيا واسيا ومناطق اخرى ، وتستعمر هذه الاراضي وتتحكم بمصائر شعوبها وتمارس كل اشكال الضغط ، من اجل ارغام الناس على اتباع سياسة الغرب وتنفيذ مطالبهم ، وهذه السيطرة توظف لتغيير اديان تلك الشعوب وادخالهم الى المسيحية .

اذن القوة والسلاح وظفتا للسيطرة على الشعوب ، ولكن الفارق كبير بين ما حصل للفرق التبشيرية المسيحية ، التي لم تحقق نجاح واضح في ذلك ، في حين ان

الدعاة الذين رافقوا الفتوحات الاسلامية حققوا نجاحاً كبيراً في نشر الاسلام . نحن هنا امام سؤال هام جدا : هل ان النجاح في نشر ديانة ما بحاجة الى القوة والسلاح ؟ لماذا المسلمون حققوا نجاحاً كبيراً في نشر ديانتهم ومازالوا ؟ والمسيحيون اخفقوا في ذلك ؟ اين يكمن الخلل ؟

الخلل يكمن في طبيعة الدين ومحاكاته لتطلعات تلك الشعوب ، وفي رصانة الدين واصالته ، هل ان الديانة الاسلامية والديانة المسيحية متساويتان في مسألة التكامل والشمولية والقدرة على تقديم الحلول لكل المشاكل البشرية ؟ بالتأكيد كلا غير متساويتين، فالديانة الاسلامية تقدم كل ذلك ، ولكن المسيحية تتخلف عنها كثيراً ، لانها كما قلنا سابقاً ، دين طاله التحريف فاصبح بمثابة الدين الوضعي الذي يتكون من المدخلات البشرية . نعم لقد احتوى على الكثير من المدخلات فحولته من دين سماوي اصيل الى مايمكن التعبير عنه بالدين الوضعي .

المسيحية في الواقع لما وصفها وات بانها محدودة التأثير ، قد صدق في وصفه كونها تحتوي على نسبة عالية من المدخلات البشرية التي تحدثنا عنها سواء على مستوى العقيدة او التطبيقات التشريعية العملية ، والمدخل البشري في الواقع لايمكن ان يكون باي حال من الاحوال ، بمستوى يرقى للاصل الالهي مهما توفرت فيه مقومات الابداع البشري .

اذن ضعف المسيحية في الجانب الديني كان السبب في محدودية تأثيرها ، وعدم نجاحها في تحقيق الانتشار الواسع، في تلك الاقاليم التي بذلت كل شئ من اجل ان تنتشر فيها، مرافقة الحركة الاستعمارية . اذن الامر برمته يعود الى طبيعة الديانة واصالتها حتى تكون مؤثره في المجتمعات البشرية ، وكلما ضعفت الاصالة في الاديان كلما قلة حالات التأثير وكلما زادت الاصالة في الاديان ، كلما زاد مستوى التأثير وهذه مسألة لا جدال فيها .

احدى اشارات وات الواضحة والصريحة ، التي يعبر من خلالها عن مخاوفه من

منافسة الاسلام لوجود ومستقبل المسيحية . كنا نعتقد سابقاً ان هذا الاحساس بالخوف قد بدء في منتصف القرن العشرين ، ولكن هنالك نص يورده وات يبين ان هذه المخاوف والهواجس مبكرة جدا ، ويمكن ان نقول انها تمتد على اقل تقدير الى القرن التاسع عشر الميلادي ، على اعتبار ان الحركة الاستعمارية بدأت مع نهاية الخامس عشر وبداية السادس عشر وبالتالي استمرت خلال القرون التالية ، مع ملاحظة ان الفرق التبشيرية كانت مرافقة للحركة الاستعمارية ، الا ان بوادر الفشل في تحقيق الاهداف كانت واضحة ، لذلك على ما يبدو ، هم شعروا في وقت مبكر ، بان الاسلام هو منافس قوي لهم . ومن بين هؤلاء المستشرق وات ، الذي رأى بان الغرب كان يعتني باحصائيات نتائج العمل التبشيري وبالخصوص اعداد المتحولين للمسيحية ، فعبر عن ذلك بقوله : كان هنالك تناقض صارخ مع الاسلام بمعنى ان تلك الاعداد كانت تشكل فارق كبير مع اعداد المتحولين للديانة الاسلامية . ومن هنا نستطيع ان نقول هي مقدمات الشعور بان الاسلام منافس قوي للمسيحية ، بل هو ابرز من يهدد مستقبلها بشكل واضح .

من الاعترافات المفيدة للمستشرق وات ، انه ذكر بعض مقومات نجاح الديانة الاسلامية ، وفي المقابل اشار الى نقاط ضعف المسيحية ، فقد تحدث عن مبدأ الاخوة الذي اكدت عليه الديانة الاسلامية ، والذي يساهم بشكل كبير في اشعار العنصر الجديد بانه جزء من الكيان الاسلامي ، كما ويشعره بثقة كبيرة ، وبالتالي يصبح فاعل ومتحرك في مصلحة المسلمين . على العكس من ذلك هو حال المؤسسة المسيحية التي جعلت من المسيحيين الشرقيين وهم بالاصل جزء من الكيان المسيحي جعلتهم يعانون من الثقة بالنفس، حينما جعلت منهم اقل مرتبة وعزلتهم عن اخوانهم مسيحيوا اوربا .

بعد هذه الانتقالات والاطروحات المثيرة للمستشرق وات ، حتى وصل لما يريد التأسيس له اصلاً ، وهو ما دفعه لتأليف هذا الكتاب ، لقد اقتنع وات بان معاداة المسيحية للاسلام لن تجدي نفعاً للمسيحية باي حال من الاحوال . وان موقفها الاول

المتمثل بعدم الاعتراف بالديانة الاسلامية كديانة سماوية فضلاً عن اتهام النبي محمد (ﷺ) بشتى التهم الباطلة ، هو يرى ان هذا المنهج القديم لن يجدي نفعاً بعد الان ، لانه لم يوقف تمدد المسلمين وتوسعهم ، ولم يوقف ضعف المسيحية واضمحلالها ، ولذلك هو يطرح مفهوم جديد للعلاقة بين المسيحية والاسلام يريد ان يؤسس لعلاقة جديدة بينهما . هذه العلاقة الجديدة التي يريد لها ان تكون حاضرة وفاعلة ، هو يعتقد انها الحل الامثل والاخير لنجاة المسيحية والا فان غير ذلك فالمسيحية الى زوال .

اذن في مفارقة جديدة نجد ان لغة الخطاب الغربي انطلاقاً من هذا الكتاب (كتاب الوحي الاسلامي) الذي لا نبالغ فيه اذا قلنا ان صاحبه ممن تُعتمد ارائهم كمناهج توضع موضع التطبيق على ارض الواقع عند الغربيين ، فاقول : اننا من خلال كتاب وات هذا ، اننا امام لغة جديدة للخطاب الغربي ، ممثلة باحد ابرز مفكريه المدركين لخطورة الموقف ، هذه اللغة الجديدة التي تبنى خلالها وات خطاباً معتدلاً ، وطرح مفهوم جديد للعلاقة بين الاسلام والمسحيية يقوم على احترام متبادل بينهما ، ويدعو للحوار والتفاهم ويدعو للاحترام المتبادل بين الديانتين . وهذا بحد ذاته تنازل كبير وتحول خطير في الخطاب الغربي وموقفه من الاسلام . اننا امام هذا المتغير لا نحتاج الى ذكاء كبير لاجل ان نقف على اسبابه الحقيقية ، لاشك ان هذه الدعوات وهذه الرغبة باتجاه علاقة جديده تقوم على احترام الديانة الاسلامية ، انما هي اولى بشارات النصر لدين الله ، وثانياً لانها خطة جديدة يسعون من خلالها لايقاف الزحف الاسلامي والتمدد الذي وصل الى مراكز نفوذهم وسنبين ذلك في الصفحات اللاحقة .

كما انه من الجميل ان نجد نصوص للمستشرق وات يطرح خلالها تساؤلات موضوعية تصب في مصلحة وجهة النظر الاسلامية ، فهو حين يعلق على دعوات الكاتب السويسري التي ضمنها في كتابه الحوار مع الاسلام ، ووجه خلالها نداءاً للمسلمين في كتابه هذا قائلاً : نحن نطلب منكم بشكل خاص جدا انتم الذين اكدتم القرابة بين دينا ان تدرسوا ان الغرب لديه شئ يقدمه احسن من حضارته وهي رأسماله

واختراعاته انها كلمة الحياة الرؤية لمملكة الله وامل نهائي تعبر عنه هذه الكلمة اسم واحد هو يسوع المسيح . يعلق وات على هذا الكلام وعلى دعواته للمسلمين ان يحاولوا فهم رسالة المسيح يقول ان هذه العبارات والدعوات لن تكون مؤثره في المسلمين وهذا الكاتب فشل في ان يستكمل هذا السؤال حينما طلب من المسلمين ان يفهموا ماذا سيقدم لهم العالم المسيحي فهو لم يسئل ماذا سيقدمه الاسلام للمسيحين من اضافه ، بمعنى انه تعامل على اساس ان المسيحية ممكن ان تقدم الاضافة للمسلمين ، من دون ان يتعامل على اساس مماثل ،ويبحث فيما سيقدمهُ الاسلام للمسيحية من اضافة .

اذن عبر المستشرق وات عن مخاوفه من منافسة الديانة الاسلامية لوجود ومستقبل المسيحية ، كنا نعتقد سابقاً ان هذه الهواجس والمخاوف قد بدأت في منتصف القرن العشرين ، على اقل تقدير كان هذا الاعتقاد في ذهني ، ولكن هذا النص الوارد هنا في كتاب وات يظهر بشكل صريح ان هذه المخاوف وهذه الهواجس هي مبكرة جدا ويمكن القول انها تمتد على اقل تقدير الى القرن التاسع عشر على اعتبار ان بوادر فشل نشر المسيحية من خلال الفرق التبشيرية المرافقة للحركة الاستعمارية قد بانت بشكل واضح في هذا التاريخ ، كونها قد بدأت مع انطلاق التوجه الاوربي نحو استعمار ارجاء واسعة من العالم ، وبالتالي بعد مضي قرون من محاولة نشر المسيحية وتعثر ذلك ، ايقن الغرب ولاسيما رموز الفكر لديه ان ضعف المسيحية وقوة الاديان المنافسة لها ولاسيما الديانة الاسلامية ، وتماسك هذه الاديان وثباتها في البيئات التي تنتمي اليها ، كانت اهم اسباب هذا الفشل ، ولذلك حدد وات تاريخ مبكر لهذه الهواجس حينما تحدث عن الفرق التبشيرية من خلال ما قاله : كان هنالك اهتمام باحصائيات التبشير بمعنى نتاج العمل واعداد المتحولين للمسيحية بهذه النقطة بالذات يقول : كان هنالك تناقض صارخ مع الاسلام ، بمعنى ان تلك الاعداد كانت تشكل فارق كبير وشاسع مع اعداد المتحولين للاسلام . وهنا نستطيع ان نقول انها مقدمات الاحساس بالخطر والخوف على مستقبل المسيحية من المنافسة القوية التي ابدتها الديانة الاسلامية .

نتوقف هنا مع جملة من الاعترافات المفيدة في مقدمتها انه ذكر بعض مقومات نجاح الديانة الاسلامية ، وفي المقابل اشار الى انها نقاط ضعف قد اثرت على احوال المسيحية حينما ذكر اؤلئك الذين يتحولون للديانة الاسلامية ، وكيف يشعرون بان علاقة الاخوة تجمعهم وتمنحهم الثقة بالنفس ، فيشعرونهم بانهم جزء اساسي من هذا الكيان، ويمنحونهم ثقه كبيرة من خلال دخولهم للاسلام ، حتى يصبحوا فاعلين ومندفعين باتجاه خدمة الديانة الاسلامية ونشرها ، وعلى العكس من ذلك فان الديانة المسيحية حولت المسيحيين الشرقيين وهم جزء من كيان المسيحية الاصلاء ، جعلتهم يعانون من ازمة ثقة بالنفس، حينما تعاملت معهم على اساس انهم اقل شأنا واقل مرتبة منهم ، لذا خلق لديهم شعور بعدم الثقة بالنفس ، وبانهم ليسوا جزءاً من هذا الكيان . هذا هو الفارق بين واقع الديانة الاسلامية وواقع الديانة المسيحية .

بعدئذ يصل وات الى فكرته الاصلية التي اندفع من اجلها لتأليف هذا الكتاب، هو وصل الى نتيجة انه ليس مجدياً للمسيحية ان تعادي الاسلام ، وان تبقى على موقفها الاول الذي يدعو لعدم الاعتراف بالاسلام كديانة سماوية وبانكار نبوة محمد (ص) وباتهامه بشتى التهم الباطلة ، هو يرى ان هذا المنهج القديم لن يجدي نفعاً ، لانه لم يوقف تمدد المسلمين وتوسعهم ولم يوقف ضعف واضمحلال المسيحية ، لذلك طرح مفهوم جديد للعلاقة بين المسيحية والاسلام يريد يؤسس لعلاقة جديدة بينهما وهذه العلاقة التي يريد لها ان تؤسس وان تكون فاعله ، وهي الحل الامثل لنجاة المسيحية كما يعتقد وات والا فان دون ذلك فالمسيحية الى زوال .

اخذ وات يدعو الى الحوار الحقيقي لاصحاب الديانتين ، الحوار الذي يقوم على اسس بعيدة عن التسقيط والاتهام وعملية اضعاف المقابل ، الحوار القائم على الاحترام، الحوار الذي يؤدي وظيفة مهمه لتتحقق حالة التعايش السلمي بين الديانتين ، هو يقول بان الدفاعات الدينية التي يقوم بها كل دين ، لمواجهة الانتقادات التي تتعرض لها تلك الاديان ، وبالتالي هي تهيئ دفاعاتها الدينية ، ولانها نتحدث عن العلاقة بين الاسلام

والمسيحية حدد وات الدفاعات المسيحية ضد الاسلام بثلاث محاور مهمة تمثلت بالصورة التي طرحت في البيئة الغربية لقرون طويلة وهي : ان محمداً (ﷺ) كان دجالا وكان مدركا وان الاسلام كان يحابي الشهوة الجنسية وان الدين الاسلامي انتشر بالقوة والسيف . هذه دفاعات المسيحية ضد الاسلام كما يصفها وات ، اما دفاعات الاسلام ضد المسيحية فانه يقول بان الاسلام شمل المسيحية واليهودية ، حينما اكد على تحريف كتبهم المقدسة ، ورأى وات بان الاستمرار في هذه الاتهامات الدفاعات ، كل دين يكيل التهم للدين الاخر هذا لن يدعم استمرار الحوار ، ولن يؤدي الى احترام متبادل بين الاديان من دون ان يناقش وات وبشكل موضوعي هذه الاتهامات المتبادلة، ومدى حقيقتها ، راح يدعو الى تركها وعدم الخوض فيها والبدء بصفحة جديدة قائمة على الاحترام المتبادل وقبول الاخر، وهذا في واقع الامر كما اراه نوع من انواع المساومة الواضحة : انكم يامسلمون تتركون الحديث في امر تحريف المسيحية حتى نتوقف نحن المسيحيون عن اتهامكم بهذه التهم .

ان وات هنا وكأنه يضع فرضية للمساومة بين الاسلام والمسيحية ، ولكنها مساومة غير عادلة في واقع الامر ، فلاجل ان تكتمل معالم الحوار وتكون الارضية صالحة للحوار، والاحترام المتبادل ، لابد من ترك كل اشكال الدفاعات القديمة (الاتهامات) من قبل كل دين ضد الدين الاخر حتى تتحقق هذه الارضية المناسبة لحالة الوئام والسلام بين الديانتين ، وهذا الكلام فيه تحايل كبير من هذا المستشرق وات الذي هو ملم تماماً بالديانتين ، وهو يعلم من هي الديانة الحقة التي تمثل الحقيقة والاقرب الى الله تعالى ، هو يعلم تماما هذا الكلام ، ولكنه يتحايل بهذه الطريقة ويضع هذه المساومة حتى يتنازل الاسلام عن القول بتحريف المسيحية ، ان يتنازل عن الحقيقة . ان المسيحية تقوم على اساس كتب محرفة ، وان عقيدة المسيحية اساساً هي محرفة ، وغير اصيلة وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك ، ان دعوى وات للمسلمين بترك ماجاء في القرآن من تصريح واضح عن التحريف في المقابل ان تترك المسيحية اقوالها القديمة ، ولن تقول ان محمداً

(ﷺ) كان دجالاً ، ولن تقول ان الاسلام كان راغب بالشهوة الجنسية ، ولن تقول ان الاسلام انتشر بالسيف . في الواقع وات هنا يتعامل بسذاجه مع المسلمين حينما يساوم بهذا الشكل وهذه الطريقة .

كيف لنا ان نركن كلام الله الصريح في القرآن الكريم !!! ونستدير بوجوهنا عن هذه الحقيقة الواضحة ، وهي تحريف المسيحية في مقابل تركهم لتلك الاقاويل التي كانوا يرددونها في بيئاتهم ، وماقيمة ما يدعونه هم امام التصريح القرآني ، وقد سقطت ادعاءتهم واقوالهم من دون أي تنازل فهي :

اولاً : بالنسبة لقولهم ان محمداً (ﷺ) كان دجالاً ، هي تهمة قديمة جداً تعود الى ايام العصور الوسطى . الان البيئة التي يتحدثون اليها ما عادت تتفاعل معهم كالسابق ، لان مستوى الوعي في العالم تغير كثيراً ، وفي بيئاتهم تحديداً اصبح مرتفعاً ، لذلك لا يتفاعل المجتمع الغربي مع اقوال كهذه ، اذن ضمن الواقع الحالي ، هي تهمه قد اسقطها الزمن والوعي المجتمعي .

ثانياً : واما قولهم ان الاسلام دين الشهوة الجنسية ، فهل العالم المسيحي دين ملائكي لاتحركهُ الغرائز ، وهو لاينتمي الى مواصفات الذكوره البشرية ، التي خلقنا على اساسها !!! هذه غريزة بشرية موجودة عند كل البشر ، الاسلام نظمها ووضع لها حلول مناسبة ، اما الغرب الذي عجز عن ايجاد حلول لها ، وحصر الزواج بأمرأة واحدة فقط ، دفع الرجال لارتكاب المفاسد ومعاشرة النساء بالحرام ، دون ان تحرك الكنيسة أي ساكن ، وهي تعلم كل ذلك ، والغريب في الامر ان ذلك لا يُعد شهوانية عند الرجل المسيحي !!! رغم انه يتم في منتهى الفوضى داخل المجتمع ، من حيث عدم معرفة الانساب وتأثير ذلك على المواريث وخلق مشاكل اجتماعية لا تعد ولا تحصى . الاسلام نظم الزواج ووضع ضوابطاً له ، الله تعالى يعلم ان هنالك من الرجال من هو بحاجة الى ان يتصل باكثر من امرأة واحدة ، فضلاً عما يؤديه التعدد في الزيجات من حلول لمشكلة النقص

في اعداد الرجال عند بعض المجتمعات كما اشرنا لذلك في موضع سابق بالتفصيل ، فكان التشريع الاسلامي ، مُنظِماً لاحوال المجتمع البشري الذي يتشكل على اساس منظومة الزواج ، وموضحاً لحقوق الافراد من حيث الانتساب والمواريث وغيرها .

ثالثاً : اما تُهمة ان الاسلام انتشر بالسيف ، فقد تحدثنا عن ذلك سابقاً وقلنا ان الفتوحات الاسلامية ساعدت على نشر الاسلام ، الا ان الانتشار لم يتحقق بفعل القوة والسيف ، وانما الفضل في ذلك يرجع الى طبيعة الديانة الاسلامية ، وما قدمتهُ للشعوب من قيم انسانية معتبرة ، تمثلت باحترام الذات الانسانية بغض النظر عن اللون والعرق والنسب ، وانصاف المظلوم ، وتعزيز الثقة بالنفس وبالدين ، في المقابل الحركة الاستعمارية في العصر الحديث ، سارت بنفس المسار واستعملت القوة والسلاح لاخضاع الشعوب والتحكم بمصيرهم ، وقد رافقتها الفرق التبشيرية ، التي عملت على نشر المسيحية ، ولكنها لم تتمكن من النجاح في مناطق عديدة من العالم ولاسيما من جهة الشرق . فالسؤال هنا : اذا لم تتمكن الدول الاوربية ضمن حركتها الاستعمارية من نشر المسيحية ، رغم امتلاكهم للقوة واخضاع تلك الشعوب لسيطرتهم لسنوات طويلة ، كيف اذن تمكن الاسلام من الانتشار بفضل القوة والسيف !!! ان الامر لايتعلق بالقوة والسلاح ، فالمعتقدات الدينية عند الناس لاتتأثر الا عندما يتحقق الايمان الكامل الراسخ بغيرها ، والا فان كل الات القوة والعنف لن تُجدي نفعاً لتبديلها وتغيرها الى معتقدات جديدة . ومن الادلة الاخرى على ذلك ، اننا نجد في التاريخ غُزاة عرفوا بالهمجية والقوة ، كالمغول الذين اجتاحوا الاراضي الاسلامية في عصر ما ولكنهم في نهاية المطاف اعتنقوا الاسلام واصبحوا اداةً لنشره . نحن نقول ان المعتقد الديني اقوى من السلاح ، وان هذه الاتهامات لا قيمة لها صراحةً ، وهي لاتُمثل شئ امام ماصرح به الاسلام ، من حقيقة ناصعة ، وهي ان المسيحية الان : ديانة غير اصيلة لانها حُرفت في اصل عقيدتها ، وكل الاسس التي تقوم عليها اليوم هي محرفة ، وان كتبهم التي يعدونها كتب مقدسة كذلك هي محرفة ، ولايمكن باي حال من الاحوال اثبات

عكس هذه الحقيقة التي صرح بها واكدها القرآن الكريم .

لذلك فان المستشرق وات يدعو الى ان يكون هنالك بداية حوار حقيقي بين الاسلام والمسيحية ، ولاجل ان يتحقق هذا الحوار ، لابد ان يتخلى كل طرف عن دفاعاته !!! بمعنى ان تتخلى المسيحية عن اقوالها من ان محمداً (ﷺ) رجل مخادع ودجال ، وان الاسلام دين الشهوة الجنسية ، وانه انتشر بالسيف والقوة . وفي مقابل ذلك على الاسلام ان يتخلى عن تصريحه بان المسيحية مُحرفة .

انها مساومة واضحة ، يراد منها اقرار الاسلام باصالة المسيحية ، ورفع تهمة التحريف عنها ، وابعاد كل الادلة التي يمتلكها الاسلام على ذلك لتبقى صورة المسيحية على الاقل في نظر اتباعها صورة غير مخدوشة وغير مزيفة . وهذا بحد ذاته تزكية من الاسلام للديانة المسيحية الحالية ، واعلان صريح على انها على قدم المساواة مع الديانة الاسلامية ، وبالتالي فهي نتيجة جيدة في ظل الظروف السيئة التي تمر بها هذه الديانة ، يريد وات الوصول اليها ، وانهاء حالة المنافسة التي لم تؤدي الا للمزيد من الخسائر .

حينما يتحدث وات عن المقارنات بين المسيحية والاسلام ، يؤكد مرةً اخرى على ان دوافعهُ في انشاء هذا الكتاب ، تحديداً هي لمناقشة موضوع المقارنات هذه ، وانه يسعى لحل هذه الاشكالية ، الا انه من المستحيل المقارنة بين الاسلام والمسيحية في الوقت الحالي . نعم وات لايريد ان تكون هنالك مقارنة بين الديانتين ، لانه يعلم تماماً ان ناتج هذه المقارنة سيصب في مصلحة الاسلام ، لامتلاكهُ من الادلة الكثير ، في اثبات بطلان المسيحية . طالما كان يؤكد في الفصل الاخير من كتابه على الدعوة الى الحوار والاحترام المتبادل بين الديانتين ، ولاجل ان يتحقق هذا الحوار والاحترام المتبادل لابد من تجنب هذه المقارنات .

مرةً اخرى نلحظ الضعف والاستسلام في خطاب هذا المستشرق ، الذي سعى لاقناع المسلمين بترك الدفاعات الدينية من خلال المقارنات . متناولاً المرء وقناعاته الراسخة بعقيدته ، في ان ذلك لايحتاج الى دعم باثبات تفوق ديانة على ديانة اخرى ،

بمعنى انكم يا مسلمون يا اصحاب العقيدة الراسخة بدينكم ، لستم بحاجة الى اثبات تفوق ديانتكم على المسيحية ، من خلال اثبات تحريفها وبطلانها . ابقوا بحقيقية معتقداتكم واحترموا معتقدات الاخرين ، واتركوا ما لديكم من ادلة وحجج على بطلان المعتقدات الاخرى . هذا في الواقع خطاب يعبر عن موقف ضعيف ، يؤشر لنا حقيقة الواقع المسيحي ومستقبل هذه الديانة على مستوى العالم .

في الواقع لم ارى في منطق العلاقات على مستوى الافراد او الجماعات ، ان من يقف في موقف الضعف والهزيمة ، يأتي ليُملي عليك شروطهُ ومطاليبهُ ، في ان لا اتحدث عن عناصر تفوقي عليه ، وان اتخلى عن الحقائق التي احتواها كتابي المقدس (القرآن الكريم) ، وان لا ابين عناصر ضعفه حتى يقابلني بالاحترام !!! أي علاقة هذه التي يسعى الغرب لتأسيسها مع الاسلام ؟ ثم يقول في اواخر نصوصه اذا كنا نريد ان نعيش بالمشاركة في هذا العالم فان علينا ان نبتعد عن القول ان ديننا هو اعلى من الاديان الاخرى . وهذا كلام موجه صراحة الى الديانة الاسلامية تحديداً .

هكذا تتكشف امامنا هواجس الخوف في نصوص هذا المستشرق ، المُعبره عن موقف الاستشراق العام في الغرب ، الخوف من خطر الاسلام على مستقبل الوجود المسيحي ، فالنصوص التي احتواها فصله الاخير ، اظهرت لنا انهزام واضح ، وخوف صريح من الخطر الاسلامي ، الذي سيُداهم الوجود المسيحي في مجمل البيئات الممثلة له . نعم هنالك خوف وهلع من المستقبل ، وان البيئة المسيحية مهددة بخطر الزوال ، وان هنالك امكانية كبيرة لاحلال الاسلام محلها .

قد يلحظ المتتبع لكتاب وات ان خطابهُ نحو تأسيس علاقة احترام متبادل بين المسيحية والاسلام ، هو خطاب موجه للمسلم على وجه التحديد ، ولكنني اعتقد ان هذا المستشرق حاول ان يستفز العالم المسيحي بما اورده من نصوص ، لاسيما تلك التي تضمنت تنبؤهُ بالمستقبل الديني المسيحي والاسلامي ، فكان فيها : منبهاً ، محذراً ، كاشفاً لهم حجم التراجع المسيحي . فقد توقع وات ان يسود العالم دين واحد على الامتداد

الزمني الطويل ، وان عملية توحيد هذا الدين على مستوى العالم لابد ان تصاحبها عملية توحيد ايضاً في الثقافة . متسائلاً حول هوية هذا الدين ؟ هل هي المسيحية ؟ فيجيب بكل صراحة ان هذا بعيد عن التحقق ، معللاً ذلك بسبب افتقاد الديانة المسيحية الى مقومات النجاح والقبول على مستوى حاجات المجتمعات البشرية ، وبالتالي هنالك مشكلة كبيرة في المحافظة على وجودها الحالي ، اذن كيف لنا ان نتخيل مع هذا الضعف الحالي ان تنتشر على مستوى العالم في المستقبل ، لذا فهو أكد على انها بعيدة كل البعد عن ان تكون منتشرة على مستوى العالم .

اما بشأن تنبؤهُ لمستقبل الاسلام ، فقد كان صريحاً في ذلك حينما اشار الى ان الدين الاسلامي هو المنافس القوي ، وهو صاحب الحظ الاوفر ليمثل الدين الواحد في مستقبل العالم ، وان ذلك لن يكون من جراء التخطيط البشري ، انما هو عمل قوى اللاوعي ، او انه من باب الهيمنة الالهية على خطط الانسان ، بمعنى الارادة الالهية التي تكون لها كلمة الفصل كلما تقاطعت معها خطط الانسان وتدبيراته .

في الواقع هذه الاطروحات والافكار ، التي تضمنها كتاب المستشرق وات (الوحي الاسلامي في العالم الحديث) الصادر في عام (1969) ، انما هي رؤية واضحة جداً ، واستشراف عميق للمستقبل من قبل احد ابرز رجال الفكر والاستشراق في اوربا خلال القرن العشرين . الرجل في عام (1969) تحدث عن مستقبل العالم ، كيف سيكون من ناحية الوجود الديني ، والان ونحن في عام (2016) بدأنا نشعر ان مقدمات ماطرحهُ وات قد بدأت . الرجل بغض النظر عن مأخذنا عليه ، لابد ان نقدر بدرجة عالية رؤيتهُ العميقة والدقيقة لمستقبل الاديان في العالم . فهو اول من صرح بمعارضته لفكرة : ان المسيحية ستسود في العالم كديانة وحيدة ، وقال ان ذلك غير ممكن ، لانها فشلت في ان تستوعب بيئات بشرية كانت تنتمي لها بالاصل ، فكيف لها ان تتحول لسود العالم وهي عاجزة عن المحافظة على اصل كيانها ، هذا الرجل كان جريئاً حينما اعترض على هذا الاعتقاد المسيحي ، وقال بعدم قدرتها على ان تسود في العالم ،

واكثر جرأةً ، حينما اكد على ان دين الاسلام هو المنافس القوي ، وهو القادر على ان يكون الدين الاوحد الذي سيسود العالم . ولكن هذه الجرأة في المرة الاولى ، وكذلك في الثانية اعتقد انها جاءت لاستفزاز العالم المسيحي لينهض من جديد على اقل تقدير لمقاومة المد والتوسع الاسلامي ، فجاء التصريح بالحقيقة بلسان المُستفز .

وكما ذكر وات فان المشيئة الالهية ستكون فاعلة في ان يتحقق هذا التنبؤ ، الملاحظة المهمة هنا ولابد من ذكرها ، ان الله تعالى لم يتكفل بحفظ مضامين الاديان السابقة ، فلما تعرضت اصول تلك الاديان للتحريف ، لم يتدخل الباري عز وجل لحفظها من الضياع والتلاعب ، وبعكس ذلك تماماً ، مانجدهُ في الديانة الاسلامية تكفل الله تبارك وتعالى بحفظها وصونها من الضياع والتلاعب ، حتى حفظت بتمام اصلها كما أُنزلت ، متمثلةً بالقرآن الكريم ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) ([1]) ، وهذا الامر يدعم قولنا ان مشيئة الله تعالى مع انتشار الدين الاسلامي ، وهو الدين الوحيد غير المحرف ، الذي سينتشر ويسود العالم في نهاية المطاف ، والذي سيساهم في ان تصل البشرية الى الحياة السعيدة الامنة المسالمة ، التي يريدها الله تبارك وتعالى . ولكن هل ان ذلك سيتحقق بسهولة ؟ الجواب : بلا شك لن يسود الاسلام العالم بسهولة ، فهناك من يعتمد على كتابات المستشرق وات وغيره من مفكري الغرب لرسم سياساته وخططه في مواجهة المَّد الاسلامي . لذا كان على العالم الاسلامي ان يفهم في وقت مبكر انه بات يشكل خطراً على الكيان المسيحي ، وان ذلك سيخلق جملة من الاساليب المعادية لايقاف هذ التمدد ، هذه الاساليب ستطال بنية المجتمع الاسلامي ، ووحدته الدينية ، وعناصر تفوقه على غيره من الاديان الاخرى . وبالرغم من كل ذلك ، لديه يقين تام ان هذه الاساليب مهما تعددت ، وبلغت ذروتها في تشويه الديانة الاسلامية، فان الارادة الالهية ماضية نحو التحقق ، في ان يسود الاسلام في العالم .

1- الآية (9)، سورة الحجر.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- مصادر الكتاب

- احمد بن حنبل (ت241هـ) .

1- مسند احمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، لا.ت .

- البخاري ، ابوعبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي (ت 256هـ) .

2- صحيح البخاري ، دار الفكر ، بيروت ، 1986 .

- الترمذي ، محمد بن عيسى السلمي (ت279هـ) .

3- سنن الترمذي ، تحقيق احمد محمد شاكر واخرون ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لا.ت .

- الزركشي ، محمد بن بهادر بن عبدالله (ت794هـ) .

4- البرهان في علوم القرآن ، تحقيق احمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1971 .

- السيوطي ، جلال الدين (ت 911هـ) .

5- الاتقان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973 .

- ابو شامه المقدسي ، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت665هـ) .

6- كتاب المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، تحقيق ألتي قولاج ، مصر ، 1975

- الطبري ، محمد بن جرير (ت310هـ) .

7- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1960 .

- النسائي ، ابوعبدالرحمن احمد بن شعيب (ت303هـ) .

8- فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة ، دار احياء العلوم ، ط2 ، بيروت ، 1992 .

مراجع الكتاب العربية والاجنبية

- احمد،محمد خليفة حسن .
9- تاريخ الديانة اليهودية ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1998 .
- الاعرجي، ستار جبر .
10- الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الاسلامي ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2001.
- باركر، ارنست
11 - الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لا.ت
- جولد تسيهر، اجنس .
12- المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة علي حسن عبدالقادر ، المركز الاكاديمي للابحاث، بيروت ، 2013 .
- جنيبير ، شارل .
13- المسيحية نشأتها وتطورها ، ترجمة عبدالحليم محمود ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لا.ت .
- حسن ، سهيلة مزبان .
14- الحركة الفكرية في العراق ، دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ،2016 .
- الداقوقي ، حسين علي .
15- معركة طلس والصراع الحضاري بين العرب والصين ، بحث منشور في مجلة دراسات للاجيال ، العدد الثالث ، العراق ، 1987 .
- الدالي ، الهادي ، وعمار هلال
16 - دراسة في حركات التبشير والتنصير، الدار المصرية اللبنانية
- داود، جرجس .
17- اديان العرب قبل الاسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981 .
- الزرقاني ، محمد عبدالعظيم .
18- مناهل العرفان في علوم القرآن ، المطبعة الفنية ، القاهرة ، لا.ت .
- الشامي ، رشاد

19 - اليهود واليهودية في العصور القديمة ، القاهرة ، 2001
- شاهين ، عبدالصبور .
20- تاريخ القرآن ، دار القلم ، القاهرة ، 1966 .
- شبر ، عبدالله .
21- حق اليقين في معرفة اصول الدين ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بلا ، 1997 .
- العلي ، صالح احمد .
22- دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، مؤسسة الرسالة ، لا.ت
- العمري ، عبدالعزيز .
23- الفتوح الاسلامية عبر العصور ، دار اشبيليا ، ط3 .
- الغزالي ، مشتاق بشير .
24- انتشار الاسلام في المشرق بين اراء المستشرقين والواقع التاريخي ، بحث منشور في مجلة مركز دراسات الكوفة ، العدد (19) ، النجف ، 2010 .
25- القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ، دار النفائس ، بيروت ، 2008 .
26- الوحي المحمدي في المنظور الاستشراقي ، بحث منشور في مجلة الاستاذ ،كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد ،العدد (55) ، 2005 .
- كاظم ، سلامة حسين .
27- مفهوم النبوة في الديانات الثلاث اليهودية المسيحية الاسلام ، اطروحة دكتوراه مقدمة لكلية العلوم الاسلامية بجامعة بغداد ، 1991 .
- كاهين ، كلود .
28- تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، لبنان ، 1983 .
- المنشاوي ، ناصر .
29- الجوانب الخفية من حياة المسيح ، مصر ، 2003 .

- Sale, George .

28-The Koran , London, 1921.

- Southern,R.W.

29-Western views of lslam in the middle ages ,Harvared,1962.

- Watt,Montgomery.

30- Islamic revelation in the modern world, Edinburgh,1969 .